سُورَةُ البَقَرَةِ

مدنية وآياتها مئتان وست وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ قيل: إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنأخذ من ظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وعن أبي بكر الصديق أنه قال: في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن أوائل السور، وعن علي: إن لكل كتاب صفوة، وصفوةُ هذا الكتاب حروفُ التهجي. وقيل هي أسماء السور، وقال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، فلما نزل ﴿المص﴾ قرأ النبي ﷺ هذه الحروف استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى تعرُّف ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم النبي ﷺ بالقرآن، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتصرت عليها كما رويت عن ابن عباس أنه قال: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي القرآن منزلٌ من الله بجبريل على محمد ﷺ.

فصل
الحكمة من افتتاح بعض السور بالحروف المقطَّعة

الحكيم إذا خاطب من كان محل الغفلة، أو مشغول البال، يقدّم على المقصود شيئاً غيره، ليلفت نظر المخاطب إلى كلامه، وذلك المقدَّم

قد يكون كلاماً «كاسمع» وقد يكون صوتاً كمن يصفر خلف إنسانٍ ليلتفت إليه، وقد يكون بالتصفيق بيده!!

وكلَّما كان المقصود أهم، والغفلة أتم، كان المقدَّم أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: «أزيدُ» والبعيد بيا فيقال «يا زيدُ» والغافل يُنبَّه بـ «أَلاَ» فيقال: أَلاَ يا قوم، أَلاَ يا زيدُ، كما قال الشاعر:

أَلاَ يَا حَمْزُ لِلشُّرُفِ النّواءِ وَهُنَّ مُعَقّلاَتٍ بالفِنَاءِ

فيحسن من الحكيم أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبهات، ثم إنَّ تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يُفهم معناها، تكون أتمَّ في التنبيه، وإذا كان المقدَّم مفهوماً فالسامع يظن أنه كل المقصود، فيقطع الالتفات عنه؛ وهذا هو السرُّ في افتتاح بعض السور الكريمة، بهذه الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿المٓصٓ﴾ و﴿وحمٓعٓسٓقٓ﴾ و﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾ و﴿وحمٓ﴾ و﴿الٓرٰ﴾ و﴿قٓ﴾ وأمثالها من الحروف المقطعة، التي وردت في تسع وعشرين سورة، وكلها مكية إلا البقرة، وآل عمران.

قال قطرب: كان العرب ينفرون من استماع القرآن، ويوصي بعضهم بعضاً بعدم استماعه، كما قال سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون﴾ فلما نزل ﴿المٓصٓ﴾ و﴿كٓهيٰعٓصٓ﴾ وقرأها النبي ﷺ استنكروا هذا اللفظ، وتاقت نفوسهم إلى معرفة ما يتلوه من الكلام، فلما أنصتوا أقبل عليهم القرآن بآياته البينات، مما اضطَّرهم إلى سماعه، وهذا من أحد أسباب الحكمة في افتتاح السور بالحروف المقطعة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «ذلك» إشارة إلى القرآن الموعود إنزاله. بقوله تعالىٰ: ﴿إنَّا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً﴾[1] والإشارة به للتعظيم، والكاف

(١) سورة المزمل، آية: ٥.

للخطاب، وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للتنويه بعلو شأنه.

والمعتبر في أسماء الإشارة هو الإشارة الحسيّة، فإن أشير بها إلى ما يستحيل إدراكه نحو ﴿ذلكم الله﴾ أو إلى محسوسة غير مشاهدة نحو ﴿تلك الجنة﴾ فلتصييره كالمشاهد، وتنزيلُ الإشارة العقلية منزلة الحسيّة، لا تخلو عن لُطْف ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ مصدرٌ سمي به المفعول مبالغة، كالخلق للمخلوق، من الكَتْب الذي هو ضم الحروف، وأصله الضم والجمع، ومنه الكتيبة للعسكر، ويطلق الكتاب على المنزل، وعلى المكتوب، وكتب أي حَكَم وأوجب، ومنه ﴿كتب عليكم الصيامُ﴾ وكتب القاضي النفقة أي قضى بها، والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام، وهو اسم من أسماء القرآن، فالمعنى: إنَّ ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل، الحقيق بأن يخص باسم الكتاب، لغاية تفوقه على بقية الأفراد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق أي لا ريب فيه أنه من عند الله تعالى، وحقيقة الريبة، قلق النفس واضطرابها، والشك سبب الريب ومبدأه، كما أن العلم مبدأ اليقين، والشك، تردد بين الشيئين، والريب استعمل في معنى الشك لأنه يزيل الطمأنينة. نَفَىٰ سبحانه وتعالى الريب مع كثرة المرتابين، على معنى أنه في علو الشأن، وسطوع البرهان، بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر، في كونه وحياً من الله تعالى، لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً، ألا ترى كيف جوّز ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[1]!؟.

وقيل: إنه على الحذف، كأنه قيل لا فيه سببُ الريب، لأن الأسباب التي توجب الريبة في الكلام التلبيسُ، والتعقيد، والتناقضُ، والدعوى العارية عن البرهان، ونحو ذلك، وكلُّ ذلك منتفٍ عن كلام الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر هدى، والمراد هنا اسم الفاعل أي هادٍ للمتقين، واختصاصُ الهداية بهم، لأنهم هم المنتفعون به، وإن كانت دلالة الكتاب عامة لكل ناظر، من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال الله تعالىٰ: ﴿هدى للناس﴾ والاتقاء من الوقاية، وهي فرط الصيانة من المكروه، والتقية والتقوى اسم منه، قال الشاعر:

خلِّ الذنوبَ كبيرها وصغيرها ذاك التقى
لا تحقرنَّ صغيرةً إن الجبالَ من الحصى

مراتب التقوى

وللتقوى ثلاث مراتب:

الأولى: التبرؤ من الكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿وألزَمَهُمْ كلمةَ التقوى﴾[1].

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم به، وهو المتعارف في الشرع.

الثالثة: أن ينزه سرَّه عن كلّ ما يشغله عن الله تعالى، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا الله حقَّ تُقَاتِهِ﴾[2].

وهدايةُ الكتاب شاملة لأصحاب هذه المراتب جميعاً. وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ جملةٌ برأسها ﴿وذلك الكتابُ﴾ جملةٌ ثانية ﴿ولا ريب فيه﴾ جملة ثالثة ﴿وهدى للمتقين﴾ جملةٌ رابعة، جيء بها متناسقة من غير حرف عطف، ومتآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، وهذا أرسخ قَدَماً في البلاغة.

فإن قيل: لو كان الكتاب هادياً لكان هدىً للكفار أيضاً؟ أجيب بأن عدم هدايته إياهم، لتمردهم ولعدم تدبرهم فيه، كرجلٍ يغمض عينيه

---

(١) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

ويمشي في طريق لا يعرفها، فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه، هل ينقص ذلك من قدر بصره؟ وكما قال القائل:

والنجـــم تستصغـــر الأبصـــارُ رؤيتَـــه
والـــذنـــبُ للطـــرف لا للنجـــم فـــي الصغـــر

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تخصيصُ ما ذُكر من الإيمان، والصلاة، والإنفاق، لإظهار شرفها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات، ولفظ «الذي» يصح للعاقل وغيره، والذين لا يستعمل إلا للعقلاء خاصة، وليس «الذين» جمع الذي، بل فيه زيادة لزيادة المعنى، ولذا جاء بالياء أبداً في اللغة الفصيحة، التي عليها التنزيل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ والإيمانُ من الأمن، ثم استعمل في التصديق، واستعماله بالباء لتضمنه معنى الاعتراف، وهو في الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورةً أنه من دين النبي ﷺ، كالتوحيد، والنبوة، والبعث، ونظائرها، وهل هو كافٍ في الإيمان أو لا بدَّ من الإقرار للمتمكن منه؟ الحقُّ هو الثاني، لأنه تعالى ذمَّ المعاند أكثر ممّا ذم به الجاهل المقصّر، والإيمان مجموع ثلاثة أمور: «التصديقُ، والإقرار، والعمل بموجبه» فمن أخلَّ بالاعتقاد فهو منافق، ومن أخلَّ بالإقرار فهو كافر، ومن أخلَّ بالعمل فهو فاسق و﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مصدر وصف به للمبالغة، والمراد به الشيء الخفي الذي لا يدركه الحسُّ، ولا تقتضيه بديهة العقل، وهو قسمان: قسمٌ لا دليل عليه، وهو الذي أريد بقوله تعالى: ﴿وعنده مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ﴾[1] وقسمٌ نصب عليه دليلٌ، كالصانع وصفاته، والنبوة، واليوم الآخر، ونحو ذلك، وهو المراد

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٩.

ههنا وإمّا بمعنى الغيبة أي يؤمنون بالله، والجنة، والنار، والملائكة، والصراط، والميزان، وإن لم يروها بمعنى أي غائبين عن الناس وعن المؤمنين، والفرق بين الغيب والغائب، فالغائب من لا يراك ولا تراه، والغيب من لا تراه وهو يراك، فالله تعالى غيب لا غائب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاةُ: أصلها الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيهم إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لهم﴾[1] أي ادع لهم، وقيل: من صَليتُ العود بالنار إذا لينته، وفي الشرع: اسم لأفعال مخصصة، من قيام، وركوع، وسجود، وقعود، وإنما سميت بها لاشتمالها على الدعاء، وإقامتها عبارة عن تعديل الأركان، وحفظها أن يقع زيغ في شيء من فرائضها، وسننها، وآدابها، من أقام العود إذا قوَّمه وعدَّله، وهو المروي عن ابن عباس[2]، وعنه ﷺ أنه قال: «الصلاةُ عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين»[3] والمراد هنا الصلاة المفروضة كما روي عن ابن عباس، أو الفرائض والنوافل، فمن راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال إلى الله تعالى، دخل في من مدحهم الله بقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، وجُعلت عمادَ الدين، لأنها جامعة لأنواع العبادات، النفسانية، والبدنية، من الطّهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف على العبادة، والخشوْع بالجوارح، وإخلاص النية، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الرحمٰن، وقراءة القرآن، والتكلم بكلمة الشهادة، والصلوات على النبي ﷺ

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٢) قال ابن عباس: إقامتها الإتيانُ بها على الوجه الكامل، من الخشوع والاطمئنان، وأداء فرائضها، وسننها وآدابها، والمحافظة عليها في أوقاتها، رواه عنه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٣) في سنن الترمذي ٥/ ١٣ «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذِروةُ سَنَامه الجهاد» وانظر الحديث في مسند أحمد ٥/ ٢٣١.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرِزقُ: هو ما ينتفع به، ويستعمل بمعنى المرزوق، وهو ما ساقه الله تعالى إلى عباده، سواءً كان حلالاً أو حراماً، مأكولاً أو مشروباً، أو ملبوساً أو غير ذلك، وقال المعتزلة: الحرام ليس برزق، والظواهر تشهد بانقسام الرزق إلى الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها﴾[1] ولو لم يكن الحرام رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، لحديث: «لقد رزقك الله طيباً، فاخترت ما حرَّم الله عليك من رزقه»[2] والحرام رزقٌ من الله تعالى، ولكن يُتأدب في نسبته إلى الله تعالى، والمراد هنا الرزق الحلال، لأنه في معرض وصف المتقين.

والإنفاقُ: صرفُ المال إلى وجوه المصالح والخيرات، ويروى عن ابن عباس أن المراد بها الزكاة، وعن ابن مسعود: نفقة العيال، وقيل: نفقة الجهاد، ورجح كونها للزكاة المفروضة، اقترانُها بالصلاة. وتقديم المفعول ﴿ومما رزقناهم﴾ للاهتمام، وإدخال «مِنْ» التبعيضية للكفّ عن التبذير، بأن ينفق ماله كلَّه، ويترك نفسه وأهله دون نفقة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه، وفي ذلك ترغيب أهل الكتاب في الإيمان، والإنزالُ

---

(١) سورة هود، آية: ٦.

(٢) طرف من حديث أخرجه ابن ماجه في الحدود رقم ٢٦٤٢ في قصة عَمْرو بن قُرَّة، وفيه أنه أتى الرسولَ ﷺ فقال يا رسول الله: «إن الله قد كتب عليَّ الشِّقوةَ، فما أُراني أُرزق إلاَّ من دُفِّي بكفِّي، فَأْذنْ لي في الغناء؟ فقال له ﷺ: لا آذنُ لك، ولا كرامة، كذبتَ أي عدوَّ الله، لقد رَزَقَك الله طيِّباً حلالاً، فاخترتَ ما حرَّم الله عليك من رزقه..» الحديث.

والتنزيل في اللغة: نقل الشيء من مكان عالٍ إلى ما دونه، ويطلق العلو في الأمور المعنوية مجازاً كقوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد﴾ ومعنى إنزال القرآن أن جبريل عليه السلام سمع كلام الله تعالى ونزل به وأدّاه، ولا نعرف صفة تلقي النبي ﷺ الوحي من جبريل، لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء، ولكن الله تعالى أخبر عن تكليمه للبشر بقوله تعالى: ﴿وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ منَ المُنْذرين﴾[2]، ووصفه لنا الرسول ﷺ في جوابه لمن سأل عنه فقال: «أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فينفصم عني، وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثَّل لي الملَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[3].

وقال الحكماء: إن نفوس الأنبياء قدسية، فتقوى على الاتصال بالملأ الأعلى، فينتقش فيها من الصور ما ينتقل إلى الحسّ فيرى كالمشاهدة، وهو الوحيُ على رسل الله. ولا خلاف بين العلماء من أن المنزَّل هو اللفظُ والمعنى، لا مدخل للمخلوق في شيءٍ ممَّا يتعلق بالقرآن الكريم، سوى إيصال جبريل عليه السلام، يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿لا تُحَرّكْ بهِ لسَانَكَ لِتَعْجَلَ به. إنّ عَلينَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ﴾[4].

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراةُ والإنجيل وسائر الكتب السالفة، والإيمان بها جملةً فرضٌ، وبالقرآن تفصيلاً فرضُ عين على كل مؤمن

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥١.

(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي رقم ٢، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف كان يأتيك الوحي؟ الحديث.

(٤) سورة القيامة، آية: ١٦ ـ ١٧.

بحيث لا ينكر شيئاً من القرآن والمراد بالإيمان بالكتب السالفة أنها منزلة منه تعالى على رسله الكرام لإرشاد الأمم، لا أنَّ أحكام تلك الكتب باقية.

﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ والآخرة تأنيث الآخر، كما أن الدنيا تأنيث الأدنى، غلَبتا على الدارين، فجرتا مجرى الأسماء، والإيقان: إتقان العلم بالشيء، بنفي الشك، والشبهة عنه، بالاستدلال، ولذلك لا يوصف به علم الباري تعالى، واليقينُ من صفة العلم، فوق المعرفة والدراية، وهو نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، ولا يعتد بما دون اليقين في الإيمان، ويعرف اليقين بآثاره في الأعمال، ولم يقل «هم يؤمنون» دفعاً للتكرار، وفي تقديم الصلة تعريضٌ بأهل الكتاب، فإن اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزلٍ من الصحة، فضلاً عن الوصول إلى مرتبة اليقين.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة، من حيث اتصافهم بها، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد، للإشعار بعلوّ درجتهم في الصلاح ﴿على هدى﴾ في تنكير هدى إشارة إلى عظمته كأنه قيل: على هدىً لا يُبلغ كنهه، ولا يُقادر قدرُه، وإيراد كلمة «على» المفيدة للاستعلاء، بناءً على تمثيل حالهم في ملابستهم بالهدى، بحال من يعتلي الشيءَ ويستولي عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نصب من الحجج، والمواظبة على محاسبة النفس في العمل، أي هم على هدى كائن من عند الله تعالى، وهو شامل لجميع أنواع هدايته وفنون توفيقه وإنما ذكر الرب، لما فيه من المناسبة الواضحة، لأنه تَعالى لمَّا كان ربَّهم، ناسب أن يهيىء لهم الأسباب لسعادة الدارين، فهو سبحانه الموفق لهم، والمفيض عليهم من بحار لطفه وكرمه، وإن توسطت هناك أسباب مادية، هي كلها من توفيق الله.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تكرير اسم الإشارة ﴿أولئِكَ﴾ لمزيد العناية بشأن المشار إليهم، وللتنبيه على أن اتصافهم بتِلك الصفات الجليلة، يقتضي كل واحدة من الفضيلتين: التمكن من الهدى، والفوز بالفلاح، والفلاح في أصل اللغة: الشقُّ والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يُفلح» أي يُقطع ويُشقُّ، فكأن العبد انفتح له الظفر، وشق أمامه الطريق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

لمَّا ذكر الله تعالى خاصة عباده، بصفاتهم التي أهَّلتهم للهدى والفلاح، عقَّبهم بأضدادهم العتاة، الذين لا ينفع فيهم الهدى، والتي لا تغني عنهم الآيات والنذر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي إن الذين جحدوا وحدانية الله، وكفروا بآياته، وكذبوا رسوله محمداً ﷺ يتساوى عندهم الإنذار وعدم الإنذار، ولهذا قال بعده ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي سواء أخوَّفتهم يا محمد من عذاب الله، أم لم تخوفهم فإنهم لا يؤمنون، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، والمراد بهم أناس بأعيانهم، كأبي لهب، وأبي جهل، وأُبيّ بن خلف، وأمثالهم، أو هي للجنس تتناول من صمَّم على الكفر ومات عليه، والكفر في اللغة: الستر، ويسمى الزارع كافراً لأنه يستر الحب في الأرض، كقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي الزُّرَّاع، وسمي الكافر كافراً لأنه يستر نعمة الله ويخفيها، والكفر في الشرع: إنكار الضروريات من الدين مما اشتهر عند الخاصة والعامة، كإنكار الصلاة وتحريم الخمر ونحوهما، والكافرون أقسام: منهم من يعرف الحق وينكره عناداً، ومنهم من لا يعرف ولا يريد أن يعرف، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إن شرَّ الدوابِّ عندَ الله الصُمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون﴾[1] فهؤلاء كلما صاح فيهم

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

الحقُّ نفروا وأعرضوا، وسبب ذلك أنهم لم يستعملوا عقولهم في فهم الحق، ومنهم من مرضت نفسه، واعتلَّ وجدانه، فلا يذوق للحقِّ لذة، ولا تجد نفسه فيه رغبة، وهذا القسم كثير في كل زمان ومكان، لأنهم اتبعوا الهوى، واتباعُ الهوى يعمي الإنسان.

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان، والختمُ: الكتْمُ، سُمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه، كالختم على الكتب والأبواب، وليس المراد به القفل على قلوبهم، بل إحداث حالةٍ تجعلها ـ بسبب تماديهم في الغيّ وإعراضهم عن منهج النظر الصحيح ـ بحيث لا يؤثّر فيها الإنذار، ولا ينفذ فيها الحق كما قال تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾. ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ عطفٌ على ما قبله داخل في حكم الختم، أي ختم على قلوبهم وختم على سمعهم، بدليل قوله سبحانه ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[1] والسمع يطلق على العضو الحامل للقوة السامعة، وهو المراد هنا إذ هو المختوم عليه ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ أي وجعل على أبصارهم غطاء، يحجب عنهم رؤية نور الحق، فلا يبصرون هدى، ولا يفقهون ولا يعقلون.

وللإنسان بصرٌ وبصيرة، فالبصرُ يُبصرُ بهِ الأضواءَ، والبصيرةُ هي القوةُ العاقلة التي يُدرك بها الحقائق، ويعرف بها المنافع من المضار، ونورُ البصيرة أكمل من نور البصر، ولهذا قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[2] ثم ختم الآية بقوله سبحانه:

---

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٣.

(٢) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر لا ينقطع، بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر بعدها صفات المنافقين، وهم الصنف الثالث من البشر، أشرُّ خلق الله، لأنهم يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وهم أخبث الكفرة، لأنهم خلطوا بالكفر الاستهزاء والخداع، ولذا طوَّل تعالى في بيان خبثهم وطغيانهم، وفجورهم واستهزائهم، وضرب لهم الأمثال، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من النفاق والضلال، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الناسُ، اسم جمع لإنسان، مأخوذ من الأنس ضد الوحشة، لأنسه بجنسه من البشر، كما قال الشاعر:

وما سُمِّي الإنسانُ إلاَّ لأُنسِهِ ... ولا القلبُ إلاَّ أنه يتقلَّب

أي ومن الناس فريق ضُلاَّل، يقولون بألسنتهم آمنا بالله، وبما أُنزل على رسوله من الآيات البينات، وصدَّقنا بالجزاء والحساب، والبعث والنشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليسوا بصادقين في دعوى الإيمان، لأنهم يقولون تمويهاً على المؤمنين واستهزاءً، والمراد باليوم الآخر يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والجزاء.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يعملون عمل المخادع لله وللمؤمنين، بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، والخِداعُ: أن يوهم صاحبه بخلاف ما يضمره له من المكروه، ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب، ونسبةُ الخداع إلى الله تعالى: ﴿يُخَادعونَ الله﴾ إما على طريق الاستعارة التمثيلية أي يعملون عمل المخادعين لله، شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر، بحال رعيةٍ تخادع السلطان، والله سبحانه لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية، وإما أن يكون المراد خداعهم للرسول أي يخادعون رسول الله، ونُسب إلى الله إبانةً لمكانته عنده تعالى، فمخادعته كأنها مخادعة لله لأنه رسوله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[1] ولهذا سفَّه صنيعهم، وأزرى بعقولهم فقال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم في الحقيقة إنما يخدعون أنفسهم، لأن وبال فعلهم راجع عليهم، يظنون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله والمؤمنين، وما دروا أنهم يضحكون على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يحسُّون بذلك، ولا يفطنون له، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم، لفقدان الشعور والإحساس، ونفيُ الشعور نهايةُ الذم، لأن من لا يشعر البديهي المحسوس، مرتبته أدنى من مرتبة الحيوان.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴾ أي في قلوبهم شكٌّ ونفاق، فزادهم الله رجساً فوق رجسهم، وضلالاً فوق ضلالهم، والجملة وردت مورد الدعاء أو الخبر.

قال عبد الرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضاً في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام، وقرأ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

والمرضُ: أصله ما يعرض للبدن، فيخرجه عن حدِّ الاعتدال،

---

(١) سورة الفتح، آية: ١٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ١٢٥.

ويوجب الخلل في أفعاله، ويطلق على مرض القلب، ممَّا يخلُّ بكمال الإنسان، كالحسد، والنفاق، وسوء الاعتقاد، وغير ذلك، ولا شك أن قلوب المنافقين ملأى من تلك الخبائث، ومرضُ القلب أخطر من مرض الجسد، لأن مرض البدن يُشفى بالدواء، ومرضُ القلب لا يشفيه إلاّ نار الجحيم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع، يصل ألمه إلى قلوبهم.

قال ابن عباس: كلُّ شيء في القرآن أليم فهو بمعنى موجع[1]. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بسبب كذبهم على النبي والمؤمنين في قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهم غير مؤمنين، وترتيب العذاب على الكذب، للإشعار بنهاية قبحه، وللتنفير عنه، فإنه صفة غير المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾[2] والكذبُ: هو الإخبار بأمر على خلاف ما هو عليه، وهو حرام لأنه من الكبائر، وقد علَّل به سبحانه استحقاق العذاب، حيث ترتَّب عليه.

وكلُّ مقصودٍ محمود يمكن التوصلُ إليه بالصدق، فالكذب فيه حرامٌ، لعدم الحاجة إليه، ويباح في أمور صرَّح بها الحديث الشريف وذلك في ثلاث مواطن: «في الحرب، وإصلاح ذات البين، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها»[3] فينبغي أن يقابل المفسدة المترتبة على الصدق، فإن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٥١.

(٢) سورة النحل، آية: ١٠٥.

(٣) أشار المصنف إلى الحديث الشريف الذي رواه الترمذي عن أسماء بنت يزيد في كتاب البر رقم ١٩٣٩ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاث: يُحدّث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة، والكذب ليصلح بين الناس» وفي البخاري ٥/ ٢٢٠ في الصلح «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً، أو ينمي خيراً» ومعنى حديث الرجل امرأته لإرضائها، كأن يكون=

كانت المفسدة في الصدق أشد ضرراً فله الكذب، وإن كان عكسه أو شَكَّ حرم الكذب.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ شروع في تعديد بعض قبائحهم، وأعمالهم الشنيعة، و«إذا» ظرف زمان، وهي تدخل في الأمر المحقَّق، أو المرجح وقوعه، وإذا جاءت مع الماضي كان معناها المستقبل، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ أي حين مجيء النصر في المستقبل، والمعنى: وإذا قال بعض المؤمنين لأولئك المنافقين: لا تسعوا في الأرض بالفساد، بإثارة الفتن، والصدِّ عن سبيل الله، والاستهزاء والسخرية بالمؤمنين، وإطلاع الكفار على الأسرار، وأمثال ذلك ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نحن مقصورون على الإصلاح، ليس شأننا الإفساد أبداً، وهذا إمَّا ناشئٌ عن جهلٍ مركب، حيث اعتقدوا الفساد صلاحاً، فأصرُّوا واستكبروا، وإمَّا جارٍ على عادتهم في الكذب لما في قلوبهم من المرض، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1] والصلاح يتناول جميع أقسام البِرّ، كما أن الفساد يتناول جميع أنواع الإثم، فمن عمل بغير أمر الله فهو مفسد، ولهذا ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

= عند إنسان زوجتان، فتقول إحداهما: إنك تحبُّ ضرتي أكثر مني، فيقول لها: لا، بل أنت أغلى عندي منها، ويكون غير صادقٍ في هذا الكلام، فأباحه الشرع لاستدامة الحب بين الزوجين، لئلا تنقلب حياته إلى جحيم، إن أخبرها أنه يحبُّ فعلاً زوجته الأخرى أكثر منها، ولا يجوز أن يستعمل الكذب معها في جميع الأمور، فتنبه والله يرعاك.

(١) سورة فاطر، آية: ٨.

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ والجملة دالة على سخطٍ عظيم، حيث صُدّرت بحرفَيْ التأكيد «ألاَ» المنبّهة، و«إنَّ» المؤكدة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل «هم» والاستدراك «ولكنْ» وكلُّ ذلك للردِّ عليهم أبلغ ردٍّ، أي ألا فانتبهوا أيها الناس، فإنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم، ولكن لا يفطنون ولا يُحسّون، لانطماس نور البصيرة فيهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيماناً صادقاً، لا يشوبه نفاق ولا رياء، كما آمن أصحاب محمد ﷺ، وأخلصوا إيمانكم وطاعتكم لله.

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة؟ يريدون بذلك الصحابة الكرام، وإنما نسبوهم إلى السفه، مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد، والرزانة والوقار، لمنتهى غبائهم، حيث نسبوا قلة العقل إلى أولئك العقلاء أصحاب رسول الله ﷺ، وأرادوا بذلك تحقير شأنهم، فإن كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء[1].

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ردَّ الله عزَّ وجلّ أبلغ ردٍّ،

---

(١) نسبوهم إلى السَّفه سخرية وتهكماً، لأنهم كانوا يعدُّون المؤمنين مجانين، لاتِّباعهم لرسول ﷺ، وقد كان معظم أصحاب النبي ﷺ فقراء وضعفاء، وبعضهم كان من الموالي والعبيد، ومن غير العرب، كبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وكان المشركون والمنافقون يسخرون منهم ويهزؤون، وكان أبو جهل إذا رآهم قال لجماعته: أتاكم ملوك الدنيا، فلذلك كانوا يسمونهم سفهاء.

(٢) لننظر إلى روعة البيان في تعبير القرآن، فقد جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات «ألاَ» التي تفيد التنبيه والتحذير، و«إنَّ» التي تفيد التأكيد، وضمير الفصل «هم» ثم =

وجُهّلوا أشنع تجهيل، حيث جعلت الجهالة والسفاهة مقصورة عليهم، فإن الجاهل بجهله، الجازم بخلاف ما هو الواقع، أعظم ضلالة، وأتم جهالةً من المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر، وتنفعه الآيات والنُّذُر، وإنما ختمت الآية بـ«لا يعلمون» والتي قبلها بـ«لا يشعرون» لأنه أكثر مطابقةً لذكر السفه، لأن الوقوف على أمر الدين، والتمييز بين الحق والباطل، مما يفتقر إلى نظرٍ وتفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتنة والعناد، فإنما يُدرك بأدنى تفطن وتأمل، فيما يشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ ليس هذا بتكرار، وإنما هو بيانٌ لطريقة المنافقين، حسب تباين المخاطبين، لأن معنى الآية الأولى: ومن الناس من يتفوّه بالإيمان، نفاقاً للخداع، وهنا عند ملاقاتهم للمؤمنين، لدفعهم عن أنفسهم، فقد ضمُّوا إلى الخداع الاستهزاءَ، ولهذا قيَّده باللقاء هنا، أي إذا رأوا المؤمنين وصادفوهم، أظهروا لهم الإيمان والموالاة، نفاقاً ومصانعة. ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم في الكفر، المماثلين للشياطين في التمرد والعناد، قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ

= تعريف الخبر «السفهاء» ثم ختمت بالاستدراك «لكنْ» لتسجّل عليهم غاية السفه والجهالة في صنيعهم المنكر ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ ولما كان الفساد يدرك بالبديهة، دون جهد وتعب قال هناك ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ ولما كانت خفة العقل وسفه الرأي، يحتاج إلى نظر وتفكر قال هنا: ﴿ولكنْ لا يعلمون﴾ فما أدقَّ التعبير القرآني المعجز!.

﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي إنما نسخر ونستهزىء بالمؤمنين، بإظهار الإيمان لهم، لنكسب وُدَّهم، قال تعالى ردّاً عليهم:

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم، بإمهالهم ثم بالنكال بهم، والاستهزاء في اللغة: السخريةُ والاستخفاف، وأصله من الخفة، لأن من كان خفيف العقل، سخر واستهزأ من غيره، سمَّى تعالى جزاءهم باسم الاستهزاء على سبيل المقابلة.

قال الحافظ ابن كثير: هذا إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم، وعقابه لهم، مخرج خبره عن فعلهم، الذي استحقوا العقاب عليه في اللفظ، وإن اختلف المعنيان، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فالأول ظلمٌ، والثاني عدلٌ، فهما وإن اتفق لفظهما لكنَّ معناهما مختلف، وإلى هذا وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر، فأخبر تعالى أنه يستهزىء بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال، وقد وجه ابن جرير هذا القول ونصره، لأن المكر، والخداع، والسخرية، على وجه اللعب والعبث، منتفٍ عن الله عزَّ وجلّ بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة، فلا يمتنع ذلك[1].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ كالبيان له، أي يزيدهم ويقوّيهم، من مدَّ الجيش وأمدَّه: إذا زاده وقوّاه، وقيل: لفظ مدَّ في الشرّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ وأمدَّ في الخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ والمراد به هنا الأول الذي هو معنى الشرِّ، أي نزيدهم في ضلالهم وكفرهم، يتخبطون ويتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى طريق، ولا يعرفون الهدى، ولا يبصرون الرشد،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤.

لأن الله تعالى طبع على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، ونسبةُ المدِّ إلى الله تعالى حقيقةٌ يقينية، لأن جميع الأشياء مستندةٌ من حيثُ الخلق إلى الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ في الجَارِيةِ﴾ أي لمَّا جاوز الماء الحدَّ، وبلغ رؤوس الجبال، حملناكم في السفينة، وإنما أضيف الطغيان إليهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ لأنه فعلهم، ومعنى «يَعْمهون» أي يتردّدون في أمور آخرتهم، لا في كفرهم لأنهم مصرُّون عليه، ومعتقدون أنه الحق، وأصل العمه: التردُّدُ والتحيُّرُ، والعَمَهُ يكون في البصيرة، كما أن العمى يكون في البصر، كما قال سبحانه: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[1].

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي أولئك الأشقياء السفهاء، هم الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، فنبذوا الهدى وأخذوا الضلالة، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ أي فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، بل خابوا وخسروا، وما كانوا راشدين في صنيعهم، لأن الغرض من التجارة الربح، فإذا ضيَّع الإنسان رأس المال مع الربح، فهذا أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء، بل هو أخسر الخاسرين، لأنه فقد جميع الثروة. شبَّه تعالى تركهم الإيمان وأخذهم الكفر، بإنسانٍ اشترى بضاعة، فدفع فيها ثمناً كبيراً، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارته، واشتد حزنه، كمن اشترى قطعة نحاس، ظنها جوهرة شريفة بكل ما يملك، فإذا عرضها على أهل الصنعة، وظهر زيفُها، خاب سعيُه، وفات أملُه، فأصبح من النادمين.

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

ثم ضرب تعالى مثلاً للمنافقين، توضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق فقال جل شأنه: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ أي حالتهم العجيبة، التي تشبه المثل في الغرابة، كمثل شخص أوقد ناراً، ليستضيء بها ويستدفىء، فما اشتعلت تلك النار حتى انطفأت، في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليها ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله، فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المضيئة، أطفأها الله بالكلية، فخمدت النار، وعُدم النور ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ أي وتركهم في ظلماتٍ كثيفة، بعضُها فوق بعض، يتخبطون فلا يهتدون إلى الطريق، ولا يرون ما حولهم.

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي هؤلاء المنافقون كالصُمِّ لا يسمعون خيراً، وكالبكم ـ أي الخُرس ـ لا يتكلمون بشيء ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فهم لا يرجعون عن الضلال إلى الهدى، وفي الآية تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه، أي هم كالصم والبكم والعمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس. وجمع الظلمات لتعددها في الواقع، ظلمةُ الكفر، وظلمةُ النفاق، وظلمةُ سَخَط الله تعالى، وظلمةُ عقابه السرمدي، أي وتركهم في ظلمات حالكة لا يبصرون ما حولهم، متحيرين، كالتائهين عن الطريق وهم خائفون[1].

---

(١) أشار تعالى إلى أن حال المنافقين العجيبة، وهي اشتراؤهم الضلالة ـ وهي عبارة عن ظلمة الكفر والنفاق ـ بالهدى الذي هو النور الفطري، المؤيد بما يشاهدونه من دلائل الحق، كحال من استوقد ناراً حتى كاد ينتفع بها، فأطفأ الله تعالى تلك النار، وتركهم في ظلمات يتخبطون، لا يعرفون طريق النجاة، والتشبيه في غاية الإبداع، لأنهم =

والصَّمَمُ: داءٌ في الأذن يمنع السمع، والبَكَمُ: داءٌ في اللسان يمنع الكلام، والعمى: عدمُ الرؤية لما من شأنه أن يُبصر، وُصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم، لما أنهم سدُّوا مسامعهم، عن الإصاخة لما يُتلى عليهم من الآيات، وأبوا أن يتلقوها بالقبول، ولم ينطقوا بألسنتهم بها، ولم يجتلوا بصائرهم بما شاهدوا من المعجزات، وأصرّوا على ذلك، فصاروا كفاقدي تلك المشاعر، وهذا من التمثيل البليغ[1]، ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي فهم لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، متحيِّرون لا يدرون كيف يرجعون!؟.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

= بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

قال ابن القيم رحمه الله: تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: ذهب الله بنارهم، مع أنه مقتضىٰ السياق لمطابقة أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإنه النار فيها إشراقٌ وفيها إحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى ما فيها من الإحراق وهو النارية!! ثم تأمل كيف قال: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: بضوئهم، لأن الضوء زيادة في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل!! وتأمل كيف قال: ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ووحَّد النور، فإن الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة ومتعددة، والحقُّ هو صراط الله المستقيم، الذي لا طريق يوصل سواه!!.

(١) لا يمكن حمل الآية على ظاهرها، فالمنافق والكافر له سمع وبصر، وقدرة على الكلام، ولكنَّ الآية على التشبيه، أي هم كالصمِّ لا يسمعون خيراً، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله، فالآية على التشبيه البليغ، وهذا معنى قول ابن عباس: لا يسمعون الهدى ولا يعقلونه، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للمنافقين أي كمثل أصحاب صيِّب أي أصحاب مطر، وهو تمثيل إثر تمثيل، ليعمَّ البيان، فإنَّ تفننهم في فنون الكفر والضلال، حقيق بأن يضرب في شأنهم الأمثال، والصيِّبُ: من الصَّوْب، وهو شدةُ الانسكاب، وهو المطر النازل بشدة الذي له وقع وتأثير، يطلق على المطر والسحاب، وتنكيره لما أنه له وقع وتأثيرٌ شديد هائل، والسماء: ما نشاهده فوقنا كقبة زرقاء، محيطة بالأرض من الفضاء الواسع، ويطلق على كل ما علاك فأظلَّك كسقف البيت، وتعريفه باللام للإيذان بأن انبعاث الصيِّب، ليس من أفقٍ واحد، فإن كل أفق من آفاقها سماء، فالمعنى أنه صيِّبٌ عام، نازل من غمامٍ مطبق، آخذٍ بالآفاق ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ أي في الصيب يعني المطر ظلماتٌ، فظلماته تكاثفه بتتابع القطرات، وظلمة غمامه، مع ظلمة الليل وجَعَله محلاً لها مع المبالغة، لشدته تهويلاً لأمره، وإيذاناً بأنه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته، ظلمات الليل والغمام، والرعدُ: هو صوت يُسمع من السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرقُ: هو ما يلمع من السحاب، من بَرق الشيءُ بريقاً أي لَمَع، والتنوينُ للتفخيم والتهويل، كأنه قيل: ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف، وقيل: الرعد والبرق يحدث عند احتكاك أجرام الهواء، وهذا قول أهل الهيئة وجميع ما يظهر من الآثار العلوية والسفلية، من إرادة الإلٰه الواحد القهار. قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وعن ابن عباس قال: سألوا النبي ﷺ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ من الملائكة موكل بالسحاب»[1] الحديث والمراد به الإشارة إلى أن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١١٧ ولفظه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أقبلت يهودُ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرْنا عن الرعد ما هو؟ قال: مَلَك من الملائكة، موكَّلٌ بالسحاب، معه مخاريقُ ـ أي آلة ـ من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمع؟ قال: زجرُه بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أُمر، قالوا: صدقتَ... وذكر تمام الحديث.

هذه المظاهر الكونية، تقع بفعل ملَكٍ موكّلٍ بالسحاب، وأما حقيقة الرعد والبرق والصاعقة، وأسباب حدوثها، فليس من مباحث القرآن الكريم، لأنه من العلوم الطبيعية، وحوادثُ الجو لا تتوقف على الوحي، وإنما تذكر الظواهر الطبيعية، لأجل الاعتبار والاستدلال ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيّب، وهو وإنْ حُذف لفظُه، وأقيم الصيّبُ مقامه، لكنَّ معناه باق، ويمكن أن يكون هذا إيماءً إلى فرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح، على النهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصابع ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي من أجل الصواعق، والصاعقة قصفة رعد هائل، تنقضُّ معها شقة نار، لا تمرُّ بشيء إلاّ أتت عليه، من الصَّعْق وهو شدة الصوت، وتطلق على كل هائل مسموع، صَعِقَ من باب تَعِب، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تقْتلنا بغضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبلَ ذلك»[1] . ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الحَذَرُ: شدةُ الخوف والتوقي من الضر ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ﴾ علماً وقدرة ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، ولا يخلِّصهم الخداع والحيل. شبَّه شمول قدرته تعالى لهم بإحاطة المحيط في استحالة الفوت، والجملة منبهةٌ على أن ما صنعوا من سد الآذان لا يغني عنهم شيئاً، ووضعُ الكافرين موضع الضمير للإيذان بأن ما دَهَمهم بسبب كفرهم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ يقرب، وكاد من أفعال المقاربة، يستعمل لتقريب الفعل يعني لمقاربة الخبر من الوجود، فقولنا كاد يفعل كذا معناه قرب من أن يفعله لكنه ما فعله ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي يأخذها بسرعة، والخطفُ: الأخذُ بسرعة، واختطف وتخطَّف مثله ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ كل: اسم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم ٣٤٤٦ باب ما يقول إذا سمع الرعد، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وأخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم من طرق متعددة، وانظر جامع الأصول ٤/ ٣٢٠.

موضوع لاستغراق الأفراد أو لعموم أجزاء الواحد، ولا يستعمل إلا مضافاً لفظاً أو تقديراً، وتفيد التكرار بلحوق «ما» المصدرية الظرفية، كلما أتاك زيد فأكرمه والمفعول محذوف بمعنى كلما نوَّر لهم ممشىً مشوا فيه، بخطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم، والمشي جنس الحركة فإذا اشتدَّ فهو السعي، فإذا زاد فهو العَدْوُ، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعَدْو، للإشعار بعدم استطاعتهم له ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي خفي البرقُ واستتر، وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حِراصٌ على المشي، فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ﴿قَامُوا۟﴾ أي وقفوا في أماكنهم، مترصدين لخفقة أخرى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لو من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وكلمة لو لتعليق حصول أمرٍ هو الجزاءُ، بحصول أمرٍ هو الشرطُ، لما بينهما من الدوران وفائدة هذا الشرط إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم، مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته تعالى ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد، وأبصارهم بوميض البرق، لذهب بهما، ولكن لم يشأ لما تقتضيه الحكمة والمصلحة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليلٌ وتقريرٌ لمضمون الآية، الناطقة بقدرته تعالى على إزالة مشاعرهم، أي إن الله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء، فإذا أراد أن يذهب بحواسهم، أو يهلكهم عن بكرة أبيهم، لا يقف في وجهه شيء، لأنه قادر على كل شيء. والمراد من قدرة الباري نفيُ العجز عنه، والقديرُ أبلغ من القادر، وهو الفاعل لما يشاء على ما تقتضيه الحكمةُ، والمقتدرُ يقاربُه لكنْ قد يوصف به البشر[1].

---

(١) شبَّه الله عزَّ وجلّ حال المنافقين في حيرتهم، وما خبطوا فيه من الضلالة، وما وصلوا إليه من الخزي والافتضاح، بحال من أخذته السماء في ليلةٍ مظلمةٍ، وكان في صحراء=

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

لمَّا عدَّد تعالى فرق البشر، من المؤمنين، والكفار، والمنافقين، وبيَّن صفاتهم وأحوالهم، وما تميَّزوا به من سعادة أو شقاوة، وضرب للمنافقين الأمثال، ووضَّح لهم طرق الضلال، أعقبه بذكر الأدلة والبراهين، على وحدانية رب العالمين، وعرَّفهم بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه، فأقبل عليهم بالخطاب بقوله ﴿يا أيها الناسُ﴾ وهو خطاب عام لجميع الفئات، هزَّاً لهم إلى الإصغاء، وتنشيطاً لهم واهتماماً بأمر العبادة[1]، والنداء فيه تكريم وتشريف للبشر، حيث يخاطبهم ربُّ العزة والجلال، بما يسعدهم في الحال والمآل، ولهذا جاء الخطاب بهذه الصيغة الجليلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي يا معشر

= مفزعة، وانهمر عليه المطر بشدة وغزارة، ومع المطر رعدٌ قاصف، وبرق خاطف، يكاد يذهب ببصره، من شدة ضوئه ولمعانه، وأصبح يكابد شدائد وأهوالاً، خوفاً من الصواعق المحرقة، والرعد الهائل، والبرق الخاطف، أضاعت هذه الأهوال رشده، فأصبح يضع أصابعه في أذنيه، لينجو من هذه الكوارث والبلايا، ولينجو من الموت الذي ينتظره، ولكن هيهات أن يدفع عنه هذا شبح الموت أو خطر الصواعق، ويا له من تمثيلٍ عجيب، رائع في الإبداع والتمثيل!!.

(١) قال البيضاوي في تفسيره ١٨/١: لمَّا عدد تعالى فِرَق المكلَّفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بقوله تعالى: ﴿يا أيها﴾ لاستقلاله بأوجه عديدة من التأكيد، لأن كل ما نادى الله به عباده، أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق أن يُنادى لها بالآكد الأبلغ. اهـ.

البشر، اعبدوا ربكم العظيم الجليل، الذي خلقكم من العدم، وربَّاكم بأنواع النعم، وخلق آباءكم وأجدادكم، ومن سبقكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي راجين أنتم بعبادتكم لربكم، أن تدخلوا في سلك المتقين، الفائزين بالهدى والرضوان في جنات النعيم. والآية تدلُّ على أنَّ الطريق إلى معرفة الله، واستحقاقه للعبادة، هو النظر في خلقه وصنعه، فإن كل ما في الكون ناطق بعظمة الله، شاهد على ألوهيته ووحدانيته، ويا شقاوة من أنكر وجود الله، وكل ما حوله من مخلوقات، شاهدة على وجوده ووحدانيته، كما قال القائل:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنه واحد

وبدأ تعالى بتذكيرهم بنعمة الخلق، ثم أعقبها بتذكيرهم بنعمة الرزق، فقال تقدست أسماؤه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعل لكم الأرض مهاداً وقراراً، تفترشونها وتستقرون عليها كالبساط المفروش[1]، تنامون عليها وتبنون وتسكنون، ولو كانت نتوءات وارتفاعات كلها لما أمكن العيش ولا البناء عليها، فهي مع كرويتها فيها سهول واسعة، صالحة للزراعة والسكنى والاستقرار فوق سطحها، فسبحان من بسطها وكوَّرها!! والأرضُ مؤنثة جمعها أرضون، وأراضي، ولم يقع في القرآن جمعها لثقله، وكل ما أسفل فهو أرض، والفراشُ: ما يفرش أي ما يبسط لينام عليه

---

(١) جعلُ الأرض فراشاً من باب التشبيه أي جعلها كالفراش لكم، تنامون عليها وتزرعون وتسكنون، وليس في الآية ما يدلُّ على أنها مسطَّحة غير كروية، فإن كروية شكلها مع عظم حجمها، يجعلها كأنها مستوية منبسطة، ولنضرب مثلاً، القبةُ بالنسبة إلى النملة، ترى كل طرف منها مستوياً، فاتساع جرم الأرض يجعلها كأنها منبسطة، وهي كروية قطعاً، كما نبَّه علماؤنا السابقون على ذلك، وانظر كتابنا «حركة الأرض ودورانها» والأدلة الوافية فيها.

﴿والسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ البناء مصدر سمي به المبني بيتاً كان أو قبةً، وإرادة الفلك المخصوص غير بعيدة، نظراً إلى القدرة الإلٰهية، وقدَّم سبحانه حال الأرض، لما أنَّ احتياجهم إليها، وانتفاعهم بها أكثر، وإذا تأملت في هذا العالم، وجدته كالبيت المعدِّ فيه كل ما يُحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مبسوطةٌ كالفراش، والنجوم منورة كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وما فيها من أنواع الحيوانات والنباتات مهيأة لمنافعه، فهذه جملة دالة على أن العالم مخلوق بتدبيرٍ كاملٍ، وحكمةٍ بالغة، دالة على خالقه وصانعه ﴿وأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً﴾ المراد من السماء جهة العلو، والسحاب، فالمطر ينزل من السحاب ومنه إلى الأرض[1] والمعروف أن الشمس إذا طلعت أثارت من البحار بخاراً رطباً فإذا صعد البخار إلى طبقة الهواء تكاثف، فإذا كان البرد لم يكن قوياً اجتمع وتقاطر، فالمجتمعُ سحابٌ والمتقاطر مطرٌ، فإن كان قوياً كان ثلجاً أو بَرَداً، وعلى هذا يراد بالنزول: نشأتُه من أسباب سماوية، وإنزالُه من السماء الحقيقية بعيدٌ، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قمة جبلٍ عالٍ، ويرى السحاب أسفل منه، فإذا نزل من ذلك الجبل، رأى المطر نازلاً على البشر، وإذا كان هذا أمراً مشاهداً، كان النزاعُ فيه من باب العناد، على أنَّ من انجاب عن عين بصيرته سحابُ الجهل، رأى أنَّ كل ما في هذه الأرض، نازل من سماء القدرة الإلٰهية، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم﴾[2] فالكلُّ فعلُ الله وتدبيرُه ﴿فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُم﴾ أي

---

(١) هذا أمرٌ قطعي بنص آيات القرآن ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلِّفُ بينه ثم يجعله ركاماً فترى الوَدْق ـ أي المطر ـ يخرج من خلاله﴾ وقال تعالى: ﴿أأنتم أنزلتموه من المزنِ أم نحن المنزلون﴾ والمزنُ جمع مُزنة وهي السحابة، وإنما قال سبحانه: ﴿من السماء﴾ لأن كل ما علاك فأظلّك فهو سماء.

(٢) سورة الحِجر، آية: ٢١.

فأخرج لكم ربكم بذلك المطر، أنواع النبات والثمر، وأخرج لكم الحبوب والفواكه والخضار، رزقاً منه تعالى لكم، وجعلها سبباً لحياتكم ومعاشكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تعبدوا معه غيره، ولا تشركوا به شيئاً، من صنم، أو بشرٍ، أو حَجَر، وأنتم تعلمون أن هؤلاء الشركاء «الأنداد» الذين اتخذتموهم من دون الله، لا يخلقون ولا يرزقون، وأن الله وحده هو الرزَّاق ذو القوة المتين. والنِدُّ في اللغة: هو المثيلُ والنظيرُ، وسمَّى تعالى ما يعبدون من دون الله أنداداً، مع أنها لا تماثل الله عزَّ وجلَّ ولا تشابهه، سخريةً وتهكماً بهم، فإنهم لمَّا عبدوها من دون الله، وسمَّوْها آلهة، شابهت حالهم حال من يعتقد أنها قادرة على الخلق والرزق، فكأنها تماثل الله في الربوبية والألوهية، وهذا نهاية الذم والتقبيح لهم، وفي ذلك يقول موحِّد الجاهلية «زيد بن نُفَيل»:

أَربّاً واحداً أمْ ألفَ ربٍّ ... أَدِينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ
تركتُ اللاَّتَ والعُزَّى جَميعَاً ... كَذلكَ يفعلُ الرجلُ البَصِيرُ

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر تعالى أدلة الإيمان والتوحيد، في مخلوقاته ومصنوعاته، أبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان، وأوضح برهان، ليثبت لهم صدق رسالة محمد ﷺ، وليقتلع من قلوبهم جذور الشك والريب، فقال تقدست أسماؤه ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي إن كنتم أيها الناس في شك وارتياب، من أمر هذا القرآن، المعجز في نظمه وتشريعه وبيانه، الذي أنزلناه على خاتم الأنبياء، عبدنا ورسولنا محمد ﷺ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدة

من مثل هذا القرآن، في حسن النظم، والفصاحة والبيان، والأمرُ هنا من باب التعجيز، كقول إبراهيم في محاجته للنمرود: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ومعنى «فأتوا» أي هاتوا وجيئوا، وإنما أضاف العبد إلى نفسه ﴿على عبدنا﴾ تشريفاً له وتعظيماً، وتنبيهاً على أنه عليه السلام هو الكامل في العبودية.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم من الإنس والجن، واستعينوا بمن شئتم غير الله تعالى، فإنه لا يقدر على الإتيان بمثله، إلاَّ الله ربُّ العالمين، لأنه كلامه وهو الذي أنزله على خاتم المرسلين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم، أنه من نظم محمد، وأنه كلام مختلقٌ من عند البشر[1]. كأنه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم، كونه من كلام البشر، فأتوا بمثله، لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه مصاقع الخطباء، من العرب أرباب الفصاحة والبيان، والسورةُ: طائفة من القرآن الكريم أقلها ثلاث آيات، والتنكير في «سورة» للتبكيت والتخجيل أي ائتوا بسورة أيّ سورة، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً، تنشيطُ القارىء، وتسهيلُ الحفظ، والترغيبُ في تلاوته، إلى غير ذلك من

---

(١) لقد كان الرسول ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وما سافر إلى بلدةٍ لأجل التعلم، وما كانت بلدة مكة بلد العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم أتى عليه السلام بهذا القرآن المعجز من عند ربه، برهاناً على صدق نبوته، مشتملاً على أقاصيص الأولين، ومخبراً عن بعض الغيوب، كقوله سبحانه: ﴿الٓمٓ غلبت الروم﴾، وقوله: ﴿لتدخلن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ ونحو ذلك مما حدث ووقع كما أخبر، ثم إن القرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الدينية والدنيوية، فمن أين لرسولِ الله ﷺ وهو أميٌّ أن يعرف هذا كلَّه، ثم إن هذه الآية ونحوها دلالة على إعجاز القرآن، لأنه عليه السلام تحدى مصاقع العرب، وفرسان البلاغة، على أن يأتوا بسورة واحدةٍ من مثله، فعجزوا وانقطعوا، فثبت بذلك إعجاز القرآن، ولا يزال القرآن يتحدى الأولين والآخرين، فكيف يكون من كلام أميٍّ من البشر، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، كما زعم المشركون؟!.

الفوائد ﴿من مثله﴾ أي بسورة كائنة من مثله، في علو الرتبة، وسمو الطبقة، والنظم الرائق، والبيان البديع، وحيازة سائر الإعجاز، وقد فارقت أساليب القرآن أساليبهم، ولذا عجزوا عنه، واعترفوا بفضله حتى قال الوليد في وصف القرآن: «والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطَلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإن أصله لمغدق، وما يستطيعه البشر»، ولأنه معجزٌ في نفسه قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرَاً﴾[1] أي معيناً وسنداً وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الدعاءُ: النداءُ والاستعانةُ، لأن الشخص إنما يُنادَىٰ ليستعان به، ومنه قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾[2]؟ أي استعينوا بمن شئتم من الإنس والجن غير الله تعالى.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ أي إذا عجزتم عن الإتيان بمثل سورةٍ منه، مع استعانتكم بالفصحاء والبلغاء، وعباقرة الأرض، ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على أن تأتوا بمثله، أو بمثل سورة منه ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي فاتقوا نار جهنم، التي وقودها وحطبها الذي تُشعل به، ليس كنار الدنيا من الفحم والحطب، وإنما وقودها البشرُ وحجارة الكبريت ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي هيأها الله وأعدَّها لكل كافر فاجر، لا يؤمن برب العالمين[3].

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٠.

(٣) قال الحافظ ابن كثير ١/ ٦٣: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم، بأن يأتوا بمثل سورةٍ من القرآن فعجزوا، تحداهم متفرقين ومجتمعين، وذلك أكمل في التحدي وأشمل، ثم أخبر خبراً قاطعاً جازماً، غير خائف ولا مشفق، أنهم لن يستطيعوا بقوله: ﴿ولن تفعلوا﴾ و«لنْ» لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى حيث أخبر تعالى أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر، لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحدٍ، والقرآنُ كلام الله خالق كل شيء!؟ ومن تدبر القرآن وجد فيه من =

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه لأعدائه، الكفرةِ المكذبين، ذكر ما أعدَّه لأوليائه المؤمنين المتقين، على طريقة القرآن باقتران الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، فقال عزَّ سلطانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين المتقين، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، بشرهم بأن لهم حدائق وبساتين في جنان الخلد، تجري من تحتها قصورها ومساكنها أنهار الجنة، والبشارةُ هي الخبر السارُّ، الذي يظهر به أثر السرور في البشرة، والمأمور بالتبشير هو الرسول ﷺ، وتقديمُ الوعيد على الوعد، لأن الوعيد كالدواء، والوعدُ كالغذاء، فيقدَّم الدواء لينتفع بعده بالغذاء، وعطفُ العمل على الإيمان، للإشعار بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين، فإن الإيمان أساسٌ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء لأساسٍ لا بناء عليه، والصالحات جمع صالحة، وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسَّنه، وتأنيثها على تأويل الخصلة، ثم كون مناط البشارة مجموع الأمرين، لا يقتضي انتفاء البشارة بالإيمان المجرد كما رأى المعتزلة، على أن مفهوم المخالفة ظنيٌّ، لا يعارضُ النصوصَ الدالة على أن الجنة جزاء الإيمان، وفي الآية دليل على أن العمل خارجٌ عن مسمَّى الإيمان، لأن الأصل أنَّ الشيء لا يُعطف على نفسه، ولا على ما هو داخل فيه، والجنة مخلوقة لقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجَنَّةَ﴾ وهي

= وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرةً وخفية، من حيث اللفظُ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح، في غاية نهايات الفصاحة والبيان، فثبت بذلك معجزة محمد عليه الصلاة والسلام.

مراتب شتى، ودرجات متفاوتة، على حسب تفاوت الأعمال، كما ورد في الحديث الشريف: «في الجنة مائةُ درجة، ما بين كلّ درجةٍ ودرجةٍ، كما بين السماء والأرض، والفردوسُ أعلاها درجة، فإن سألتم الله فاسألوه الفردوس»[1] ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي كلما أُعطوا عطاءً وأطعموا طعاماً من ثمار الجنة، وفواكهها الشهية، قالوا: هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم لنا قبل هذه المرة، قال الحسن: يُرزقون الثمرة، ثم يُرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، فتقول له الملائكة: كلْ يا عبد الله، فاللونُ واحد والطعم مختلف. وقال ابن عباس: ليس في الجنة مما في الدنيا سوى الأسماء[2] ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي جيء لهم بتلك الثمار، متشابهة في الشكل والمنظر، مختلفةً في الطعم والمخبر ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور العين، مطهرات من القذر والدنس، والحيض والنفاس، والبول والغائط، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون في الجنة، يعيشون في الجنة مع أزواجهم في هناءٍ خالد، دون زوال أو انقطاع. **روى مسلم في صحيحه** عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، قالوا: فما بالُ الطعام يا رسول الله؟ قال: جُشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد، كما تُلهمون النَّفَس»[3] أي يُلهمون

---

(١) أخرجه الترمذي في باب صفة الجنة رقم ٢٥٣٣ وهو حديث صحيح.

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿رُزقنا من قبلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح، لأن عامة أهل الجنة من الفقراء، وهم لم يشبعوا من الطعام في الدنيا، فكيف يشبعون من الفواكه والثمار؟.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٠.

التسبيح بدون تعب ولا جهد، لأن الجنة ليس فيها تكليف، فيصبح حال المؤمن في الجنة كالملائكة، وتكون العبادة طبعه وذوقه.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

لمَّا مثَّل الله حال المنافقين وعُبَّاد الأصنام، في الوهن والضعف ببيت العنكبوت، وأخس قدراً من الذباب، قالت الجهلة من الكفار: الله تعالى أعلى وأجلُّ من أن يضرب الأمثال، ويذكر الذباب والعنكبوت[1]، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة، ترك من يستحي أن يمثّل بها لحقارتها، ولا يخفى على أحد أن التمثيل ليس إلا إبرازاً للمعنى المقصود، في معرض الأمر المشهود، لإدراك الحقائق الخفية، ولذا شاعت الأمثال في الكتب السماوية، كما مثّل في الإنجيل غلَّ الصدر بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة، ومخاطبة السفهاء، بإثارة الزنابير، وجاء في كلام العرب: أسمعُ من قُراد، وأطيشُ من فراشة، وأعز من مخ البعوض، فيمثَّل الحقير بالحقير، كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان الممثِّل أعظم من كل عظيم، والحياءُ: تغيير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم، بين الوقاحة، التي هي الجرأة على

(١) في قوله تعالى: ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ سورة الحج، وفي قوله في سورة العنكبوت: ﴿مثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أنداداً كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً. . .﴾ الآية.

القبائح، وبين الخجل الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً؛ واشتقاق الحياء من الحياة، فإنه انكسارٌ يعتري القوة البشرية، فيردُّها عن أفعالها، وإذا وصف الباري تعالى كما جاء في الحديث: «إنَّ ربكم حَيِيٌّ كريمٌ، يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردَّهما صِفْراً»[1] فالمراد به أنه تعالى يستحيي أن لا يجيب دعاءه، ويردّه خائباً دون عطاء.

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه لا يستنكف عن ضرب الأمثال أيَّ مثلٍ كان، بأيّ شيءٍ كان، صغيراً كان أو كبيراً، لاشتمالها على الحكمة وإيضاح الحق، و«ما» هنا للتقليل فيصدق بأدنى شيء ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي فما دونها في الصغر والحقارة، قاله الكسائي وأكثر المحققين، أو فما هو أكبر منها كالذباب والعنكبوت، لأنه لا شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة واختيار ابن جرير، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها[2]، وفي الحديث الشريف «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، لما سقى كافراً منها شربة ماء»[3].

والبعوضُ: صغارُ البقِّ من عجيب خلق الله، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف يغوصُ في جلد الفيل، والجاموس، والإنسان، وقرصته مؤلمة فقد ينقل مرض «الملاريا» من إنسان إلى إنسان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي فأمَّا المؤمنون الصادقون فيعلمون أن هذا المثل حقٌّ، لأن الله حقٌّ لا يقول إلا الحق، فيتفكرون في هذا المثل العجيب، ويوقنون أن الله خالق الصغير والكبير، وأنه تعالى يضرب الأمثال بما شاء من المخلوقات فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾؟ أي وأما الكافرون الجاحدون،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٥٦ وحسَّنه الترمذي، وأخرجه أبو داود في باب الدعاء رقم ١٤٨٨ وزاد الترمذي: صُفْراً خائبتين.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٦٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد رقم ٢٣٢١ وابن ماجه رقم ٢٤١٠.

فيهزؤون ويسخرون، ويقولون: ماذا أراد الله بضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة؟ فيزدادون كفراً وضلالاً بإنكار أن يكون هذا المثل من عند الله، والاستفهامُ إمَّا لعدم العلم، أو للإنكار، وكلٌّ منهما يدل على الجهل دلالة واضحة كما قال القائل:

ومَـنْ قَـالَ للمِسْـكِ أَيْـنَ الشَّـذَا يُكَـذِّبُـه ريحُـهُ الطَيِّـبُ

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل الكفار الذين يَعْمون به، فينكرون أنه من عند الله، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحقُّ، لأن الغرض من ضرب المثل هو: التذكُّر والاعتبارُ، كما قال سبحانه ﴿وتلكَ الأمثالُ نضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيزداد المؤمنون هدى، والكافرون ضلالاً، وفي الآية ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي وما يُضل بهذا المثل الوارد في القرآن، إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الرحمن، وهم أهل الزيغ والضلال، من الكفرة والمنافقين. وأصلُ الفِسق: الخروجُ عن الشيء من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت، والفاسقُ في الشرع: الخارجُ عن طاعة الله عزَّ وجلّ، فيشمل الكفر وما هو دونه، وله درجات:

الأولى: السفه والخفة وهو أن يرتكب المعصية، معتقداً قبحها، لغلبة الشهوة على قلبه.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكاب المعصية، غير مبالٍ بها ولا مكترث.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إيَّاها، مستحلاً لها، فإذا شارفَ هذا المقام، خلع ربقة الإيمان من عنقه، كمن يشرب الخمر معتقداً حلَّها أو يستحلُّ الربا، وما دام في الأوليين لا يُسلب عنه اسم المؤمن.

ثم فصَّل تعالى صفات هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾ النقضُ: فسخُ التركيب من الأمور الحسية، من بناءٍ، أو

حبلٍ، أو عهد، أي ينقضون كل عهدٍ وميثاق، من الإيمان بالله، والتصديق برسله، والعمل بشرائعه، من بعد ما وثّقوه على أنفسهم، من الالتزام والقبول، كاليهود والنصارى جحدوا صفات محمد، المذكورة عندهم في التوراة والإنجيل، وكتموا بيان الحق حسداً وبغضاً ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي قطعوا ما أمرهم الله به من عبادة الله، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وصلة الأرحام ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بأنواع البغي والفساد، وإثارة الفتن، وإشعال نار الحروب كما حكى تعالى عن اليهود: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ وأمثال ذلك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي خسروا سعادتهم في الآخرة، حيث عرَّضوا أنفسهم لعذاب جهنم المؤبَّد، ولا خسارة أعظم ممن خسر دنياه وآخرته، وقصرُ الخسران عليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم بإهمالهم للعقل، خسروا الحياة الأبدية.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ الأسلوب هنا أسلوب تقريع وتوبيخ ورد بطريق التعجيب، و«كيف» اسم استفهام، وهي هنا للاستخبار، منضماً إليه الإنكار والتعجيب، والمعنى: أخبروني على أيِّ حالٍ تكفرون بالله؟ ونِعَمُه عليكم لا تتناهى، وقدرته في خلقكم عجيبة؟ ثم فصَّل ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي وقد كنتم في العدم، نُطفاً وأخلاطاً في أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات، لا حياة لكم ولا وجود، فأخرجكم إلى الدنيا أحياء، بنفخ الأرواح فيكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله وحده، للحساب والجزاء، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ، وكونُ الإماتة من دلائل القدرة

ظاهر، وأما كونها من النعم على البشر، فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية الأبدية، التي هي النعمة العظمى.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم ذكر تعالى برهاناً على الفضل والإنعام فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي خلق لكم ومن أجلكم، جميع ما في الأرض، من بحار وأنهار، ونباتٍ وأشجار، ومعادن ومناجم، لتنتفعوا بها في أمور دنياكم، ولتعتبروا بها على أنه سبحانه هو الخالق الرازق، وهذه النعم المشاهدة تذكِّر بالمنعم جلَّ وعلا، وتشوّق النفوس، وتبعث الهمم على البحث والنظر، في كل ما خلق الله في هذا الكون، من مخلوقات وعجائب، ليشكر الإنسان ربه، ويستفيد بما أودعه الله فيها من منافع، تحقق له العيش الكريم على ظهر هذه الأرض، والمسلمون في العصور الأخيرة، صاروا وراء الأمم في العلوم الكونية، فجهلوا الأرض التي هم عليها، وضعفوا عن استخراج منافعها، فجاء الأجنبي يتخطفها من أيديهم وهم ينظرون، وكتابهم يصيح بهم منبهاً ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ ولكنهم صمٌّ عميٌ لا يعقلون، إلاَّ من رحم الله تعالى، فمتى يستيقظون؟! ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي قصد إليها بإرادته قصداً سوياً أي قصد إلى خلقها بعد خلق الأرض ﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ أي صيَّرهنَّ وخلقهنَّ سبع سموات، محكمة البناء، واسعة الأرجاء، من غير عوج ولا فطور ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي وهو سبحانه عالم بكل ما خلق وأوجد، لا تخفى عليه خافية، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك، قادر على إعادتكم بعد الموت؟ ورد لفظ الاستواء في القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى التمام والكمال، كما في قوله تعالى عن موسى: ﴿ولمَّا بلغ أشدَّه واستوى﴾ أي كمل ورشد.

الثاني: بمعنى العلوّ والارتفاع، وذلك إذا عُدّيت بـ«على» كقوله سبحانه: ﴿الرحمنُ على العرشِ استَوَىٰ﴾ وقوله سبحانه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهورِهِ ثُمَّ تَذْكُروا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي علوتم على ظهورها.

الثالث: بمعنى القصد إذا عُدّيت بـ«إلى» كما في هذه الآية ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد إليها.

قال ابن كثير رحمه الله ١/ ٧١: ﴿ثم اسْتَوىٰ إلى السَّمَاءِ﴾ أي قصد إلى السماء، والاستواء هنا متضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدّي بإلى، فسوَّاهن أي خلق السماء سبعاً، وتفصيلُ هذه الآية في سورة السجدة، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لتكفُرونَ بالَّذِي خَلَقَ الأَرضَ في يَوْمَيْنِ...﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فَقَالَ لها وللأرضِ ائتيَا طَوْعَاً أو كَرْهَاً قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ﴾[1].

ودلالة خلق السموات على قدرة الله عزَّ وجلّ من وجوه:

أولاً: أنها واقفة معلَّقة بقدرة الله بدون عمد.

ثانياً: أنه ليس فيها صدوع ولا شقوق.

ثالثاً: أنها طبقات بعضها فوق بعض.

رابعاً: أنها واسعة محكمة البناء كما قال سبحانه: ﴿والسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والمراد من السموات هذه الأجرام العلوية، وهي سموات سبعٌ، بعضها فوق بعض، محكمة البناء، ممتدة الأرجاء، وليست سديماً أو دخاناً كما يقول علماء الهيئة، قال تعالى عنها: ﴿وَبَنَيْنَا فوقكُمْ سَبْعَاً شِدَادَاً﴾ وقال تعالى: ﴿أفلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وزَيَّنَّاهَا وَمَالَها من فُرُوجٍ﴾[2]؟ فسبحان من رفعها بقدرته، وخلقها بحكمته، وجعلها سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها غافلون!!

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧١.

(٢) سورة ق، آية: ٦.

«ذكرُ قصة بدء الخليقة»

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

تعدادٌ لنعمة ثالثة تعمُّ الناس كلَّهم، فإنَّ خلق آدم وتكريمه، وتفضيله على الملائكة، بأن أمرهم بالسجود له، إنعامٌ يعمُّ ذريته جميعاً، فالإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ذكر تعالى هنا قصة آدم ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ الخليفةُ من يخلف غيره وينوبُ منابه[1]، والمراد به هنا آدم عليه السلام، والمعنى: اذكر حين قال ربك لملائكته: إني متخذ في الأرض وخالق فيها خليفةً من البشر، في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم، وهذا قول ابن مسعود، وقيل: المراد آدم وذريته أي قوماً يخلف بعضُهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وفائدةُ قوله تعالى ذلك للملائكة، أربعةُ أمور:

الأول: تعليم المشاورة للعباد في أمورهم، وقد قيل: أعقلُ الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب.

الثاني: تعظيم شأن آدم، فقد بشَّر بوجوده سكان ملكوته، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه.

الثالث: إظهار فضله الراجح كما أشار إليه بقوله: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

الرابع: بيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره كما في قصة خلق آدم وذريته.

---

(١) كما قال موسى لأخيه هارون ﴿اخلفني في قومي﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ أي قالت الملائكة على سبيل الاستعلام والاستفسار عن الحكمة: يا ربنا كيف تخلق من يفسد في الأرض بالمعاصي، ويريق الدماء بالبغي والاعتداء؟! ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ أي ونحن ننزّهك عما لا يليق بك من صفات النقص، ونحمدك في جميع الأحوال، ونعظّم أمرك، ولا نعصيك في حالٍ من الأحوال ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي قال الله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمونه، من الحكمة في خلقه وخلق ذريته، ففيهم أنبياء وفضلاء يُصلحون في الأرض ولا يفسدون، وهنالك مصالح لا تعرفونها.

فإن قيل: كيف عرفت الملائكة أن ذرية آدم يفسدون في الأرض، حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟.

فالجواب: أن الملائكة رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض، لأن الجنَّ خلقوا قبل البشر، فقاسوا الإنس على الجن، في العصيان والفساد. وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ أخبرهم بما تفعله ذرية آدم، من التحاسد والتباغض، وقتل بعضهم بعضاً، وإفسادهم في الأرض، فقالوا على سبيل الاستفسار عن الحكمة، لا على سبيل الاعتراض على حكم الله: ﴿أتجعلُ فِيها مَنْ يُفسِدُ فيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي علَّمه الله أسماء الأشياء كلها، ما كان منها وما سيكون، وخواصَّ هذه المسميات، وعلَّمه أصول العلوم، وقوانين

الصناعات، وأسماء آلاتها مما يحتاج إليها ذرية آدم بطريق الإلهام، هذا فرس، وهذا بعير، وهذه سيارة، وهذه طيارة الخ مما لم يكن في علم الملائكة.

قال ابن عباس: علَّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة، وأسماء الأشياء كلها.

وقال مجاهد: علَّمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء من أسماء الأشياء، كما علَّمه أسماء الملائكة والذرية. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ثم عرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي ترونها، إن كنتم صادقين في أنكم أحقاء بالخلافة من آدم وذريته؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي قالت الملائكة: ننزهك يا ربنا عما لا يليق بك من صفات النقص، ونقرُّ ونعترف بعجزنا وضعفنا، فليس عندنا من العلم، إلاَّ ما علمتنا إياه، إنك أنت العليم بكل أمر، الحكيم في خلقك وتدبيرك، والحكيمُ هو: المحكم لمصنوعاته حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. والحاصلُ إن الله تعالى أظهر فضل آدم، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصَّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء، والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور، وأسندوا العلم إلى علام الغيوب.

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي قال الله لآدم: أعلمهم يا آدم وأخبرهم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بقصورهم عن إدراكها ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي فلما أخبرهم آدم بكل الأسماء، وخصائصها، ومنافعها، والحكمة منها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أخبركم بأني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما تخفونه في نفوسكم؟.

روي أنه تعالى لمَّا خلق آدم عليه السلام، ورأت الملائكة خلقته العجيبة، قالوا: لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منَّا. وهذه الآيات تدلُّ على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله، وأنه شرط في الخلافة في الأرض، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ هذا من باب عطف القصة على القصة، أي واذكر حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، سجود تحيةٍ وتكريم، لا سجود عبادةٍ وتذلُّل، فإن العبادة لا تكون إلاَّ لله عزَّ وجلَّ، وهذه هي النعمة الرابعة العامة لجميع البشر، فإن سجود الملائكة لآدم، فيه تعظيم له وتكريمٌ لذريته، فإن آدم عليه السلام لمَّا أنبأهم بالأسماء، وعلَّمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداءً لحقه، واعتذاراً عما قالوا فيه، وكان السجود ـ في الحقيقة ـ لله تعالى، وجُعل آدم كالقبلة للملائكة، تفخيماً لشأنه، حين رأوا فيه من بدائع العلم ما لم يعرفوه، ومن الاستعداد الروحي ما يؤهّله للخلافة في الأرض ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي سجدت الملائكة له جميعاً غير إبليس، امتنع عن السجود، وتكبَّر عن امتثال أمر الله، حسداً لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وكان في علم الله من القديم من الكافرين، والاستثناء هنا منقطعٌ، لأن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنِّ بالنصّ الصريح الواضح في سورة الكهف ﴿وإِذْ قُلْنَا للملاَئِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبْلِيسَ كَانَ منَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعة الله بامتناعه عن السجود لآدم، وإنما كُلِّف بالسجود بأمرٍ خاصٍ من الله تعالى ﴿قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، حتى قال الحسن البصري: والله ما كان إبليس من

الملائكة طرفة عين، ولأنه خلق من نار، والملائكةُ خلقوا من النور، ولأنه أبى واستكبر، والملائكةُ لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون، والملائكةُ لا نسل لهم، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، بل يخلقهم الله خلقاً استقلالاً، بخلاف الجن فإنَّ لهم ذريةً ونسلاً، قال الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ من دُوني وهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؟ فكل هذه الدلائل تشير إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، بل كان من الجن[1].

سُئل الإمام الشعبي: «هل لإبليس زوجة؟ فقال: ذاك عرسٌ لم أشهده، قال ثم أخذت أقرأ القرآن بإمعان، حتى قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فعلمت أنه لا يكون لإبليس ذرية، إلا إذا كان له زوجة، فقلت: نعم له زوجة». وهذا استدلال لطيف.

والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره، والاستكبارُ طلبُ ذلك بالغطرسة والإباء، وقد أُدمج في معصية إبليس أربع معاصٍ:

١ ـ مخالفة أمر الله.
٢ ـ والاستكبار عن التنفيذ.
٣ ـ وتحقير آدم عليه السلام.
٤ ـ ومفارقة الجماعة.

وأول معصيةٍ وقعت كانت بسبب الكبر والتكبر.

ومثل المتكبر كمثل رجل فوق قمة الجبل، يرى الناس صغاراً وهم يرونه صغيراً، كما قال الشاعر:

مَثَلُ المُعْجَبِ في خُيلَائِهِ ... مَثَلُ الوَاقِفِ في أعلَىٰ جَبَلْ
يُبْصِرُ النَّاسَ صِغَاراً وهو في ... أَعْيُنِ النَّاسِ صغيرٌ لم يَزَلْ

---

(١) انظر تفصيل الأدلة في كتابنا «النبوة والأنبياء»، ص: ١٦٨.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ هذا تذكير لنعمةٍ أخرى، موجبة للشكر، مانعةٍ من الكفر، وفي قوله تعالى: ﴿اسكن أَنتَ وَزَوجُكَ﴾ ولم يقل: إنَّ لكما الجنة، لأن في علمه تعالى أنهما يُخرجان منها، بسبب المخالفة، وقال للمؤمنين: إن لهم الجنة لمَّا لم يكن لهم خروج، والسكنى من السكون وهو اللبثُ والإقامةُ، دون السكون الذي هو ضد الحركة، وتخصيصُ الخطاب بآدم عليه السلام، لأن المرأة تابعةٌ للرجل في السكنى والمعيشة بمنطق الفطرة، والمراد بالزوج «حواء» عليها السلام، وإن لم يتقدم لها ذكر، وهذه الآية تدل على خلقها قبل دخول الجنة، والجنةُ هي دار الثواب، لأن اللام للعهد، ولا عهد لغيرها، وفي مكانها ثلاثة أقوال:

١ ـ **أنها في الأرض**: وهو ما ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني، واحتج بأن خلقه عليه السلام كان في الأرض.

٢ ـ **أنها بستان في السماء**: وهو قول الجبائي بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾.

٣ ـ **أنها جنة الخلد**: وهو قول الجمهور، بدليل أنها المعهودَة عند الذكر، فمتى سمع الإنسان الجنة، تبادر إلى ذهنه جنة الخلد، التي وُعد بها المتقون، وهذا هو الحقُّ الذي لا مناص عنه[1].

---

(١) القول الفصل في هذا أنها جنة الخلد، كما ذهب إليه الجمهور، حيث وصفها تبارك وتعالى في سورة طه بأوصاف، لا تصدق إلا عليها، في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا =

وقال أبو منصور الماتريدي في التأويلات: نعتقد أن هذه الجنة بستان، كان آدم وزوجته منعَّمين فيها، وليس علينا تعيينها.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمارها ونِعَمها أكلاً واسعاً رافهاً، من غير جهد، ولا تعب، يُقال: هو في رَغَدٍ من العيش، أي في سعةٍ من الرزق، وفي سعادة ورفاهية ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيْ من أيِّ مكانٍ أردتما منها، وإنما وجَّه الخطاب لهما تعميماً للتشريف والتكريم، وإيذاناً بتساويهما في التنعم، فإن «حواء» أسوة له في الأكل، بخلاف السكنى فهي له تبع.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا منها، وإنما علَّق النهي بالقرب منها، مبالغةً في تحريم الأكل، ووجوب الاجتناب بالكلية، كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي احترسوا من الزنى ودواعيه، من الخلوة، والنظر، والمصافحة، والاختلاط إلى غير ما هنالك، فإن القرب من الشيء، يورث ميلاً نحوه، يأخذ بمجامع القلب، كما ورد «حبّك الشيء يُعمي ويُصِمُّ»[1] فينبغي ألاَّ يحوم العاقل حول ما حرَّم الله، مخافة أن يقع فيه، واختلف في الشجرة فقيل: هي الكرمةُ ـ أي العنب ـ وقيل: هي شجرة التين، والأولى عدمُ التعيين، فإن الله تعالى لم يعينها لنا، ولا جزم لأحدٍ بدون دليل ساطع، من كتاب أو سنة. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المنهي عنه، الذي يكون سبباً للظلم. والظلمُ المخلُّ بالعصمة،

= تجوعَ فيها ولا تَعْرَىٰ. وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَىٰ﴾ ومهما كان الإنسان منعماً في الدنيا، لا بدَّ له أن يجوع، ويعطش، ويَعْرَىٰ، ويصيبه حر الشمس، ولا يصدق ذلك الوصف إلا على جنة الخلد دار المتقين، فهي التي لا جوع فيها ولا عطش، ولا حرَّ ولا نصب، لأنها دار السرور والحبور.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب في الهوى رقم ٥١٣٠ وأحمد في المسند ٥/ ١٩٤ عن أبي الدرداء مرفوعاً، وروي موقوفاً، والموقوف أشبه كما قاله المحققون، ومعنى الحديث أن من الحب ما يعمي الإنسان عن طريق الرشاد، ويصمُّه عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحبُّ على قلبه، أعمىٰ بصرَه وبصيرتَه، ومن الحبِّ ما قَتَلَ!!.

هو ما لا يكون مصحوباً بعذرٍ كالنسيان، وآدمُ إنما أكل من الشجرة ناسياً للأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] وهذا بالنسبة إلى مقام آدم يعتبر معصيةً وتقصيراً، وهو من باب «حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرّبين» ولا حاجة إلى القول، بأن ما وقع من آدم، كان قبل النبوة كما يدعيه المعتزلة، فإن منصب النبوة يستدعي عدم الغفلة أو التقصير، والظلمُ في اللغة: وضعُ الشيء في غير موضعه، فإذا وُضع في غير موضعه كان صاحبه ظالماً، وإن وُضع في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه، كان الشخص أظلم، كمن يمنع ابنته من العفاف والحشمة، ويأمرها بالسفور والفجور، كما قال سبحانه: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[2].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزلّة، وحملهما على الزلّة، وهي مخالفة الأمر حيث أكلا من الشجرة، والزلّةُ: من الزَّلل وهو عثور القدم، يُقال: زلّتْ قدمُه أي زَلِقتْ، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة، زلَّ الرجل إذا أتى ما ليس له إتيانه، وأزلَّه غيرُه: سبَّب له ذلك، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها﴾ وإزلالهما قوله لهما على ما حكى القرآن: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾[3] وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَىٰ﴾[4]؟

واختُلف في كيفية توصل إبليس إليهما على أقوال:

١ ـ أنه دخل عليهما ابتلاءً من الله تعالى بطريق الوسوسة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١١٥.

(٢) سورة النور، آية: ٣٣.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٢٠.

(٤) سورة طه، آية: ١٢٠.

٢ ـ أن إبليس أغواهما مباشرةً بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ والمقاسمة تدل على المشافهة.

٣ ـ أنه قام عند باب الجنة، وتمثَّل لهما بصورة مَلَكٍ ناصح فناداهما، فأغوى حواء، ثم أغوى آدم.

وقالت طائفة من العلماء: إن إبليس لم يدخل الجنة بعد أن أُخرج منها، وإنما أغوى آدم بالوسواس.

قال في التأويلات: لا نقطع القول بلا دليل، والعلمُ عند الله، فالله تعالى طرد إبليس من مكان قدسه لكفره، ولكن لم ينزع عنه قوة الإغواء لحكمة الابتلاء، والوسوسةُ: القولُ الخفي، وهو حديث النفس والشيطانِ، فيقال لما يقع في النفس من عمل الشر: وسواسٌ، ولما يقع من عَمل الخير: إلهامٌ.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من الكرامة والنعيم، والتعبيرُ يؤذن بالفخامة أي بالمكان العظيم الذي كانا فيه. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض، والخطابُ لآدم وحواء وإبليس، اهبطوا حال كونكم أعداء، الشيطان عدو لكم، فكونوا أعداء له، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عدو فَاتَّخِذُوه عَدُوًّا إِنَّما يدعُو حِزْبَه ليكونُوا من أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1] ولفظ عدوٌّ يُطلق على الواحد والجميع، والهبوطُ: النزولُ والانحدار من أعلى إلى أسفل، كما في هبوط الحَجَر، وإذا استعمل في الإنسان فهو على سبيل الاستخفاف، ولم يشترط بعضهم فيه سوى الانتقال من شريفٍ إلى ما دونه كقوله سبحانه: ﴿اهبطوا مصراً﴾. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي ولكم في الأرض موضعُ استقرار، وتمتع بالعيش، وانتفاع بنعيم الحياة، إلى وقت انتهاء آجالكم، والحينُ: مقدارٌ من الزمن قصيراً كان أو طويلاً، والمراد به هنا زمن الموت، والله تعالى خلق الأرض وما فيها للبشر، والإسكانُ في الجنة إنما كان موقتاً

---

(١) سورة فاطر، آية: ٦.

لآدم وحواء، ومقدمةً للنزول إلى الأرض، وفي هذه الآية تحذير عظيم عن المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يَرْنو بعيْنَيْ راقدِ ... ومشاهداً للأمرِ غير مكابدِ
تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وتَرْتَجي ... دَرَجَ الجِنانِ ونيلَ فَوْزِ العَابدِ
أَنَسِيتَ أَنَّ الله أخرجَ آدَماً ... منها إلى الدُّنْيا بذنْبٍ واحدِ؟

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه، ألهمه إيَّاها، فتلقَّاها بالأخذ والقبول والعمل بها، وهذه الكلمات التي أُلهمها هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، وقيل: هي «سبحانك اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» وهذا مرويٌّ عن مجاهد وابن مسعود.

والتلقّي هو القبول عن فِطنةٍ وفهم، ومعناه الإقبال على الأمر، والقبول له، وأصله من استقبال الناس بعض الأحبة، إذا قدم بعد غياب طويل ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي قبل ربه توبته، ورجع عليه بالرحمة والتوفيق، لأنه تعالى واسع الرحمة للعباد، كثير التوبة على من تاب وأناب. وفي الجمع بين الوصفين «التواب» و«الرحيم» وعد بليغ بالقبول والإحسان، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكُمْ سُوءً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] وإنما اكتفى بذكر آدم، لأن حواء تَبَعٌ له في الحكم، ولذلك طوى ذكر النساء، في أكثر مواقع الكتاب والسنة، واعلم أن التوبة أصلُها الرجوع، وإذا أُسندت إلى العبد، كانت عبارةً عن مجموع أمورٍ ثلاثة:

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

١ ـ العلمُ بالخطأ أي معرفة ضرر الذنب.
٢ ـ النَّدمُ على ما فعل وهو تألُّمُ القلبِ.
٣ ـ العزمُ على عدم العودة إلى المعصية.

وإذا أُسندت إلى الله تعالى، كان معناها القبول، والرجوع على العبد بالعفو والغفران، وذكرُ «الرحيم» إشارة إلى أن قبول التوبة، ليس بواجب على الله تعالى، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ﴾ كرَّر الأمر بالهبوط للتأكيد، ولبيان أن إقامة آدم وذريته تكون في الأرض لا في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾.

وقيل: ليس هناك تكرار، لاختلاف المقصود، لأن الأول دلَّ على أن هبوطهم إلى دار البلاء للعداوة «بعضكم لبعضٍ عدوٌّ» والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف، فمن اهتدى نجا، ومن ضلَّ هلك. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «إمَّا» مركَّبة من «إنْ» الشرطية، و«ما» المزيدة للتأكيد، والمعنى: إن يأتكم مني هدىً بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، للهداية والسعادة، فمن تبع الهدى منكم نجا وفاز، ولا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة، لأن مقصدهم ليس إلاّ طاعة الله، ونيل رضوانه، وذلك مما لا ريب في حصوله بمقتضى الوعد الكريم، وأمَّا في الدنيا فقد يصيب المؤمن خوف أو حزن، لأنها دار الابتلاء، والآخرة هي دار التشريف والجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ هذا

قسيم الأول ومقابلٌ له، كأنه قيل: ومن لم يتَّبع الهدى، بل كفر وكذَّب، فهو مخلَّد في الجحيم. والآيةُ في الأصل: العلامةُ، ويُقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى آياتٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ للمؤمنينَ. وَفِي خلقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقنُون﴾[1] والمراد بالآيات هنا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الكتب المنزَّلة، أو القرآن الكريم. والمراد بأصحاب النار أهلها، ولفظُ الصحبة يدلُّ على الاقتران والملازمة، فكأنَّ الكفار مُلَّاكٌ لها، هي مقرُّهم وهي سكناهم، لا يخرجون منها أبداً، وكلُّ ما كان في القرآن الكريم من «أصحاب النار» فالمراد به أهلها، إلا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾[2] فالمراد به خزنتُها.

وفي الآية دلالةٌ على أن الجنة مخلوقة، وأنها في جهةٍ عالية، والتوبة عند الله مقبولة، وأن متَّبع الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، والكفار فيه مخلدون، وأن غير الكافر لا يُخلَّد، والإخبارُ بهذه الأحوال، من خلق آدم، ومناظرته مع الملائكة، وما حدث من إبليس اللعين، في هذه القصة العجيبة، معجزةٌ تدلُّ على صدق نبوة محمد ﷺ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[3].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

(١) سورة الجاثية، آية: ٣ ـ ٤.
(٢) سورة المدثر، آية: ٣١.
(٣) سورة ص، آية: ٦٧ ـ ٧٠.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ «يا» حرف نداء متضمن معنى التنبيه، و«بني» جمع ابن وهو مخصوص بالذكور، وإذا أُضيف عمَّ الذكور والإناث، فيكون بمعنى الأولاد، وهو المراد هنا، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني يا أولاد ويا ذرية آدم، و«إسرائيل» لقب «يعقوب» عليه السلام، ومعناه بالعبرية صفوة الله، أضافهم تعالى إلى هذا اللقب، حثاً لهم وتحريكاً على الطاعة كقولك: يا ابن الرجل الصالح أطع الله تعالى، لأن الطبائع تميل إلى اقتفاء أثر الآباء، بناءً على أن الحسنة في نفسها حسنة، ومن بيت النبوة أحسن، والسيئة سيئة ومن بيت النبوة أسوأ. ومعنى الآية: يا أولاد النبي الصالح يعقوب، اذكروا ما أنعمتُ به عليكم وعلى آبائكم، من نعم جليلة لا تُعدُّ ولا تحصىٰ، والمراد بالذكر هنا: هو التفكر في هذه النعم، والقيام بشكرها وحقوقها، لا مجرد التفوه بها باللسان، فهو من ذكر القلب والفكر، الذي هو ضدُّ النسيان. وتقييد النعمة بهم ﴿الَّتِي أَنْعَمتُ عَلَيكُم﴾ لأن الإنسان غيورٌ وحسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله تعالى به على غيره، حملته الغيرةُ والحسدُ على الكفرانِ والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه، حمله حبُّ النعمة على الرضى والشكر، وقيل: أراد ما أنعم الله به على آبائهم من إنجائهم من الغرق، ومن طغيان فرعون وجبروته، ومن المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحجر، إلى آخر ما هنالك من النعم، ولكنَّ العموم في اللفظ أحسن، كما يقول ابن عطية لتشمل الأجداد والأحفاد.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أي أدُّوا عهدي وافياً تاماً، ذلك العهد الذي عهدته إليكم، من الإيمان بمحمد ﷺ، وطاعة الله، وطاعة رسوله، أوفِ لكم بما عاهدتكم عليه، من حسن الثواب، ودخول الجنة.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي خافونِ دون غيري من الخلق، في جميع الأمور والأحوال، وخافون في ترك الوفاء دون غيري، ومعنى الرهبة: المخافةُ الشديدة مع تحرز واضطراب. والآية متضمنةٌ للوعد والوعيد، دالةٌ على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي ألاَّ يخافَ إلاَّ الله عزَّ

وجلّ، كما قال سبحانه: ﴿الَّذينَ يُبَلِّغونَ رسالاتِ الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاَّ الله﴾[1].

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أي وصدِّقوا يا بني إسرائيل، بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد، مصدِّقاً لما معكم في التوراة، من أمور التوحيد والنبوة، فالقرآن العظيم مطابق للكتب الإلٰهية في الدعاء إلى التوحيد، والأمر بالعبادة، والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش، وهو الكتاب الخاتم. ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ﴾ أي لا تكونوا أول جاحد ومكذّب بالقرآن، ولا تسارعوا إلى الكفر به، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول مؤمن به، والخطابُ للموجودين في عصر النبي ﷺ من علماء أهل الكتاب، فإنهم كانوا أهل النظر في معجزاته، والعالمين بشأنه، والمبشّرين بزمانه كما قال تعالى: ﴿الَّذينَ آتينَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرفونَهُ كما يَعْرفُونَ أبْنَاءَهُمْ وإنَّ فَريقاً منهُمْ ليكتمُونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي البينات، التي في كتابكم من أوصافه ﷺ بتغييرها أو تحريفها، عوضاً يسيراً من حطام الدنيا الفانية ﴿وَإيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق. بيَّن تعالى لهم أن حظوظ الدنيا ـ وإن عَظُمت ـ فإنها قليلةٌ مسترذلة، بالنسبة لما يفوتهم من حظوظ الآخرة.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ اللَّبْسُ: الخَلْطُ، يُقال: لَبَسْتُ الأمرَ أي خلطته حتى يشتبه بغيره، والمعنى: لا تخلطوا الحقَّ المنزل من الله، بالباطل الذي تخترعونه، حتى يشتبه أحدهما بالآخر، ولا

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

تكتموا صفات محمد ﷺ الموجودة في كتابكم التوراة، وأنتم تعلمون عاقبة جريمة الكتمان[1].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي أدوا ما افترض الله عليكم، من أداء الصلاة، ودفع الزكاة للمستحقين، وصلوا مع المصلين من أمة محمد، وعبَّر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود، لأنه لا ركوع في صلاتهم. والمراد بالصلاة في الآية صلاة المسلمين وزكاتهم، فإن غيرهما كأنَّها لا صلاة ولا زكاة. والزَّكاةُ: من زكا الزرعُ إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركةً في المال، وينمّي في النفس فضيلة الكرم، وتُطَهّر المالَ من الخُبْث، والنَّفسَ من البُخل[2]، كما قال سبحانه: ﴿خُذْ من أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[3] واستدل بعض العلماء من الآية: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ على وجوب الجماعة، وكذا الأحكام الشرعية تدلُّ عليه، من أن تاركها لغير عذرٍ تُردُّ شهادتُه، ويرى بعضهم أنها سنة مؤكدة، وأقوى السنن المؤكدة هي سنةُ الفجر، ومع ذلك رُخِّص في تركها لإدراك الجماعة، لأن ثواب الجماعة أعظم من فضيلة ركعتَيْ الفجر، لأنها تفضل الفرض منفرداً بسبع وعشرين ضعفاً، لا تبلغ ركعتا الفجر ضعفاً واحداً منها[4].

---

(١) لَبَس الأمر من باب ضرب خَلَطه، وفي البخاري عن عائشة مرفوعاً «المتشبع بما لم يُعط كلابسِ ثوبَيْ زُورٍ» والمتشبع هو الذي يظهر أنه شبعان وليس كذلك، شبَّهه بلابس ثوبيِ زور، وهو المرائي الذي يلبس ثياب الزهاد، وباطنه مملوء بالضلال.

(٢) قرن الله سبحانه الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين موضعاً من القرآن، وهذا دليل على كمال الاتصال بينهما، فالصلاة حقُّ الله عزَّ وجلّ، والزكاة حقُّ العباد، ولا يكمل الإيمان إلا بأداء حق الله تعالى وحق عباده، وقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة قبل فرض الصيام مما يوحي بأهميتها.

(٣) سورة التوبة، آية: ١٠٣.

(٤) انظر إعلاء السنن ٧/ ٤.

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ ﴾ الخطابُ هنا لأحبار اليهود ورؤسائهم، يقول لهم سبحانه على سبيل التوبيخ والتعجيب من حالهم: أتَدْعون النَّاسَ يا معشر اليهود إلى فعل الخير، وعمل الصالحات، وتتركون أنفسكم فلا تذكِّرونها بطاعة الله، والإيمان برسوله!؟ والحال أنكم تتلون التوراة وتقرؤونها، وفيها الوعيد لمن ترك البِرَّ، وخالف قولُه عملَه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفلا تفطنون وتدركون، أن ذلك قبيح فترجعون عنه، أم أنكم لا عقل لكم؟ والبِرُّ بكسر الباء: اسمٌ جامعٌ لكل الطاعات، والأعمال الصالحة، الموجبة للثواب، وضدُّه الإثم، وفي الحديث الشريف: «البِرُّ حُسْنُ الخُلق، والإثمُ ما حَاكَ في صدركَ، وكرهتَ أن يَطَّلع عليه النَّاسُ[1]». عن ابن عباس: أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع الرسول ﷺ ولا يتبعونه. ثم هذا التوبيخ وإن كان خطاباً لبني إسرائيل، إلاَّ أنه معروف من حيث المعنى، أنه لكل واعظٍ يأمر ولا يأتمر، فهو كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للناس.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ لمَّا أُمروا بما شقَّ عليهم من ترك الرياسة، والإعراض عن المال، بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي استعينوا على قضاء حوائجكم بالصبر على المكاره، وانتظار الفَرَج، توكلاً على الله، وبالصلاة

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠.

التي هي عماد الدين، والتوسل بالصلاة لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسية والبدنية، من الطهارة، وستر العورة، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، والخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومناجاة الرحمن، وقراءة القرآن، وقد روي أنه ﷺ كان إذا حَزَبه - أي أهمَّه - أمرٌ فَزِع إلى الصلاة[1] وإنما خصَّ الصبر والصلاة بالذكر، لأن بالصبر تُنال كل فضيلة، والصلاةُ تنهى عن كل رذيلة. ﴿وإنَّها لَكَبِيرَةٌ﴾ أي وإن الصلاة لشاقةٌ وثقيلة ﴿إلاَّ عَلَى الخَشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المخبتين، الذين صفت نفوسهم لله، وإنما لم تثقل عليهم، لأنهم يتوقعون ما أعدَّ الله لهم من الأجر بمقابلتها فتهون عليهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم سيلقون ربهم يوم البعث، فيحاسبهم على أعمالهم، وأن معادهم إلى ربهم يوم الدين. والظنُّ في الأصل: الحُسْبانُ، ويأتي بمعنى اليقين كقوله سبحانه: ﴿وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ فظنّوا أنَّهم مُوَاقِعُوها﴾[2] أي أيقنوا بدخولها والوقوع فيها وإنما فُسِّر الظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأن قوله: ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ معطوف على قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ والشكُّ في الآخرة كفرٌ، فلا ينفع الظنُّ بل يجب فيه القطع، ولذا فُسِّر باليقين. وكأنَّ النكتةَ في استعمال الظنِّ المبالغةُ، في أنَّ من ظنَّ لقاءَ الله لا يشقُّ عليه، فكيف بمن يتيقَّنه؟

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ. . .﴾ الآية، كرَّر تبارك وتعالى التذكير للتأكيد، ولربط ما بعده من الوعيد، والمعنى: يا أولاد النبيِّ الصالح «يعقوب» عليه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٦ والنسائي في المواقيت باب ٤٦.
(٢) سورة الكهف، آية: ٥٣.

السلام: اذكروا فضلي وإنعامي عليكم بصنوف النعم، حيث نجَّيْتُ آباءكم من طغيان فرعون وجبروته، وفضَّلتهم على العالمين في زمانهم، وفي تفضيل الآباء شرفٌ للأبناء! وهذا التفضيل لمؤمنيهم الصالحين، أما العصاة والفجرة فقد مسخوا قردةً وخنازير. ولا يصح أن يُفهم أن تفضيلهم كان على جميع الخلق، لأن الله تعالى يقول عن أمة محمد ﷺ ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس﴾[1] فذلك التفضيل يختص بعالم زمانهم، كما نقول: شوقي أشعر الشعراء أي في زمانه، وليس معناه أنه أشعر من حسان والبحتري، وجرير.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا ﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب «يوم القيامة» وما فيه من الحساب والعذاب، إن لم تؤمنوا وتتوبوا اليوم، وقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ أي لا تقضي نفسٌ عن نفس شيئاً من الحقوق، وتنكيرُ النفس للتعميم، فهو يوم عصيب، يفرُّ فيه المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ أي لا تُقبل شفاعةُ أحدٍ من البشر في نفسٍ كافرةٍ بالله أبداً لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[2] فالمراد بالشفاعة هنا الشفاعةُ في الكفار، وتمسَّكَ المعتزلةُ بالآية في نفي الشفاعة للعصاة، وهو مردودٌ، لأن المنفي الشفاعة في الكفار، وقد قال ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[3] ونقول أيضاً: إن النفي مخصوص بما قبل الإذن لقوله تعالى: ﴿ولا تَنفعُ الشَّفاعَةُ عندَهُ إلاَّ لمنْ أَذِنَ لهُ﴾[4].

كان اليهود يزعمون أن آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فيأَّسهم الله

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة المدثر، آية: ٤٨.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٣٧ وأبو داود في باب الشفاعة رقم ٤٧٣٩ وهو حديث صحيح.

(٤) سورة سبأ، آية: ٢٣.

وقنَّطهم من تلك الشفاعة بقوله: ﴿ولا يُقْبَلُ منْهَا شَفَاعَةٌ﴾ فهي إذاً خاصة بمن كفر بالله ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يُقبل من نفسٍ كافرةٍ فديةٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لهمْ ما في الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ معَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامةِ مَا تُقُبِّلَ منهمْ﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصرٌ ينجيهم ويخلّصهم من عذاب الله.. وفي الآية أعظم تحذيرٍ عن المعاصي، لأن اللفظ جاء بلفظ العموم، فهي مخاطبةٌ للكل، يعمُّ كل من يحضر في ذلك اليوم، وفيها إبطال أصل من أصول الكفرة وهو تقديم الفدية وشفاعة الشافعين.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، حين نجَّيْتُ آباءكم من بطش فرعون وأشياعه العتاة، وعدُّوها نعمةً لأنكم نجوتم بنجاة آبائكم، وأصل «آل»: أهل، لأن تصغيرها «أُهَيْل» ولا يستعمل لفظ «آل» إلاَّ فيما فيه شرف وخطر، كالملوك والعظماء، فلا يقال: آلُ الحجَّام وآل الإسكاف. ومعنى ﴿يَسُومُونكُم﴾: يذيقونكم، من سَامَهُ إذا أذاقه، أي ينكّلون بكم، ويذيقونكم أشد أنواع العذاب وأفظعه وأسوأه، ثم فسَّر هذا العذاب بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد، ويستبقون الإناث على قيد الحياة، لاستعمالهن في الخدمة، وسبب هذا الذبح أن فرعون خاف على ذهاب ملكه من بني إسرائيل ـ لرؤيا رآها في منامه ـ فأمر بذبح الذكور، وترك الإناث على قيد الحياة، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[2]. وقوله

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣٦.

(٢) قال الحافظ ابن كثير ١/٩٣: إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ـ أي أفزعته =

تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاءُ: الاختبارُ والمحنةُ أي وفيما حلَّ بآبائكم من العذاب المهين، من التسليط والذبح، محنةٌ واختبار عظيم من جهته تعالى، ليتميَّز البَرُّ من الفاجر، والبلاءُ يطلق على الخير، والشر، كما قال سبحانه: ﴿ونَبْلُوكم بالشرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلينَا تُرْجَعُون﴾[1] فالله يختبر عباده تارة بالمحنة، وتارةً بالمنحة ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ﴾ والكلُّ فعلُه جلَّ وعلا. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبدَ من خيرٍ أو شر، اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر الله على مَسَارِّه، وأن يصبر على مضاره، ليكون من الناجحين في الاختبار.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي واذكروا يا بني إسرائيل أيضاً حين فلقنا لكم البحر، وفصلنا بين بعضه وبعض، حتى صارت فيه طرقٌ ومسالك لتمشوا عليها، اثنا عشر طريقاً، بعدد الأسباط، لكل سبطٍ طريق ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى، والتقدير: فرقنا بكم البحر، وتبعكم فرعون وجنوده، فأنجيناكم من الغرق، وأغرقنا فرعون وقومه، وأنتم تشاهدون ذلك، وكان ذلك الغرق يوم عاشوراء، كما دل على ذلك الحديث الصحيح أنه ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة المنورة رأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ عظيم، أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرَّق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله، فنحن نصومه!! فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحقُّ وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله وأمر بصيامه»[2].

= رأى ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط في مصر، إلاَّ بيوت بني إسرائيل، ومضمون هذه الرؤيا أن زوال ملك فرعون يكون على يدي رجلٍ من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكرٍ يولد من بني إسرائيل.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم رقم ٢٤٤٤ ورواه البخاري ٤/ ٢١٤ ومسلم رقم ١١٣٠ بنحو رواية أبي داود.

فائدة التذكير بالنِّعَم

وفائدة هذا أن هلاك العدو نعمةٌ، ومشاهدة هلاكه نعمة أخرى، فذكَّرهم تعالى بذلك ليشكروه. روي أن جبريل عليه السلام نزل بالعشيِّ، وقال لموسى: أَخْرِجْ قومك ليلاً، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾[1] فخرج بهم، فلحقهم فرعون وجنوده بعد طلوع الشمس، وهو قوله تعالى: ﴿فأتبعوهم مُشْرِقِينَ. فلمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ موسَىٰ إِنَّا لمدركُونَ. قال كلاَّ إن معيَ ربِّي سَيَهْدِين﴾[2] فلما أتى البحر، أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه، فانفلق فصار لهم طريقاً يابساً فسلكوه، فلما وصل فرعون رآه منفلقاً، فقال لجنده: انظروا كيف أن البحر انفلق بأمري، وجمد هيبةً مني!! فاقتحمه هو وجنوده، فغشيهم ما غشيهم من الغرق والبلاء في لجة البحر. وهذه من الآيات الملجئة إلى معرفة الخالق جلَّ وعلا، وتصديق موسى عليه السلام، ثم إن بني إسرائيل بعد ذلك قالوا لنبيهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[3] وعبدوا العجل في غيبة موسى، وقالوا لرسولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لكَ حَتَّى نَرَىٰ الله جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم على درجةٍ من الغباء لا يحسدون عليها، وهم في معزل عن الفطنة والذكاء، ولذلك مسخهم الله إلى قردة وخنازير ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة التالية:

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

(١) سورة الدخان، آية: ٢٣.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ هذا تذكيرٌ لهم ثالث، بنعمة العفو بعد عبادة العجل، أي واذكروا حين وعدنا نبيكم موسى أن نعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ـ وهو الميقات الذي حدَّده الله له ـ وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون وقومه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ من بعدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، حين ذهب لميقات ربه، وأنتم معتدون في تلك العبادة، ظالمون لأنفسكم بارتكاب تلك الجريمة الشنيعة.

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي عفونا عنكم حين تبتم، ولم نستأصلكم على ذلك العمل القبيح، لكي تشكروا ربكم على ذلك الصفح والإنعام، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة والعبادة، ولكنْ هيهات أن يرجع المجرم عن ضلاله، فإن الطبع يغلب التطبع!!.

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ تذكير لهم بنعمة إنزال التوراة وهي النعمة الرابعة، أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي أيضاً عليكم، حين أعطيت نبيكم موسى التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، الجامعة بين كونها كتاباً منزلاً، وحجة واضحة، تفرق بين الهدى والضلال، لكي تهتدوا بتدبر الكتاب، والعمل بأحكامه، والتفكر في آياته.. سمَّى تعالى الكتاب «فرقاناً» لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ هذا توضيح وبيان لطريقة وكيفية العفو عنهم، بعد عبادتهم للعجل، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي لقد ظلمتم

أنفسكم حقاً بعبادتكم للعجل، وعرضتموها لعذاب الله ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي فاعزموا على التوبة، والرجوع إلى خالقكم العظيم، الذي خلقكم بريئاً من التفاوت، والعيب والنقصان، ومعنى «البارىء» الخالق المبدع للخلق ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتلْ البريءُ منكم المجرم، وفي هذا بيانٌ لحكمٍ من شريعة موسى، بأنه لا تُقبل توبةُ المرتد حتى يُقْتل، كما أن القاتل عمداً، لا تُقبل توبتُه إلا بتسليم نفسهِ، إلى أولياء القتيل ليقتلوه، وجاءت شريعتنا الإسلامية بالعفو أو القصاص. وذكرُ «البارىء» في الآية، وهي بمعنى الخالق المبدع الحكيم، للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها، حيثُ تركوا عبادة خالقهم العليم الحكيم، إلى عبادة البقر، الذي هو مَثَلٌ في الغَبَاوة، فلذا أُمروا بالقتل. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي نزولكم عند أمر الله، ورضاكم بحكم الله، في تنفيذ حكم القتل بمن عبد العجل، خير لكم عند الخالق العظيم، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، ثم إنه طُهرة من الشرك، ووصلةٌ إلى الحياة الأبدية التي أعدَّها الله للمؤمنين الصادقين. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في الآية حذفٌ تقديره: ففعلتم ما أُمرتم به من القتل، فتاب عليكم ربكم وقَبِل توبتكم، لأنه سبحانه عظيم المغفرة، واسع التوبة. وإنما لم يقل «فتاب عليهم» مع أنَّ الضمير للقوم الذين كانوا في زمن موسى وعبدوا العجل، وإنما قال ﴿فتاب عليكم﴾ لأنه هذه النعمة أُريد بها التذكيرُ للمخَاطَبين لا لأسلافهم، فإن النعمة على الآباء نعمةٌ على الأبناء، وفي الآية التفاتٌ من ضمير الغائب إلى المخاطب، وهو من المحسنات البديعة، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[1] فتدبر روائع القرآن.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ بعد أن ذكَّرهم تعالى بالنِّعَم التي أفاضها عليهم، بيَّن لوناً من ألوان طغيان اليهود وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يُعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم، حين طلبوا من نبيهم رؤية الله علانية وجهاراً!!.

قال الطبري: «لمَّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل، أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً، يعتذرون إلى ربهم من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَه سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾[1] وقالَ لهم: صوموا وتطهَّروا، وطهِّروا ثيابكم، ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلبْ لنا أن نسمع كلام ربنا!! فقال: أفعلُ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغَمَامُ، حتى تغشَّىٰ الجبلَ كلَّه، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: «اُدنوا ـ وكان موسى إذا كلَّمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه، فضُرب دونه بالحجاب ـ ودنا القومُ حتى إذا دخلوا في الغَمام وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعاً...»[2] ومعنى ﴿جهرةً﴾ أي علانيةً، وأصلُ الجهر: الظهورُ، ومنه الجهرُ بالقراءة في الصلاة، تقول: رأيت الأميرَ جهرةً وجهاراً أي رأيته معاينةً غير مستتر بشيء، قال ابن عباس: ﴿جهرةً﴾ أي عياناً، **ومعنى الآية**: اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى، لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل، فقلتم لنبيكم موسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ أي لن

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٢) نقلاً عن تفسير ابن كثير ١/ ٩٧ مع شيء من الاختصار.

نصدِّقك يا موسى بأنَّ ما نسمعه كلام الله، حتى نرى الله علانية، قال هذا خياركُم لفرطِ العناد والتعنت ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم صاعقةٌ من السماء ـ وهي نار محرقةٌ كالصواعق الرعدية ـ حتى احترقوا وماتوا، وهمدت أجسامهم ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ما حلَّ بكم من العذاب، حيث لم يموتوا دفعة واحدة، وإنما يسقط الواحد ميتاً، ثم يتلوه الآخر وهو يراه، وكانت مدة الموت أو الصعقة يوماً وليلةً كما ذكر المفسرون. مات هؤلاء السبعون ـ وهم خيار بني إسرائيل ـ لأنهم تمردُوا على نبيهم، فطلبوا رؤية الباري جلَّ وعلا عياناً، فأهلكهم الله تعالى، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يمت، وإنما غُشي عليه بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ﴾[1] فلما ماتوا قام موسى يبكي، ويناشد ربه ويدعوه ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكتَ خيارهم!! كما قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ موسَىٰ قومَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقَاتِنَا فَلمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفةُ قَالَ ربِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلكْتَهُمْ منْ قَبْلُ وإِيَايَ أَتُهْلكُنَا بما فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنّا. . .﴾[2]؟ فمازال يدعو ربه ويتضرَّع إليه، حتى أحياهم الله له، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ثم أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة، لتشكروا ربكم على نعمة الإحياء بعد الموت، والحياة بعد الفناء، وإنما قيَّد تعالى البعثَ بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُم﴾ لزيادة التوضيح والتأكيد، على أنه موتٌ حقيقي، ولدفع ما عساه يُتوهَّمُ أن بعثهم كان بعد إغماء، أو بعد نوم، كما ذهب إليه بعضهم أنه أصابهم إغماء، ثم أفاقوا بعد الرجفة، فإنَّ هذا القول ضعيفٌ، يردُّه النصُّ الواضح «مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ»[3] فالصحيح أنهم ماتوا ثم أحياهم الله عزَّ وجلّ بدعوة الكليم موسى عليه السلام، واستغاثته بربه.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٥.

(٣) ذكر تبارك وتعالى أمثلةً على إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع: =

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

هذا تذكير لهم بنعمة أخرى، في طيِّها نِعَمٌ عديدة، من تظليل الغمام، وإكرامهم بالشراب الحلو السائغ «المنّ» والإنعام عليهم بالطعام اللذيذ الشهي، لحم الطير، المسمَّى بالسَّلوى، بدون جهد منهم ولا تعب، حين وقعوا في أرض التّيه، في الصحراء الشاسعة المحرقة، بسبب معصيتهم لنبيّهم، وقولتهم الشنيعة، حين أمرهم أن يدخلوا أرض الجبارين، ويقاتلوا قومها فقالوا: ﴿يا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ ندخُلَهَا أَبَدَاً مَا دَامُوا فيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1] فكان جزاؤهم أن عوقبوا بالضياع أربعين سنة، يتيهون في الأرض، مشرَّدين كما قال سبحانه: ﴿قَالَ فإِنَّهَا مُحَرَّمةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُون في الأَرْضِ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾[2].

يقول تعالى مذكِّراً لهم بنعمته: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ أي سترناكم يا بني إسرائيل بالسحاب من حرّ الشمس، وجعلناه لكم كالظُّلَّة، يقيكم لفح الشمس المحرقة، حين كنتم في أرض التّيه، ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ أي وأكرمناكم بأنواعٍ من الشراب والطعام، من غير كدّ

= **الأول**: في هذه الآية التي معنا ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾. **الثاني**: في قصة البقرة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾. **الثالث**: في قصة الألوف المؤلفة الذين خرجوا فراراً من الموت ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾. **الرابع**: في قصة عزير ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾. **الخامس**: في قصة إبراهيم لما طلب من ربه أن يطلعه على كيفية الإحياء للخلقِ ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾؟ وكلها آيات باهرة على قدرة رب العالمين في الإحياء للخلقِ بعد الموت.

(١) سورة المائدة، آية: ٢٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٦.

ولا تعب، **والمنُّ**: هو ممَّا منَّ الله به عليهم، كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، **والسَّلوىٰ**: هو طير يشبه السُّمَّاني لذيذ الطعم، وقد عدَّ رسول الله ﷺ الكمأة من المنِّ، فقال ﷺ فيما رواه عنه البخاري: «الكَمْأَةُ من المَنِّ، وماؤها شفاءٌ للعين»[1] ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي وقلنا لهم حين كانوا في أرض التيه: كلوا من لذائذ نعم الله، ممَّا هيأه لكم من أنواع الطيبات، من الحلال اللذيذ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ في الكلام حذفٌ واختصار، وهذا من ضروب الإبداع البياني، على حدّ قول البلغاء: «البلاغةُ الإيجازُ» والمحذوف أصلُه: فظلموا بأن كفروا هذه النعم، وما ظلمونا بالكفر ولكنْ ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم، والظلمُ قاصرٌ عليهم، وهذا ما أفادته صيغة القصر ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى الآية: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم، وأن يعبدوا ربهم ويشكروه، فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.. ومن هنا تتبيَّنُ فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعنُّتهم، مع ما كانوا معه من الشدَّة في أسفاره وغزواته، منها «عام تبوك» في ذلك القيظ، والحر الشديد، والجهد المضني، لم يسألوا خرق عادة، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، ولكنْ لما أجهدهم الجوعُ، سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما عندهم، فجاء قدر مبرك الشاة ـ أي قليلاً لا يجاوز حجم قعود الشاة ـ فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كلَّ وعاء كان معهم، وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ١٠/ ١٣٧ ومسلم في الأشربة رقم ٢٠٤٩ والترمذي في الطب رقم ٢٠٦٨ باب الكمأة والعجوة.

الإبل، وملؤوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم تتجاوز العسكر، فهذا هو الأكمل في متابعة الرسول ﷺ[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم وقت قولنا لآبائكم: ادخلوا بلدة بيت المقدس ـ بعد خروجكم من التيه ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي كلوا من طعام القرية وثمارها، أكلاً واسعاً هنيئاً، والرَّغَدُ في اللغة: سَعةُ العيش، يقال: القومُ في رَغَد العيش، إذا كانوا في رزق واسع ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب البلدة ساجدين لله، شكراً على خلاصكم من التيه، ادخلوه خاشعين تائبين متواضعين لله عزَّ وجلّ ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي وقولوا: رجاؤنا يا ربِّ أن تحطَّ عنا ذنوبنا، وحِطَّة: كلمة استغفار، مثل قول المسلم: استغفر الله، بدليل قوله بعده: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي نمحو عنكم ذنوبكم، ونكفّر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد المحسنين ثواباً، وندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والمراد بالقرية هي بيت المقدس في قول الجمهور، ويدل عليه قول الله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ الله لكُمْ ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير: لمَّا خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع «يوشع بن نون» أُمروا أن يدخلوا باب البلد سُجَّداً، شكراً لله تعالى، على

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢١.

ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردٍّ بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التّيه والضلال، وأن يقولوا عند دخولهم «حطَّةٌ» أي احطط عنا خطايانا، فبدَّلوا أمر الله لهم، ودخلوا يزحفون على أستاههم ـ أي مقاعدهم ـ رافعي رؤوسهم، واستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعيرة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه، بفسقهم وهو خروجهم عن طاعة الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً بسبب فسقهم، قال ابن عباس: «كلُّ شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[1] ولم يقل: فأنزلنا عليهم، وإنما قال ﴿على الذين ظلموا﴾ زيادة في التقبيح، ومبالغة في الذمّ والتقريع، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدَاً وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِر لكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبةٌ في شعرة»[2].

وفي رواية الترمذي: «حنطةٌ في شعيرة» وكلُّ هذا منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ـ لعنهم الله ـ فاستحقوا غضب الله ولعنته، وقد روي أنه مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً في ساعة واحدة.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٠١، أقول: الأستاه جمع سَتَه: مقعدُ الرجل، قال في الصحاح: الاستُ: العَجُزُ، وقد يراد به حلقةُ الدُّبر، وأصلها سَتَهٌ جمعه أستاهٌ، كجملٍ وأجمال، ورجلٌ أستَه إذا كان كبير العجز. اهـ.
فاليهود اللعناء بدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين، دخلوا يزحفون على أدبارهم سخرية واستهزاءً ويقولون: حبة في شعيرة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا: حنطة بدل حطة، وزادوا بقولهم: حبة في شعيرة.

(٢) البخاري ٦/ ٣١٢ في الأنبياء.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

هذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم ويسقيهم، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه وتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة، فجرى لكلٍ منهم عين ماء خاص، يأخذون منه حاجتهم لئلا يختصموا ويقتتلوا، وكان موضوع السقيا آية باهرة، ومعجزةً ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام، ومع ذلك كفروا وجحدوا!!.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ فيه تذكير لهم بنعمة أخرى جليلة، غير التظليل والإطعام، «استسقى» أي طلب السقيا لقومه، والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب لكم نبيكم موسى السقيا من الله عزَّ وجلّ، لمَّا عطشتم في أرض التيه ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ أي قلنا له: اضربْ بالعصا التي معك أيَّ حجرٍ كان[1]، تتفجر منه بقدرتنا عيون الماء، فضربه: ﴿ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ أي فانشقَّتْ وسالت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد الأسباط لئلا يتنازعوا. ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ أي علمت كل قبيلة وكل جماعة مكان شربهم، فلا يشركهم فيه غيرهم، وإنما قال: ﴿مشربهم﴾ ولم يقل: عينهم، للإشارة إلى معجزة

---

(١) حكى المفسرون أقوالاً كثيرة، في الحجر الذي ضربه موسى فتفجرت منه العيونُ ما هو؟ وكيف وصفُه؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال، والذي يكفي في فهم معنى الآية، أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه المعجزة، وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصمّ، الذي ليس من شأنه الانفجار بعيون الماء، وبهذا تكون الآية أوضح، والبرهان أسطع، وتتحقق المعجزة، حتى قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، وهذا أظهر في الحجة، وأبينُ في القدرة.

أخرى، حيث حدث مع انفجار الماء جداول جرت بالماء كالعيون التي تجري على سطح الأرض، وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله تعالى من المنِّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء العذب الذي فجَّره لكم ربكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تعتدوا وتطغوا في الأرض بأنواع البغي والإفساد، يُقال: عَثِيَ يَعْثَىٰ، ويعثو[1] إذا أفسد في الأرض، وأصل العثو: شدّةُ الإفساد، فيكون قوله تعالى ﴿مفسدين﴾ تأكيداً للنهي، أي لا تفسدوا في الأرض إفساداً بأنواع البغي والعدوان.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

هذا تذكير لليهود بجناية أخرى لأسلافهم، وكفرانهم نعمة الله عزَّ وجلّ، واليهود هم اليهود، جهلاء مكابرون معاندون، سواء في ذلك السلف «الآباء» أو الخَلَف من الأبناء، فالحية لا تلد إلاَّ حية، **والمعنى**: اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى، وأنتم في الصحراء في أرض التيه، تأكلون من المنِّ والسلوى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي على نوعٍ واحدٍ من الطعام، وهو المنُّ والسلوى، وكنَّىٰ عنهما بطعام واحد وهما

(١) انظر الصحاح للجوهري، ولسان العرب لابن منظور.

طعامان، لأنهم أرادوا أنه لا يختلف ولا يتبدل، فهو غذاؤهم في كل يوم، وقد كانوا أصحاب مزاج فاسد، كرهوا «المنَّ» وهو طعام حلو يشبه العسل، وكرهوا «السلوى» وهو أطيب أنواع لحوم الطير، وطلبوا بدلهما العدس، والثوم، والبصل، ولا غرابة في ذلك، فإنَّ من فسد عقلُه فسد مزاجُه، فالبصلُ عندهم أطيب من العسل، والعدس أطيب من اللحم، ولهذا طلبوا من نبيهم ما يوافق مزاجهم حين قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمناه وكرهناه، ونريد ما تخرجه لنا الأرض من أنواع البقول، ثم وضَّحه وبيَّنه بقوله: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

أما البقل: فهو كل ما تنبته الأرض من الخضرة كالجرجير، والكُرَّاث، والنَّعنع، والنبتة الحمقاء «الرِّجلة».

وأمَّا القثاء: فيعني بها القثَّة التي هي من فصيلة الخيار، وقيل: هو الخيارُ.

وأمَّا الفوم: ففسره بعضهم بالحنطة، وفسَّره بعضهم بـ«الثوم» وهو أشبه بما بعده، فإن الثُّوم يشاكل البصل، وبدليل قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، قال الرازي: الثومُ أوفقُ للعدس والبصل من الحنطة، واستدل الإمام القرطبي ببيت شعرٍ لحسان، يهجو به أعداء الإسلام حيث يقول:

وأنْتُـم أُنَـاسٌ لِئَـامُ الأُصُـولِ طَعَـامُكُـم الفُـومُ والحَـوْقَـلُ[1]

أي طعامكم الثومُ، والبصلُ.

وأما العدس: فهو معروف ومشهور، وهو من أنواع الحبوب التي تطبخ، ومنه «شوربة العدس».

وأما البصل: فهو البصل المعروف، ذو الرائحة الكريهة، الذي قال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٤٤٥.

فيه النبي الكريم «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة، فلا يقربَّن مسجدنا، فإنَّ الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه الإنسُ»[1].

يا لهم من حمقى جهلاء!! فضَّلوا الثوم والبصل، على اللحم والحلوى التي تشبه العسل، ولهذا قال لهم نبيُّهم منكراً عليهم هذا الانحراف في الذَّوق: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾؟ أي أتستبدلون الخسيسَ بالنفيس، وتؤثرون البصل والثوم على المنِّ والسلوى؟ ﴿ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا أيَّ بلدٍ من البلدان، لتروا فيه ما تحبون وتشتهون!! والمراد بقوله ﴿مصراً﴾ أي بلداً من البلاد أيَّ بلدٍ كان، لأنها جاءت بالتنوين، ولو كان المراد بها «مصر» المعروفة التي هي مسكن فرعون لجاءت بغير تنوين، كما قال سبحانه: ﴿ونَادَىٰ فرعونُ في قومِهِ قالَ يا قومِ أليسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وهذهِ الأَنْهارُ تَجْرِي من تَحْتِي..﴾[2]؟

قال ابن كثير: والحقُّ أن المراد بقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصراً فإنَّ لكم ماسألتم﴾ مصرٌ من الأمصار ـ أي بلد من البلاد ـ كما رُوي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك، لأن موسى عليه السلام يقول لهم: «هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيز ـ أي نادر ـ بل هو كثير، ففي أيِّ بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار، أن أسأل الله فيه»[3] وبعد أن حكى سبحانه كثيراً عن سفاهات اليهود وجرائمهم، وعن تعنتهم وطغيانهم، أخبر عمَّا أذاقهم إياه من أنواع الذل والهوان، وما حكم به عليهم من السخط والغضب فقال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان، وضُرب عليهم الصَّغار

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الأطعمة رقم ١٨٠٧ والنسائي في المساجد ٢/ ٤٣ ورواه البخاري بلفظ «من أكل ثوماً وبصلاً فليعتزل مسجدنا» ٩/ ٤٩٨ في الأطعمة.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٥١.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٠٥.

والخزي، وأحاط بهم ذلك، كإحاطة القُبَّة بمن ضُربت عليه، مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأزمان أذلاء، من فقر النفس وشُحّها، فلا ترى ملَّةً من المِلَل أحرص منهم على المال، ولا على الحياة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾[1] والمسكنةُ: الفاقةُ والخشوعُ، وهذا وصف ملازم لهم، لا ينفك عنهم أبداً، كما أن الذلَّ لا يفارقهم، إلا في بعض فترات، وهي التي عبَّر عنها القرآن بقوله سبحانه: ﴿إلاَّ بحَبْلٍ من الله وحَبْلٍ منَ النَّاسِ﴾[2]. وإنما أورد اللفظ بضمير الغائب ﴿وضُرِبَتْ عَليهِمُ﴾ للإشارة إلى أن ذلك الذل والهوان والصغار، راجعٌ إلى جميع اليهود إلى يوم القيامة وليس في أسلافهم فحسب ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الذلُّ والغضب والسَّخطُ، بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة، من كفرهم بآيات الله التنزيلية والتكوينية ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي وقتلهم أنبياء الله ورسله، ظلماً وعدواناً، كقتلهم لزكريا ويحيى، وغيرهما من أنبياء الله، وإنما حملهم على ذلك حبُّ الدنيا، واتباع الهوى، والغلوُّ في العصيان.

قال ابن مسعود: «كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيٍّ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»[3] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك الجزاء والعقوبة، بسبب عصيانهم وطغيانهم، وتمردهم على أحكام الله.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٩٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٢، ونصُّها ﴿ضُربت عليهم الذلةُ أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾ أي بعهد من الله وعهدٍ من الناس، كما تفعل أمريكا اليوم في احتضان هؤلاء الخنازير، والدفاع عنهم بشتى الوسائل، وستزول أمريكا بإذن الله كما زالت روسيا، لأن نهاية الطغيان والجبروت لا تدوم، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٠٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هم المؤمنون الذين صدَّقوا برسالة محمد ﷺ، وتمسكوا بشريعته ودينه. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ هم اليهود أتباع موسى عليه السلام، وسموا «هوداً» لأنهم تابوا بعد عبادة العجل، و«هاد» في اللغة بمعنى تاب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[1] أي تبنا ورجعنا. ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ جمع نَصْران كسكارى جمع سكران، بمعنى نصراني، سمّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح، وهم أتباع عيسى عليه السلام. ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم قوم على الفطرة، لا دين لهم يتبعونه ويقتفونه، يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم قوم تركوا اليهودية والنصرانية ووحَّدوا الله، والصابىءُ في اللغة: من ترك دينه إلى دين آخر، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ، وبعضُ الصابئين عبد الملائكة. ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي من آمن منهم في زمانه، إيماناً صادقاً خالصاً، دون أن يشوبه شيء من الشرك، وعمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لا خوف عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا كقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيهِمُ المَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتمْ تُوعَدُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) سورة فصلت، آية: ٣١.

توضيح وبيان للآية الكريمة

أخبر تبارك وتعالى أن أهل الملل والأديان، كلٌّ من آمن منهم بنبيه، وبكتابه في زمانه، إيماناً صادقاً، وعمل صالحاً دون أن يشرك بالله شيئاً، فإن أجره لا يضيع عند الله، وهو يوم القيامة ناج من عذاب الله، وأنه يدخل الجنة مع المؤمنين، فاليهودي الذي تمسك بشريعة موسى في زمانه، والنصراني الذي تمسك بشريعة عيسى في زمانه، والذي مات على الفطرة وهو يؤمن بالله، كلٌّ هؤلاء يدخلون الجنة، لأنهم في زمانهم كانوا مؤمنين موحّدين، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يُقبل من اليهودي أو النصراني أن يتمسك أحدهم بدينه، بل من شروط دخول الجنة الإيمانُ بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، لأن كل دين قبله نُسخ، وانتهى العمل به، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ من الخَاسِرِينَ﴾[1] نعم من آمن من أهل الأديان بنبيه في زمانه، فهو من أهل الجنة، لا يضيع من عمله شيء، وأما بعد مجيء الإسلام فلا يقبل الله من أحدٍ إلاّ الإسلام، وإلاّ الإيمان برسالة محمد عليه السلام، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار»[2].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

بعد أن ذكَّر تعالى بني إسرائيل بالنعم الجليلة التي أنعم بها عليهم،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم ٢٤٠.

أخبر ببيان ما حلَّ بهم من نقم ونكبات، جزاءً لهم على كفرهم وعصيانهم، وتمردهم على أوامر الله عزَّ وجلّ!! ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخذنا منكم العهد المؤكَّد، الموثَّق بأنواع المواثيق، على العمل بما في التوراة، فلما جاءكم موسى بالكتاب المنير، رفضتم العمل به ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي رفعناه حتى صار كالمظلَّة فوقكم، وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي اعملوا بما في الكتاب بجدٍ وعزيمة، وادرسوه ولا تنسوه، ولا تغفلوا عنه، فهو الكتاب الذي به سعادتكم، ونجاتكم من شقاء الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا المعاصي وما يسخط الله، ولتكونوا في زمرة المتقين. روي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة، ورأوا ما فيها من التكاليف، ثقلت عليهم، وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع جبل الطور، فاقتلعه ورفعه فوق رؤوسهم، حتى أصبح كالظلة عليهم، وقيل لهم: إمَّا أن تطبّقوا أحكام التوراة، وإما أن نسحقكم بهذا الجبل[1]، فأذعنوا ورضخوا، ثم عادوا ونكسوا، فذلك قوله تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي ثم نكثتم وأعرضتم عن الميثاق بعد قبوله، فلولا فضل الله عليكم بتوفيقكم للتوبة، ورحمته بقبولها والعفو عن الزلة، لكنتم من الهالكين الخاسرين في الدنيا والآخرة، وهذه هي الجناية الأولى التي تحدثت عنها الآيات، ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من مسخ وتشويه في الصورة والشكل، إلى قردة بسبب ما فعلوا من جرائم وعصيان، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) وهذا ما أشارت إليه سورة الأعراف: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنهم ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ آية: ١٧١.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ أي ولقد عرفتم يا بني إسرائيل، ما فعلنا بمن عصى أمرنا من أسلافكم، حين خالفوا أمر الله، واصطادوا يوم السبت، وكان محرَّماً ذلك عليهم، فمسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً، مع الذلة والهوان ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي فجعلنا هذا المسخ عقوبة زاجرة، لمن شهدها وعاينها، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وعظةً وذكرى لكل عبد صالح، صادق الإيمان، متَّقٍ للرحمن.

إلــى الله يُــدَعــىٰ بــالبَــرَاهِيــنِ مَــنْ أَبَــىٰ
فَــإِنْ لــم يُجِــبْ نَــادَتْــهُ بِيــضُ الصَّــوَارِمِ[1]

المسخ حقيقيٌ لا معنويٌّ

لقد كان مسخهم قردةً مسخاً حقيقياً، تغيَّرت صورهم من صورة بشر، إلى صورة قردة وخنازير، وقد فصَّلتْ سورةُ الأعراف، قصة هؤلاء المعتدين في السبت، وذكرت أنهم مسخوا إلى قردة حقيقةً، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنْهُ قلْنَا لهمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسئِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قُلْ هلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ من ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ الله؟ مَنْ لَعَنَه الله وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ منهُم القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ﴾[3] فهذه النصوص صريحة على أنهم مسخوا إلى قردة وخنازير، وعلى ذلك جمهور المفسرين، وهو الصحيح، وما روي عن بعض المفسرين أن المسخ كان معنوياً لا صورياً مردود، كما

(١) الصوارم جمع صارم وهو السيف، أي من لم تنفعه الموعظة والبرهان، فليس له علاج إلا بالسيف الصارم.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٦٦.
(٣) سورة المائدة، آية: ٦٠.

قال الحافظ ابن كثير والصحيح أنه كان للصورة، وروي عن قتادة أن القوم لما اصطادوا وخالفوا أمر الله، صاروا قردةً تتعاوى، لها أذنابٌ، بعد ما كانوا رجالاً ونساءً، وروي عن ابن عباس أن الله عزَّ وجلّ مسخهم قردةً بمعصيتهم، ثم هلكوا، ولم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يكن لهم نسل. ويؤيد هذا القول ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله: القِرَدةُ والخنازيرُ أهي ممَّا مُسخ؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ لم يُهْلِك قوماً، أو يعذب قوماً، فيجعلَ لهم نسلاً!! وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»[1] أي كانوا قبل مسخ بني إسرائيل، فدلَّ ذلك على أن الذين مُسخوا ليس لهم نسل، وأن القردة الموجودين ليسوا من المسخ[2].

قصة أصحاب البقرة

ثم ذكر تبارك وتعالى قصة أصحاب البقرة، كنموذجٍ عن تمرد بني إسرائيل على أنبيائهم، ومعاندتهم وعصيانهم ومخالفتهم لأوامر الرسل، وكبيانٍ على قدرة الله عزَّ وجلّ في إحياء الموتى، وأن الله يبعث من في القبور. وخلاصة القصة أن بني إسرائيل كان فيهم شيخ موسر، قَتَله ابن أخيه طمعاً في ميراثه، ثم احتمله فطرحه على باب المدينة ليلاً، ولما أصبح الصباح جاء يطالب بدمه، ويزعم أن أهل البلدة قتلوه، حتى كاد يقع بينهم قتال بسبب القتيل، ثم أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها، حتى يحيا ويخبر عن قاتله وإلى هذه القصة العجيبة تشير الآيات الكريمة، وهي قوله تعالى:

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب القدر رقم ٣٣.

(٢) انظر البحث مفصلاً في تفسير ابن كثير ١/ ١١٠.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

والمعنى: اذكروا يا بني إسرائيل، حين قال لكم نبيكم موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ وذلك بعد أن قُتل بينكم قتيل، ولم تعرفوا قاتله ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؟ أي أتهزأ وتسخرُ منا يا موسى؟ نسألك عن القاتل، فتقول لنا: اذبحوا بقرة؟ ما دخلُ البقرة بالقتيل؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أستجير بالله أن أكون في زمرة الساخرين، المستهزئين بالناس، فإن السخرية بالناس جهل وسفهٌ!! وعبَّر بالاستعاذة ﴿أعوذ بالله﴾ استعظاماً لما أقدموا عليه، من رميه عليه السلام بهذه العظيمة المنكرة، فإن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله، وفي مقام الإرشاد يكاد يكون كفراً، فكيف يليق ذلك بنبيّ من الأنبياء الكرام؟! ولو كانوا أذكياءَ لفهموا مغزى كلامه عليه السلام، فإنه وضَّح لهم أن هذا ليس من عنده، وإنما هو أمر الله ﴿إِنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولم يقل لهم: إنني آمركم أن تذبحوا بقرة، ولكنهم أناس جهلاء، مشاغبون معاندون، لا يعرفون قدر الرسل!!.

ولمَّا تحقق لهم أنه عليه السلام جادٌّ في كلامه، غير ساخر ولا عابث.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾؟ أي ادع لنا يا موسى ربك، حتى يبين لنا ما هي هذه البقرة؟ ما سِنُّها؟ ما صفتها المميزة لها عن غيرها؟ وهذا تعنّتٌ منهم وعناد، ولو امتثلوا الأمر فذبحوا أي بقرةٍ لأجزأتهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم كما قال ابن عباس[1] ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي قال لهم موسى: إن هذه البقرة التي أمركم الله بذبحها ﴿لا فَارِضٌ﴾ أي ليست كبيرة مسنة هرمة، ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ أي وليست صغيرة فتية ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي فنفِّذوا أمر الله، ولا تكثروا الجدل، ولا تتعنَّتوا وتتشدَّدوا، فيشدّد الله عليكم.

قال ابن كثير: الفارضُ: الهرمةُ التي لا تُولد، والبِكرُ: التي لم تلد إلاَّ ولداً واحداً، والعَوَانُ: النَّصَفُ ـ أي الوسط ـ التي بين ذلك، التي قد وَلَدت، ووَلَد ولَدُها[2].

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾؟ لم يمتثلوا الأمر، وعادوا إلى الجدل والتعنت، فطلبوا من موسى أن يدعو ربه، حتى يخبرهم عن لونها، بعد أن أخبرهم عن سنّها!! أي هل لونها أبيض، أم أسود، أم أصفر؟ نريد أن تخبرنا عن لونها بقولٍ قاطع. ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي قال لهم موسى: إن ربي يقول إن هذه البقرة صفراء اللون، شديدة الصفرة، حسنة المنظر، تسرُّ كلَّ من رآها، ولفظ «فاقع» من صفات الألوان، وهو وصف خاصٌ بالصُّفرة، كما نقول: أسود حالكٌ، وأبيض ناصع، وأصفر فاقع أي شديد الصُّفرة، قال الطبري: وهو نظير النصوع في البياض[3]. وكان يكفي هذا البيان لهم، ولكنهم كانوا مغرمين بالتعنت والجدل، والمعاندة لأوامر الله، فرجعوا يطلبون من نبيهم أن يسأل ربه، عن علامةٍ خاصة تعرف بها، لأن هذه الأوصاف عندهم غير كافية.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١١٣.

(٣) مختصر الطبري ١/ ٩٧.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي يوضح لنا وصفاً خاصاً بها يميّزها من غيرها، وكأنهم أحسُّوا بمقت المعصية، فاعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً، وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أي تشابه علينا البقر، والتبس أمره علينا، فلم ندر ما هي البقرة المأمور بذبحها، وسنهتدي إن شاء الله إلى معرفتها، وفي الحديث «إنما أُمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لمَّا شدَّدوا شدَّد الله عليهم، وايمُ الله لو أنهم لم يستثنوا ـ أي يقولوا إن شاء الله ـ لما بُيّنت لهم آخر الأبد»[1] وما تشابه عليهم البقر، إلاَّ لأنهم أغبياء من جنس البقر!!.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، وجملة ﴿تثير الأرض﴾ صفة لذلول داخلة في النفي، ومعنى إثارة الأرض حراثتها لإلقاء البذر فيها ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي وليست لسقاية الزرع، وإنما هي للدرِّ والنسل، لا للحراثة والسقاية ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب، ليس فيها لون آخر يخالف لون جلدها، فهي صفراء كلُّها حتى قرنها وظلفها ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي في هذا الوقت جئتَ بحقيقة وصف البقرة، وما بقي إشكالٌ في أمرها، وفي قولهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ إساءة أدبٍ مع رسولهم، كأنه ما كان يخبرهم بالحقِّ قبل ذلك، والآن قال لهم الحقَّ، أي الآن صدقتَ، وكان يكفيهم أن يقولوا: الآن عرفناها تمام المعرفة، ولكنهم كانوا غير راشدين في تعبيرهم، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة الجامعة لكل الأوصاف، فاشتروها بثمنٍ غالٍ جداً، فذبحوها وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة، أو ضنّاً بذبح البقرة، فإنهم كانوا يعبدون البقر، كما قال سبحانه: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/١١٤.

العِجْلَ﴾ أي امتزج بدمائهم حبُّ عبادة العجل، وهو الذَّكرُ من البقر، فمن أجل ذلك ما كادوا يقدمون على ذبحها، وفي هذا ذمٌّ لهم، لأن غرضهم لم يكن إلا التعنت، والشغب على نبيِّ الله موسى الكليم عليه السلام[1].

قصة البقرة

وقصة هذه البقرة على ما رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل، كان صالحاً، ووُلد له ابن، وكانت له عجلة ـ بقرة فتية ـ فأرسلها لترعى في الحقل، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبيُّ قالت له أمه: إن أباك كان قد استودعَ الله لك عجلة، فاذهب فخذها، فذهب فلما رأته البقرة حنَّت إليه حتى أخذ بقرنيها ـ وكانت مستوحشة ـ فجعل يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل، ووجدوا بقرته على الصفة التي أُمروا بها، فاشتروها بثمن غالٍ[2].

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

هذه أول القصة، وهي من المؤخر لفظاً، المقدَّم معنى، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة، للكشف عن القاتل[3]، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ

---

(١) اختار الطبري أنهم ما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، ورجح ابن كثير رواية الضحاك عن ابن عباس، أنهم أرادوا ألاَّ يذبحوها، لأنهم ما كانوا يريدون إلا التعنت، ومع هذا البيان وهذه الأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وانظر ابن كثير ١/ ١١٥.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٤٨.

(٣) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ١/ ٧٣، وهذه الواقعة «قتل النفس» جرت قبل =

نَفْسًا﴾ بداية ذكر القصة أي واذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم شخصاً، والخطاب لليهود المعاصرين لزمن النبي ﷺ، يذكِّرهم بفعل أسلافهم، وأضيف القتل إليهم لرضاهم بفعل أولئك، وهذا على طريقة العرب في إسناد الأشياء إلى القبيلة، إذا وُجد من بعضهم سكوت أو رضى بما حدث ﴿فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم في شأنها، إذ كلٌّ واحد من الخصماء صار يدفع التهمة عن نفسه، وينسبها لغيره، والدَّرءُ: معناه الدفعُ، ومنه قوله تعالى ﴿ويَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ﴾[1] أي يدفع عنها الحدَّ ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهرٌ لا محالة ما تكتمونه من أمر القتل، لا يتركه مستوراً مكتوماً، لا يُعرف من هو القاتل؟

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي فقلنا لكم على لسان نبينا: اضربوا القتيل ببعض البقرة، أيَّ بعضٍ كان، يحيا القتيلُ ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الآية شيء محذوف، تقديره: فضربوه فحيي، فحذف ذلك لدلالة السياق ﴿كذلك يحيى﴾ أي كما أحيا الله هذا القتيل أمام أبصاركم، كذلك يحيي الموتى من قبورهم، روي أنهم لمَّا ضربوه ببعضها، قام بإذن الله، وأوداجه تشخب دماً، وقال: قتلني فلان لابن عمه، ثم سقط ميتاً فأُخذ وقُتل، ولم يُورَّث قاتل بعد ذلك. ثم إن موسى عليه السلام أمرهم بضربه ببعضها، وما ضربه بنفسه نفياً للتهمة، كيلا يُنسب إلى السحر أو الحيلة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي ويريكم دلائله على كمال قدرته، لكي تعقلوا وتتبصَّروا، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس بعد موتها، قادرٌ على إحياء الأنفس كلها. وفي هذه القصة تعليم من الله

= أمرهم بذبح البقرة ـ كما بيَّنا ـ وإن وردت في الذكر بعده، والسرُّ في ذلك التشويقُ إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، والتكرير في التوبيخ والتقريع، لأن كل واحد من قتل النفس، والاستهزاء بموسى عليه السلام، والاعتراض على أمر الله، جناية عظيمة تستحق كمال التوبيخ.

(١) سورة النور، آية: ٨.

لعباده، بترك التشديد في الأمور، والمسارعة إلى امتثال أوامر الله، والتحذير من كثرة السؤال، والاعتبار بما يرى الإنسان من دلائل كمال القدرة.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطابٌ لأهل عصر النبي ﷺ من أحبار اليهود، والقسوةُ: عبارةٌ عن الغِلَظ مع الصلابة كما في الحجر الصَّلد، و«ثم» لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة ما يزيلها، كقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] والمعنى: ثم صلبت قلوبكم يا معشر اليهود وغلظت، فلا يؤثّر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد رؤية تلك المعجزات الباهرات، ومنها معجزة إحياء القتيل ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي فهي في قساوتها مثل الحجارة، بل أشدُّ منها قسوة، كقسوة الحديد ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي إن من الأحجار ما تتدفَّق منها الأنهار بالماء الزلال، الذي به حياة الناس والنبات، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ أي ومن الحجارة لما يتصدَّع إشفاقاً من عظمة الله، فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن الحجارة ما يتصدَّع ويتردَّى من أعالي الجبال، خوفاً من الله عزَّ وجلّ، فالحجارة تلينُ وقلوبكم لا تخشع ولا تلين ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو تعالى رقيب على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلب، وجفاء الطبع.

ترقَّىٰ سبحانه في بيان التفضيل على الحجارة، التي تتأثر تأثراً بليغاً، بما يترتب عليه منفعة عظيمة من تفجّر الأنهار.. ثم على الحجارة المتأثرة

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١.

تأثراً ضعيفاً، يترتب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، يعني بها العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها من غير منفعة الناس، وهي التي تتفتّت وتهبط خشية من عظمة الله، كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله﴾[1] فالحجارة تتأثر وقلوب هؤلاء لا تتأثر أصلاً، فهي أشدُّ قسوة من الحجارة!!

فإن قلت: إن الحجارة جماد فكيف تخشى وتتأثر؟

فالجواب: أن مذهب أهل السنة أن الله تعالى أودع في الحيوانات والجمادات حسّاً لا يعرفه الناس، فلها تسبيح وخشية لا ندركه نحن، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ﴾[2]. والخشيةُ: خوفٌ يشوبه تعظيمٌ وإكرام، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعثَ، إني لأعرفه الآن»[3].

ثم بعد أن ذكر تعالى عناد اليهود، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان لأوامر الرحمن، نبّه تعالى المؤمنين إلى بعض جرائمهم وقبائحهم، لئلا يطمعوا في إيمانهم وهدايتهم فقال سبحانه:

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(١) سورة الحشر، آية: ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل رقم ٢٢٧٧ والترمذي في المناقب رقم ٣٦٢٤.

الخطابُ لرسول الله ﷺ والمؤمنين، والاستفهام للاستبعاد وإنكار الواقع، كما في قولك: أتضرب أباك؟ لا لإنكار الوقوع، فقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؟ أي أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم، فترجون وتطمعون أن يؤمن اليهود لأجل دعوتكم، وضمير الغيبة ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ لليهود المعاصرين له ﷺ لأنهم هم المطموع في إيمانهم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي والحال أنه كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يسمعونه بيّناً جلياً ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي ثم يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل الباطل، من بعد ما فهموه وضبطوه، كتحريفهم نعت النبي ﷺ وآية الرجم، والتحريفُ يصدق على تحريف الألفاظ، والمعاني، بالحذف، والزيادة، والنقصان، وهي واقعة في كتب اليهود والنصارى كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[1] وممَّا يؤيد وقوع التغيير، وأنها لم تبق كيوم نزلت، وقوع التناقض في الأناجيل، وتعارضها وتكاذبها، ومصادمة بعضها ببعض، فإنها في زماننا أربعة أناجيل، وقد تضمَّن كل إنجيل من الحكايات والقصص ما أغفله الآخر، واشتمل على أمور وأشياء قد اشتمل الآخر على نقيضها أو ما يخالفها، وفيها ما يدركه الإنسان بداهة أنه ليس من كلام الله تعالى مطلقاً، فهل أنزل الله على عيسى إنجيلاً واحداً أم أربعة أناجيل؟ وكذلك التوراة التحريف فيها أشد وأفظع، وصيغة المضارع ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فالتحريف عندهم مستمر، على حسب الأزمان والأهواء، لأن الله تعالى ما تكفَّل بحفظ كتاب، إلاَّ هذا القرآن العظيم!! ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم فيه ريبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، والمراد أن أحبار هؤلاء وعلماءهم، كانوا على هذه الحالة، فما طمعكم بِجُهَّالهم؟ وقيل: المرادُ بكلام الله:

---

(١) سورة المائدة، آية: ٤١.

الوحيُ المنزَّلُ على رسول الله ﷺ، وقد كان جماعة من اليهود يسمعونه فيحرّفونه قصداً، ليدخلوا في الدين ما ليس منه، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره، والقول الأول أصح.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود: آمنا بأنكم على الحقِّ، وأن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي وإذا اختلى بعضهم ببعض، وانفردوا عن المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؟ أي قال بعض أحبارهم توبيخاً لهم عاتبين على من نافق: أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة، من نعت رسول الله وصفته ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم، في ترك اتباع الرسول، مع العلم بصدقه؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفليست لكم عقول تدركون بها هذا الخطأ الفاحش؟ وهذا من تمام الحكاية عنهم. وإنما عبَّروا عن الحديث بالفتح ﴿بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ﴾ للإيذان بأنه سرٌّ مكنون، لا يقف عليه أحد، وهم وحدهم يعرفون ذلك من أخبار التوراة.

قال تعالى ردّاً عليهم، وتوبيخاً لهم على إجرامهم ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؟ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود، المحرّفون لكلام الله، والكاتمون لأوصاف رسول الله، أن الله جلَّ وعلا، عالمٌ بما يخفونه وما يعلنونه، ومطَّلعٌ على أحوالهم، لا تخفى عليه من أحوالهم خافية؟ فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!.

وقدَّم السرَّ على العلانية، لأن مرتبة السرِّ مقدمةٌ على مرتبة العلن، إذْ ما من شيءٍ يُعلن، إلاَّ وهو قبل ذلك مضمرٌ في القلب.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

لمَّا ذكر تعالى علماء السوء، من اليهود الذين حرَّفوا وبدَّلوا كلام

الله، ذكر العوام الذين قلّدوهم بدون عقل، ونبّه أنهم في الكفر والضلال سواء، العامة والعلماء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي من اليهود جماعة عوام جهلاء، جمع أمي وهو الذي لا يعرف القراءة والكتابة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها، ويتحققوا بأنفسهم بما فيها، ولذلك يقلّدون الأحبار، ويصدّقونهم بما يقولون، بدون عقل ولا فهم ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدّره الإنسان في نفسه والمروي عن ابن عباس أن الأماني: المواعيد التي سمعوها من أحبارهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، والتمني: هو الكلام المتمنى به بقوله ليت لي كذا ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنُّ والتقليد، فأنى يرجى لهم الإيمان على قواعد اليقين!؟.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ شدَّةُ عذاب، وهي كلمة تحسُّرٍ وهَلَكة، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «الويلُ وادٍ في جهنم»[1] ومعناه أن في جهنم موضعاً يتبوأ فيها من جُعل له الويلُ[2] وهو في الأصل مصدرٌ لا فعل له، وإنما ساغ

---

(١) أخرجه الترمذي ولفظه: «ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره».

(٢) لا يراد أنه في اللغة موضوع لاسم وادٍ في جهنم، وإنما يُراد أن من قال الله تعالى فيه «ويلٌ» فقد استحق مقراً من النار، وثبت له ذلك، مثل قوله: ﴿ويل للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لكل هُمَزة لُمَزة﴾ و﴿فويلٌ للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾.

الابتداء به نكرة، لأنه دعاء، كأمثالِهِ من وَيْح، وَوَيْس[1]، فإذا أضيف نصب نحو ويلَكَ، ووَيحَك، وإذا فصل رُفع «ويلٌ له» وهذا دعاء عليهم بالهلاك ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني المحرَّف، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد كقولك كتبته بيميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إعظاماً لشأنه، وتمكيناً في قلوب أتباعهم، و«ثم» للتراخي الرتبي، فإن نسبة المحرَّف إلى الله عزَّ وجلَّ أشدُّ شناعة من نفس التحريف، روي أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مكانتهم حين قدم النبي ﷺ المدينة، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان به ﷺ فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيَّروها ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثَمَنًا﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ فإنه وإن جلَّ قليل، بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ تكرير لما سبق للتأكيد وتصريح لتعليله ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من السُّحت وهذا يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف للديانه، بل إنما فعلوه طلباً للمال، ويدل أيضاً على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم، واليهود جنوا ثلاث جنايات:

١ ـ تغيير صفة النبي ﷺ.

٢ ـ الافتراء على الله تعالى.

٣ ـ وأخذ الرشوة، فهدّدوا بكل هذه الجنايات بالويل والثبور.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ أي قال اليهود لن ندخل النار إلا أياماً

---

(١) وَيْسٌ: كلمة تستعمل في موضع رأفة واستملاح، يقال: وَيْسَه ما أملحه، وَوَيْساً له. اهـ المعجم الوسيط.

قلائل، هي مدة عبادتنا للعجل، ولا نخلّد في نار جهنم، ومرادهم بقولهم: ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي محصورة قليلة، روي أنهم قالوا إنما نُعذَّب بعدد أيام عبادة العجل، أربعين يوماً[1]، وكنّى بالمعدودة عن القليلة، لأن العرب ـ لعدم علمهم بالحساب ـ تصوّروا القليلة ميسّرة العدد، والكثيرة متعسرة، فقالوا: شيء معدودٌ أي قليل ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ وعداً بما تزعمون، فإنَّ ما تدَّعون لا يكون إلا بناءً على وعدٍ قويّ، ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ جواب شرط مقدر، أي إن اتخذتم عند الله عهداً، فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلْف في خبره محالٌ، وإظهار الاسم الجليل، للإشعار بعلة الحكم، فإن عدم الإخلاف من قضية الألوهية ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ مفترين ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه، وإنما علق التوبيخ بإسنادهم إليه سبحانه ما لا يعلمون للمبالغة في التوبيخ، وقولهم المحكي وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له ﴿أم تقولون﴾ «أم» منقطعة بمعنى «بل» أي بل أتقولون على التقرير والتقريع ثم قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لمَّا فتح خيبر، أهديت له شاة فيها سمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود، فجُمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا: صدقتَ، قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً...» الحديث وانظر تمامه في فتح الباري على البخاري ٦/ ٢٧٢.

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً، ودهراً طويلاً، على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، ويختص «بلى» بجواب النفي لأنها تقع تصديقاً للنفي، ولا يقع للمثبت أصلاً، ولهذا قيل بلى في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ لأنه في قوة بلى أنت ربنا، ولو قالوا، نعم لكفروا، لأنه في قوة نعم لستَ ربنا، فإنَّ «نعم» يقع تصديقاً للإيجاب والنفي، في الخبر والاستفهام، ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والكسب استجلاب النفع، وتعليقُه بالسيئة للتهكُّم على طريق فبشرهم بعذاب ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله، وهذا إنما يصح في شأن الكافر، ولذا فسرها السلف بالكفر، وتحقيقُ ذلك، أن من أذنب ذنباً ولم يُقلعْ عنه، استجرَّه إلى معاودة مثله، وانهماكه فيه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إليها مستحسناً لها، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غشَّاها وغطَّاها الإجرام والضلال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾أي فهم في نار جهنم دائمون فيها أبداً، فأنى لهم الخروج منها بعد أربعين كما زعموا؟[1]

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا فُتحت خيبر أهديت للرسول ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من اليهود!! فجُمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم: من أبوكم؟ قالوا: فلانٌ، قال: كذبتم بل أبوكم فلان!! قالوا صدقتَ وبررت، فقال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا!! فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً!! ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم، قال: ما حملكم على هذا؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرّك!!» أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ١٩٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وضع تعالى الإيمان في مقابلة السيئة، والعمل الصالح في مقابلة الخطيئة، للمقارنة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار، أي وأمَّا المؤمنون الصادقون، الذين قدّموا الأعمال الصالحة، فهؤلاء لا تمسهم النار، بل هم مخلَّدون في رياض الجنة، يُسرُّون فيها ويحبرون.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

شروع في تعداد بعض آخر، من جرائم وقبائح اليهود، حيث نقضوا الميثاق، وأزهقوا الأرواح، وطغوا في الأرض بالإفساد، واعتدوا على حرمات إخوانهم المؤمنين بالبغي والعدوان ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي اذكروا يا معشر اليهود، حين أخذنا على أسلافكم العهد الموثَّق المؤكَّد غاية التأكيد، وقلنا لهم ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ على إرادة القول أي قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إخبارٌ في معنى النهي، كقوله تعالى: ﴿لا يُضَارَّ كاتب﴾ وهو أبلغ من صريح النهي، لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء، فهو يخبر عنه، وهو متعلق بمضمر تقديره وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، والإحسانُ: الإتيان بالعمل على الوجه اللائق، وفسره ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] والوالدان تثنية والد، يطلق على الأب، والأم. ودلت الآية على

(١) هذا طرف من حديث جبريل المشهور، وفيه: فسأله جبريل: قال: «فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..» الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، وانظره بتمامه رقم ٨.

الحث على برّ الوالدين، والآياتُ والأحاديث في ذلك كثيرة، وناهيكَ احتفالاً بهما أن الله تعالى قرن ذلك بعبادته، لأن أعظم أنواع النعم نعمة الوجود، وهي نعمة الحفظ في وقت الصغر ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عطفٌ على الوالدين، والقربى مصدر كالرُّجْعىٰ، وهو قرابة الرحم والصلب، أي أحسنوا إلى ذي القربى، وقال الله تعالى: ﴿وآتِ ذا القُرْبىٰ حَقَّهُ﴾ يريد المحاويج منهم، قدَّمهم لأنهم أحق بالمعروف، عن سلمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرحم صدقةٌ، وَصِلة»[1] وفيه دليل على وجوب النفقة على المحارم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، ومعناه في الأصل الانفراد، ومنه الدُّرَّةُ اليتيمة، وهو الذي مات أبوه وهو صغير حتى يبلغ الحلم، وفي الحديث الشريف: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى»[2]. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ والمسكين من السكون، كأنَّ الفقر أسكنه من الحراك، وأثخنه من التقلب وهو أشد فقراً من الفقير، فالفقير الذي له بلغةٌ من العيش، والمسكين الذي لا شيء له أصلاً عند أكثر أهل اللغة، وهو قول أبي حنيفة، واحتج بقوله تعالى: ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ وعند الشافعي الفقير أسوأ حالاً، واحتج بقوله: ﴿أمَّا السفينة فكانت لمساكين﴾، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولاً حَسَناً، وسمَّاهُ حُسْناً للمبالغة، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، والظاهر أن هذا الأمر من جملة الميثاق، والقول الحسن مع المؤمنين والكفار لأن موسى أمر بالرفق مع فرعون، وكذا الرسول ﷺ أُمر بالرفق والموعظة الحسنة، فإذا أمكن التوصل إلى الغرض باللُّطْف، لم يحسن سواه مع الجميع

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة ٥/ ٩٢ والترمذي رقم ٦٥٨ وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٣ في الأدب، وأبو داود رقم ٥١٥٠ وزاد البخاري: وفرَّج بينهما شيئاً.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ﴾ يريد بهما ما فُرض عليهم في ملتهم، لأنه حكاية لما وقع في زمان موسى، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ على طريقة الالتفات، ولعلَّ الخطاب مع الموجودين في عهد رسول الله ﷺ على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتم وثمَّ للاستبعاد، فيكون توبيخاً لهم بالارتذاد بعد الانقياد، وهو أشنع في العصيان من الأول ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ يريد من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي أنتم قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء، والطاعة، وأصل الإعراض الذهاب والانصراف عن الشيء، احتقاراً له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ نعى عليهم إخلالهم بموجب الميثاق، المأخوذ منهم في حقوق العباد، إثر بيان ما فعلوا بالميثاق، المأخوذ منهم في حقوق الله تعالى أي اذكروا وقت أخذنا ميثاقكم في التوراة، وقلنا ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾ أي تريقونها بقتل بعضكم بعضاً، وإنما جعل قتل الرجل نفسه، لأنه يوجب القصاص، وقيل معناه: لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم، أو لا تفعلوا ما يُرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية ﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ أي لا يخرج بعضُكم بعضاً من داره، ولا يتعرض بالإجلاء عن الوطن، والتعبير عن ذلك للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ ﴾ أي قبلتم ذلك الميثاق، واعترفتم بلزومه، خلفاً بعد سلف، والإقرارُ: ضد الجحود ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ توكيد كقولك: أقرَّ فلانٌ شاهداً على نفسه، وهو أبلغ في بيان قبيح صنيعهم، أي ثم اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزومه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

نزلت هذه الآيات في يهود بني قريظة، ويهود بني النضير، فقد كانوا فريقين، حَالفت بنو قريظة الأوسَ، وحالفت بنو النضير الخزرج ـ والأوسُ والخزرجُ سكان المدينة من العرب ـ فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كلُّ فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من المتاع والأثاث والمال، وذلك حرام عليهم بنص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، افتكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، فذلك قوله تعالى موبخاً لهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي ثم أنتم يا معشر اليهود، بعد إقراركم بالميثاق، تقتلون إخوانكم في الدين، وتطردونهم من ديارهم، من غير التزام بالميثاق ومن غير مراعاةٍ لأوامر الله في التوراة ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تتعاونون على قتلهم وطردهم من أوطانهم بالبغي والظلم، والإثمُ: الذنبُ الذي يستحق فاعله الذمَّ واللوم، وفي الحديث الشريف «الإثمُ ما حاك في صدركَ وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»[1] والعدوانُ: الظلمُ، ومجاوزة الحد

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر رقم ٢٥٥٣ والترمذي في الزهد رقم ٢٣٩٠ ولفظه عن =

في المعاصي ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ أي وإن وقعوا في الأسر في أيدي حلفائكم، استنقذتموهم بدفع المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي وإخراجهم من أوطانهم حرام عليكم، فكيف تستبيحون القتل والإخراج، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي الأعداء؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾؟ بفداء الأسارى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال، والإجلاء، والمظاهرة، مع أن من قضية الإيمان ببعضه، الإيمان بالباقي، لكون الكلّ من عند الله تعالى، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر ببعض الكتاب، أو إلى ما فعلوه من القتل والإجلاء ﴿مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة وهوانٌ يقال: خَزِيَ خِزْياً: ذلّ وهان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي خزيٌ كائن في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو الخلود في جهنم، كما أن معصيتهم أشدُّ المعاصي، ولعل بيان جزائهم بطريق القصر، لقطع أطماعهم من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب، وإظهار بأنه لا أثر له أصلاً ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد أي والله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، لا يغفل عن أفعالهم من القبائح، التي من جملتها هذا المنكر.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ واستبدلوها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها، وإن ما ذكر من الكفر ببعض الكتاب، إنما كان لمراعاة جانب حلفائهم، لما يعود منهم من بعض المنافع الدنيوية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم، والأكثرون حملوه على نفي النصرة في الآخرة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي المعهود وهذا في الآخرة، ولأنهم قد يصيرون غالبين للمؤمنين في بعض الأوقات.

= النوّاس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم؟ فقال: «البِرُّ حُسْن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك..» الحديث.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ شروع لبعضٍ آخر من جناياتهم، وهذا من النعم التي أفاض الله تعالى عليهم فقابلوها بالكفر، واللام في «لقد» جواب قسم محذوف، أي والله لقد أعطينا موسى الكتاب، ولا تكاد اللام ترتبط إلاَّ مع «قد» لأنها مظنة التوقع، والمخاطب إذا سمعها توقَّع وقوع ما صُدِّر بها من الخبر، ﴿ مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المراد من الإتيان إنزال التوراة عليه، ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعناه وأردفناه، يقال: قَفَاه إذا اتبعه، وقَفَّاه به: إذا أتبعه إياه ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد موسى ﴿ بِٱلرُّسُلِ ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلَنَا تَتْرَى﴾[1] وهم داود وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى بالعبرية معناه المبارك، ومريم في لغتهم العابدة، وقال القرطبي: معناه خادم الرب ﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، أو الحجج الواضحات، الدالة على نبوته، وأفرده عن الرسل لأنه من أولي العزم، وصاحب كتاب، وإضافته إلى أمه، رداً على اليهود زعموا أن له أباً ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قويناه ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي بالروح المقدسة الطاهرة، أراد به «جبريل» عليه السلام، ووصفها به لطهارته عن مسِّ الشيطان، أو لكرامته على الله تعالى، وإطلاق «روح القدس» على جبريل شايع[2]، والقُدُس:

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٤٤.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: والدليل على أن «روح القدس» هو جبريل عليه السلام قول الله تعالى: ﴿قل نزَّله روح القُدُس من ربك بالحقِّ﴾ وقوله ﷺ: «اللهمَّ أيِّدْ حسان بروح القُدس كما نافح عن نبيك» وحديث «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها...» الحديث.

الطهارةُ والبركةُ، والتقديسُ التطهير، قال مجاهد والربيع: القُدُس من أسماء الله تعالى، كالقدُّوس، وخصَّ عيسى بذكر التأييد، لأنه تعالى خصه به من وقت صباه، إلى حال كبره، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً﴾[1] ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من أولئك الرسل ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبُّه من الحق الذي لا يحيد عنه، والهوى مقصور من هويته إذا أحببته، ثم أطلق على ميل النفس إلى شيء مذموم، فيقال: اتَّبع هواه، وهو من أهل الهوى، وقال الشعبي: «ما ذكر الله تعالى الهوى في القرآن إلاَّ وذمَّه» ولم يوضع إلاَّ موضع الشر، فلا يقال: فلانٌ يهوى الخير، بل يقال يحب الخير، وعبَّر عن المحبة بالهوى، للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم، هو المخالفة لأهوائهم، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يَهْوَون كذَّبوه، أو قتلوه، والرسولُ فعول بمعنى مفعول جمعه رسل بضمتين، وهو من بعث بشريعة جديدة يدعو الناس إليها والنبيُّ: من بعث لتقرير شريعة سالفة ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبّرتم عن اتباعه، والمراد التوبيخ، ومتعلق «استكبرتم» محذوفٌ أي عن الإيمان بما جاء به من عند الله ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ونحوه ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى ونحوهما، وإيثار صيغة المستقبل في القتل لاستحضار صورته الهائلة، أو للإيماء إلى أنهم بعدُ على تلك النية الخبيثة، حيث همُّوا بما لم ينالوه من جهته ﷺ وسحروه وأرادوا سمّه. وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر، ونسب القتل إليهم لرضائهم به وقيل: إنه ﷺ قُتل حقيقةً بالسمِّ الذي وضعوه في الشاة، على ما جاء في الصحيح بلفظ «وهذا أوانُ وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السم»[2].

---

(١) سورة المائدة، آية ١١٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢١٩ وحديث السمّ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ٦/١٩٥ ولفظه: لمَّا فُتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ. الحديث، وفي رواية للبخاري في كتاب الهبة: «فما زلتُ أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ» أي أثر هذه الأكلة في أقصى فم النبي ﷺ جمع لَهَاة وهي أقصى الفم.

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ للنبي ﷺ استهزاء، بيانٌ لفنٍ آخر من قبائحهم، على طريق الالتفات إلى الغيبة، إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، والقائلون هم الموجودون في عصره ﷺ ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ جمع أغلف أي هي مغشَّاة بأغطية، لا يصل إليها ما جاء به ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْه﴾[1] قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ ردٌّ لما قالوا، والمعنى: أنها خُلقت على الفطرة، والتمكن من قبول الحق، ولكنَّ الله تعالى خذلهم بكفرهم، فأبطل استعدادهم، كما قال الله ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم﴾[2] واللعنُ: أشد ما يعبر الله به عن غضبه، فالملعون هو المحروم من لطفه وقد يكون بمعنى الإبعاد عن درجة الأبرار، وهو المراد في حديث الاحتكار، والمراد للمحلِّل، والمحلَّل الخساسةُ لا حقيقة اللعن، لأن النبي ﷺ قال «إني لم أُبعث لعَّاناً»[3] واللعنُ لا يكون إلا لكافر، وعلى غير معيَّن كالظالمين ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ «ما» مزيدة للمبالغة في التقليل، أي فإيماناً قليلاً يؤمنون، وهو إيمانهم ببعض الكتاب، وقيل: أراد بالقلة العدم قاله الزمخشري.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

---

(١) سورة فصلت، آية: ٥.

(٢) سورة محمد، آية: ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٩ في البرِّ، ولفظه: «قيل يا رسول الله: ادع على المشركين، قال: إني لم أُبعث لعَّاناً، وإنما بعثتُ رحمة».

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي القرآن الكريم، وتنكيره للتفخيم ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الكائن من عند الله ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة، أي مصدق فيما يختص بالنبوة وصفاته عليه السلام المذكورة في التوراة وصارت تلك الأوصاف كالمؤكدة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي مِن قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي يستنصرون ويسألون اللهَ الفتح والنصرة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، المنعوت في التوراة، وقيل: يستفتحون بمعنى يستخبرون عنه ﷺ هل ولد مولود صفته كذا وكذا!؟ نقله الراغب وغيره[1] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ تكرير للأول ﴿مَّا عَرَفُوا۟﴾ من الحق ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حسداً وخوفاً على زوال الرياسة، لأنهم يظنون أن المبعوث يكون من بني إسرائيل، فلما بعثه الله تعالى من العرب، عظم ذلك عليهم، وحسدوه وكفروا به ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اللام للعهد، أي عليهم، ووضعُ المظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فاليهود لما بالغوا في الكفر والعناد، وكتمان أمر الرسول ﷺ صار الكفر كأنه صفة غير مفارقة لذكرهم.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) عن ابن عباس قال: كان اليهود بستفتحون ـ أي يطلبون النصر ـ على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، قبل مبعثه، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا في التوراة، حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من العرب، وليس منهم، كفروا به حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ انظر تفسير ابن كثير ١/١٢٩.

﴿بِئْسَمَا﴾ ما نكرة بمعنى شيء أي بئس شيئاً ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ باعوا به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بمنزلة المثمن ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بمنزلة الثمن، وهو المخصوص بالذم، لأن أنفسهم الخبيثة لا تشترى أي أنهم اختاروا الكفر على الإيمان، وبذلوا أنفسهم فيه ﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وهو علة لأن يكفروا والمعنى: بئس شيئاً باعوا به أنفسهم كفرهم بسبب البغي الكائن ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الذي هو الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ ويصطفيه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة، والبغيُ في الأصل: الظلمُ والفساد، وقد يراد به الخروج على السلطان، بغى أي سعى بالفساد والمراد هنا: الحسدُ، يدلُّ عليه أنّ كفرهم كان لمجرد العناد، وهو نتيجة الحسد لا للجهل ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ مترادف ومتكاثر، للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق ﷺ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العصاة فإنه طُهرةٌ لذنوبهم، وسبب إذلالهم لما أن كفرهم كان مبنياً على الحسد والاستهانة بمن أنزل عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ من جانب المؤمنين لليهود ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني الكتب المنزلة بأسرها ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة يعنون بها ما نزل على بني إسرائيل، ويدسُّون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم، وفيه إيماء أن عدم إيمانهم بالقرآن، لبغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ والتعبير بالمضارع لحكاية الحال، استغراباً للكفر بالشيء بعد العلم بحقيته، وقوله تعالى ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ المراد به بما سواه من الكتب الإلهية، والمقصود به هنا القرآن الكريم خاتمة

الكتب السماوية ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي مع أن القرآن هو الحقُّ، الموافق لما معهم في التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدِّقاً لما معهم من كلام الله، لأن كتب الله المنزلة، يُصدِّق بعضها بعضاً في الأصول، كالتوحيد، والإيمان بالآخرة، والبعث والجزاء ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم توبيخاً وتقريعاً: إن كنتم حقاً مؤمنين بما في التوراة، فلم كنتم تقتلون رسل الله، مع أن قتلهم من أعظم الجرائم عند الله؟ وهل يقدم مؤمن على قتل نبيٍّ من أنبياء الله؟

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ولقد جاءكم نبيكم موسى بالحجج الباهرات، والمعجزات الساطعات، الدالة على صدقه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي ثم عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع، والآية إبطال لقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وللتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى عليه السلام، عادتهم في ذلك الكذبُ والعدوان، والظلم والطغيان «ومَنْ يُشابهْ أَبَهُ فما ظَلَم»!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۖ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا على أسلافكم، العهد المؤكَّد الموثَّق بالأيمان، على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقهم جبل الطور قائلين ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أي خذوا هذه الأحكام بعزمٍ وحزم، واسمعوا سماع قبولٍ وطاعة، وإلاَّ طرحنا عليكم الجبل فسحقناكم به ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك، فإذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب

المؤكَّد، مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزات، بمثل هذه العظيمة، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان بما فيها؟ ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي خالط حب العجل قلوبهم، وامتزج بدمائهم، لفرط شغفهم به ومحبتهم له كما يدخل الصِّبْغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وتعلق قلوبهم بالوثنية ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم: بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل!! والأسلوب ورد بصيغة التهكم، فالإيمان يدعو إلى التقوى، لا إلى الكفر وعبادة البقر، والغرض من الآية القدح في صحة دعواهم الإيمان، ولهذا قال بعده ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان، فبئس هذا العمل والصنيع، فمن ادَّعى أنه مؤمن، ينبغي أن يكون فعلُه مصدِّقاً لقوله، وإلاَّ لم يكن مؤمناً!!.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الآية توبيخ لليهود، على دعواهم الكاذبة، أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الجنة لهم دون سائر الخلق، فأمر الله رسوله أن يدعوهم إلى تمني الموت، إن كانوا صادقين في تلك الدعوى، فأحجموا وظهر كذبُ دعواهم، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن كانت لكم الجنة خاصة، لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي خاصة بكم دون سائر الخلق، كما قلتم ﴿لن يَدْخُلَ الجنة إلاَّ من كان هوداً﴾[1]

(١) سورة البقرة، آية: ١١١.

﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي فاطلبوا من الله أن يميتكم، واشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، فإن من أيقن بدخول الجنة، اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار.

قال تعالى ردّاً على كذبهم وافترائهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا، ولن يطلبوا ذلك بحالٍ من الأحوال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي والله عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك. وهذه الآية الكريمة من المعجزات، لأنها إخبار بالغيب، وكان الأمر كما أخبر، فلم يقع من أحد من اليهود، الذين كانوا في عصره عليه السلام، أنه تمنى الموت، ولو تمناه لمات، كما جاء في الحديث الصحيح «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار»[1].

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ أي ولتجدنَّ يا محمد اليهود، أشدّ الناس حرصاً على الحياة، لمعرفتهم بذنوبهم وإجرامهم، فلا تكاد تجد يهودياً يحبُّ الموت ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ أي ولتجدنهم أحرص من المشركين على الحياة، لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار، والمراد بالمشركين هنا مشركو العرب كفار مكة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ أي يتمنى الواحد من اليهود أن يعيش ألف سنة، والمراد بالألف هنا الكثرة أي يتمنى أن لا يموت، وأن يعيش في الدنيا خالداً مخلَّداً ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ أي ومهما عمَّر وطالت حياته، فليس ذلك بمبعده ولا منجيه من عذاب الله ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ البصيرُ: العالمُ بكنه الشيء، أي واللهُ عالم بخفيات أعمالهم، وهو مجازيهم بها لا محالة، وفيه وعيد شديد لليهود، مع القطع بخلودهم في النار.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن النبي ﷺ مرفوعاً، ورواه أحمد في المسند وانظر كمال الحديث في تفسير ابن كثير ١/ ١٣١ قال ابن كثير: ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاَّ مات.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾.

أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود، من كان عدواً لجبريل فإنه عدوٌّ لله، لأن الله أرسله بالوحي على رسله، فمن عاداه فقد عادى الله، والعدوُّ ضدُّ الصديق، يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، والمثنَّى والجمع، و «جبريل» اسم مَلَك كان ينزل بالوحي على رسل الله المقربين، فهو الأمين على وحي السماء كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[1] روي أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتحنونه، فقالوا: يا محمد نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها وأجبتنا عنها اتَّبعناك!! فأخذ عليهم العهد على ذلك، وقال لهم: سَلُوا عمَّا شئتم!! فسألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه، فقال: لحوم الإبل وألبانها، وسألوه كيف يأتي الولد له شَبَهٌ بأبيه أو بأمه؟ فقال: إذا علا ـ أي سبق ـ ماء الرجل ماءَ المرأة كان له شَبَهٌ بأبيه وكان ذكراً، وإذا علا ماء المرأة كان له شبه بأمه وجاءت به أنثى، وقالوا: أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه، قالوا: بقيت واحدة إن أجبتنا عنها اتبعناك، أخبرنا من يجيئك بالوحي من الملائكة؟ قال: جبريل عليه السلام، قالوا: جبريل؟ ذاك عدُوُّنا، لأنه ينزل بالحرب، والقتال، والعذاب، ولو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والخصب والمطر لاتبعناك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿قل من كان عدواً لجبريل...﴾[2] الآية. وهناك روايات أخرى، اتفقت كلُّها أن الآية نزلت بسبب قول اليهود:

---

(١) سورة الشعراء، آية: ١٩٣.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي، وقال: الترمذي: حسن غريب، وانظر الروايات في تفسير ابن كثير ١/ ١٣٤.

«جبريل عدونا، وميكائيل صديقنا» فأنزل الله الآيةَ ردّاً عليهم ذلك الضلال والبهتان، ثم قال تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين، نزَّل هذا القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله تعالى وإذنه وتيسيره، وخصَّ القلب بالذكر، لأنه موضع العقل، وموطن العلم، ومحل الفهم والحفظ، كما أنه عليه السلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فلذلك قال ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لأنه ﷺ كان يعتمد على حفظ القرآن عن ظهر قلب، والقلب هو محل الثبات والحفظ. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب الإلهية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية والإرشاد، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم، والبشرى أكثر ما تستعمل في الخير، ولا تجيء في الشرِّ إلاَّ مقيَّدة، كقوله سبحانه: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[1] وقوله: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾[2] ومقصدُ هذه الآية تشريف جبريل عليه السلام، وذمُّ من عاداه.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي من عادى الله عزَّ وجل، وملائكته الأبرار، ورسله الأطهار، فهو كافر عدوٌّ لله ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أي ومن كان عدواً على وجه الخصوص لجبريل وميكائيل، خصَّهما بالذكر مع دخولهما في لفظ ﴿وملائكته﴾ تشريفاً لهما، وتفخيماً لشأنهما[3]، فإنهما من سادة الملائكة، ومن الرؤساء الكبراء كمحمد وإبراهيم في الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ دفعٌ لليهود بالكفر، فإن معاداة أحد الملائكة، أو أحد الأنبياء، كفر بجميع الملائكة والرسل، لأنهم جميعاً مرسلون من عند الله، فمن كذَّب واحداً منهم فقد كذَّب الجميع، وكذلك من عادى بعضهم عادى الجميع.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١٣٨.

(٣) هذا كما يقوله أهل البيان من باب «ذكر الخاص بعد العام» للتعظيم والتشريف.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ ﴾ المراد بالبينات: الواضحات الدلالة على معانيها، والمعنى: لقد أنزلنا إليك يا محمد آياتٍ واضحات، دالات على صدق نبوتك، فإنك أميٌّ وهذا الكتاب الذي جئتهم به معجز، فنبوتك واضحة صادقة، لا تحتاج إلى برهان آخر غير القرآن ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أي ما يجحد بها وينكرها إلاَّ المتمرّدون من الكفرة، الخارجون عن الطاعة، الممعنون في الضلال.

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر محذوف، تقديره: أكذَّبوا بالآيات وهي في غاية الوضوح؟ وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ ﴾ وهم الذين كانوا يقولون قبل مبعثه عليه السلام: لئن خرج النبيُّ لنؤمننَّ به، ولنخرجنَّ المشركين من ديارهم وأوطانهم، وأصلُ النَّبذِ: الطَّرحُ والإلقاء، ثم استعمل فيما يُنسى ويُهمل، من أمور الدين الهامة. كقول الشاعر:

إنَّ الـذيـنَ أمـرتَهُـم أن يَعْـدِلـوا ... نَبَـذُوا كتـابَـكَ واسْتَحلُّـوا المَحْـرمـا

والمراد أن اليهود أخلفوا العهود، ولم يلتزموا بها، مع أنها موثَّقةٌ بالأيمان المغلَّظة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يصدّق بالتوراة التي أنزلت عليهم، فضلاً عن الإيمان بالقرآن العظيم، فلذلك

ينقضون العهود، ولا يفون بالمواثيق، وهذا في غاية الذمِّ لهم، والتشنيع عليهم، لأنهم لا يعدُّون نقض المواثيق ذنباً يؤاخذون عليه!!.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ذمَّهم تعالى على نقض العهود، التي أُمروا في التوراة بالوفاء بها، ثم ذكر طرفاً آخر من إجرامهم، وهو تكذيبهم لخاتم الرسل ﷺ، المذكور صفته في كتبهم، وقد أُمروا باتباعه، ومؤازرته، ونصرته، وكانوا ينتظرون بعثته بفارغ الصبر.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي ولمَّا جاءهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وهو الرسول الأمين المرسل من عند الله عزَّ وجلَّ بالكتاب المعجز ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدِّقاً للتوراة، وموافقاً لها في أصول الدين، ومقرِّراً لنبوة موسى عليه السلام وإنما ذكر في الآية ﴿مِنْ عِنْدِ الله﴾ أي مرسل من عند الله، لإفادة مزيد تعظيمه، إذ قدرُ الرسول على قدر المرسِل وهو الله رب العالمين جلَّ جلاله ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي طرح علماؤهم وأحبارهم التوراة، والمراد بهم اليهود الذين كانوا في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، طرحوا التوراة لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ، فجحدوا وأصرُّوا على إنكار نبوته ﴿ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ هذا مثلٌ يضربُ لمن يستخفُّ بالشيء فلا يعمل به، أي جعلوه نسياً منسياً، والعرب تقول: جعل هذا الأمر وراء ظهره، ودَبْر أذنه، إذا لم يلتفت إليه أصلاً ﴿ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من صفات ودلائل نبوته شيئاً، شبَّههم بمن لا يعلم، إذ فعلوا فعل

الجاهل الغبيِّ، فهم يتجاهلون عناداً، فقد كفروا على علمٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وهذا أقبح الكفر، وأعظم الضلال.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أخبر تعالى عن اليهود أنهم قوم مجرمون، يهجرون كتاب الله، ويلقونه وراء ظهورهم، ويتَّبعون ما تلقي إليهم الشياطين، من كتب السحر والشعوذة، وهذا حالهم مع رسالات الله وأنبيائه.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ معنى «تتلو» أي تحدّث وتروي، من التلاوة بمعنى القراءة، أي سلكوا طرق السحر والشعوذة، التي كانت تحدثهم بها الشياطين، في عهد ولاية سليمان عليه السلام ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي وما كان نبيُّ الله سليمان عليه السلام ساحراً، ولا كفر بتعلمه السحر، ولكنَّ الشياطين هم الذين علَّموا الناس طرق السحر، حتى فشا أمره بينهم، فنسبه اليهود إلى السحر. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تبرئةٌ من الله تعالى لسليمان، والمراد بالكفر هنا: «السحر» فإن اليهود ـ لعنهم الله ـ نسبوه إلى السحر، والسحرُ والعمل به كفرٌ، أو مؤدٍّ إلى الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي ما سحر ولا كان

ساحراً، إنما هو رسول، فعبَّر عن السحر بالكفر، لينبه على أنه كفر، وأن من كان نبياً فهو معصوم عنه.

روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان» في الأنبياء، قال بعض اليهود: ألا تعجبون لأمر محمد؟ يزعم أن «سليمان» كان نبياً!! واللهِ ما كان إلاَّ ساحراً، فأنزل الله ﴿وما كفر سليمان﴾[1] الآية.

فصل في السحر

واعلم أن السحر من قبيل التمويه والخداع، كما قال سبحانه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[2] وهو في عُرف الشرع: كلُّ أمرٍ خفي سببه، وجرى على غير حقيقته، كما أخبر سبحانه عن سحرة فرعون أنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[3] يعني موَّهوا عليهم، حتى ظنوا أن الحبال والعصيَّ تسعى، والساحر لا تقبل توبتُه ولا يستتاب، بسعيه في الأرض بالفساد، وقد عدَّه رسول الله ﷺ من الكبائر فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي ـ أي الهرب ـ يوم الزحف، وقذف المحصنات، المؤمنات الغافلات»[4].

والسحر ليس من الخوارق، لأنه مما يترتب على الأسباب، كالإسهال

---

(١) زاد المسير تفسير ابن الجوزي ١/ ١٢٠.

(٢) سورة طه، آية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١١٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الوصايا ٥/ ٢٩٤ ومسلم في الإيمان رقم ٨٩.

بعد شرب المسهل، وكالشفاء بعد تناول الدواء، ولم تجر سُنَّةُ الله تعالى بتمكين الساحر من فلْقِ البحر، وإحياء الموتى، وشفاء الأعمى، وغيرها من معجزات الرسل، صوناً لمنصب النبوة الجليل، وإنما السحر له ضرر وتأثير بإرادة الله عزَّ وجلّ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ و«حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف»[1] كما ورد في الحديث الشريف.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ «هاروت» و «ماروت» اسم لملكَيْن من ملائكة الله، أنزلهما الله إلى الأرض بصورة البشر، ابتلاءً منه سبحانه للناس، وتمييزاً بين السحر والمعجزة، لئلا يغتر بالسحر الناس، إذ السحرة كثرت في ذلك الزمان، فأرسلهما الله ليعلّما الناس خطر السحر، وطريق التخلص من السحر، ومعنى الآية: وكما اتبع رؤساء اليهود السحر، كذلك اتبعوا ما أنزل على الملكَيْن بمملكة «بابل» من أرض الكوفة بالعراق ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إنَّ الملكَيْن لا يعلّمان أحداً من الناس السحر، حتى يبذلا له النصيحة ويقولا له: إن هذا الذي نصفه لك، إنما هو امتحانٌ من الله وابتلاء، فلا تستعمله للإضرار بعباد الله، ولا تكفر بسببه والعمل به، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس نجا، ومن تعلَّمه ليؤذي به العباد هلك وضلَّ، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي يتعلمون منهما من السحر، ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، بأن يحدث الله بينهما التباغض والنشوز، بعد أن كانت المودة والمحبة بينهما، وهذا على حسب جري العادة الإلهية، من خلق المسببات عقب حصول الأسباب ابتلاء، ولهذا قال بعده ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما يستطيع هؤلاء السحرة، الإضرار بأحد من الخلق، إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وبإرادته وتمكينه، فقد يحدث الضرر وقد لا يحدث، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلمهم السحر، إنما يحصلون على الضرر

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود رقم ١٤٦٠ والحديث روي مرفوعاً وموقوفاً.

لا على النفع، لأن تعلم ما لا ينفع سفهٌ وجهالة، وهو غير نافع في الدارين، لأنه لا تعلق له بانتظام المعاش أو المعاد ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله، واستبدلوا به السحر، أن من آثر السحر على كتاب الله، ليس له حظٌّ ولا نصيب من رحمة الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم، لو كان لهم عقل وفهم، لما عرَّضوا أنفسهم للهلكة، ولما باعوها بما لا يزيدهم إلاَّ تباراً. أما الحكمة من تعليم الملكين للناس السحر، فهو أن السحرة كثروا في ذلك الوقت، واخترعوا فنوناً غريبة من السحر، وربما زعم بعضهم أنهم أنبياء يوحى إليهم، فبعث الله الملكَيْن ليعلّما الناس وجوه السحر، حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن هؤلاء المدعين للنبوة سحرة لا أنبياء، وكل هذا من ابتلاء الله للعباد كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالى الوعيد لليهود، أتبعه بالوعد، على عادة القرآن الكريم، في الجمع بين عنصري الترهيب والترغيب.

فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي لو أن هؤلاء اليهود، الذين تعلموا السحر ليفتنوا به الناس، آمنوا إيماناً صادقاً بالرسول والكتاب، وخافوا عذاب الله فكفُّوا عن الغي والضلال ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، ولأكرمهم الله بأنواع الكرامة، والمثوبة، والمثابةُ، والثواب بمعنى واحد،

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٥.

وهو الأجر والجزاء الحسن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان لهم فهم وإدراك، وهذه الجملة جارية على الأسلوب المعروف في فنون البيان، من أن العالم بالشيء إذا لم ينتفع بعلمه، يُنزَّل منزلة الجاهل به، ويُنفى عنه العلم كما يُنفى عن المتعامي البصر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصُّوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر، من ضروب خبثهم وشرهم، وهو ما يضمرونه للنبي والمؤمنين من الحسد والحقد والبغضاء، وتمني زوال النعمة، وما كانوا يقولونه من كلمات السبِّ والشتيمة، يتظاهرون بأنهم يريدون بها الخير والتكريم، كقولهم «راعنا» يقصدون بها الرعونة، التي هي الجهلُ والحمقُ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال هذه الكلمة سداً للذريعة، بقوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي يا أيها المؤمنون لا تقولوا في خطابكم للرسول: راعنا ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي قولوا عوضاً عنها: انتظرنا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي واسمعوا سماع قبول، فأطيعوا أمر الله وأمر رسوله، ولا تكونوا كاليهود الذين قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولليهود الكفار، الذين توصلوا بقولهم المذكور «راعنا» إلى شتم الرسول ﷺ عذابٌ وجيع، يصلُ وجعُه إلى قلوبهم!.

وكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ في معناها الأساسي أصلها من «الرعاية» وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرَّفها اليهود اللعناء فجعلوها كلمة مسبَّة من

«الرعونة» وهي الجهل والحمق، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون إرادة الرعونة، فلذلك نهي عنها المسلمون. روي أن «سعد بن عبادة» رضي الله عنه سمعها منهم، فقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجلٍ منكم، يقولها لرسول الله عليه الصلاة والسلام، لأضربنَّ عنقه!! قالوا: أولستم تقولونها لنبيكم؟ فنزلت الآية ﴿لاتَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ونُهي عنها المؤمنون، قطعاً لتدليس اليهود الخبثاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ما يحبُّ الكافرون من اليهود والنصارى، ولا المشركون الوثنيون من العرب «عبدةِ الأوثان» أن يتنزَّل عليكم يا معشر المؤمنين شيء من الخير، لشدة بغضهم وحسدهم لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي والله سبحانه يمنح فضله ونعمته ـ ومنها النبوة والرسالة ـ لمن شاء من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي والله واسع الفضل والإحسان، فلا يظن اليهود والنصارى أنهم أحقُّ بالنبوة من العرب لأنهم أهل كتاب، ولا يظن المشركون أنهم أحقُّ بالوحي من محمد ﷺ لأنهم أغنياء وهو فقير، كما كانوا يقولون: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] وقولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدَاً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣١.
(٢) سورة سبأ، آية: ٣٥.

روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد، يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه؟ ما يقول ذلك إلاّ من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فما هذا القرآن إلاّ من كلام محمد!؟ فأنزل الله عزَّ وجل الآية مبيناً الحكمة من النسخ بقوله:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ أي ما نبدِّل حكمَ آيةٍ فنغيّره بآخر، على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي أو نمحها من قلبك يا محمد ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي نأت بما هو أصلح وأنفع لكم أيها المؤمنون، في العاجل أو الآجل، إمَّا برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم.

ونسخُ الآية بيانُ انتهاء التعبد بقراءتها، أو نسخُ الحكم المستفاد منها، وكلُّ ذلك مبنيٌّ على علم وحكمة، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟ أي ألم تعلم أيها المؤمن العاقل، أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسانٍ للعباد؟.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى هو المالك المتصرف في شؤون الخلق، له ملك كل ما في السمٰوات والأرض، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد؟ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي وما لكم أيها المؤمنون وليٌّ يرعى شؤونكم، ولا ناصر ينصركم غير الله تعالى، فهو نعم الناصر والمعين، والمقصود من الآية التسكينُ لقلوب المؤمنين، بأنَّ الله وليُّهم وناصرهم دون غيره، فلا يجوز الاعتماد إلاَّ عليه، ولا يصحُّ الالتجاء إلاَّ إليه، ولا ينبغي للمؤمن أن يصغي إلى أقاويل أهل الكفر والضلال، في أمر نسخ الآيات والأحكام، فإن مقتضى الإيمان بعلم الله، وقدرة الله، وحكمة الله، الإيقان والجزم بأنه تعالى لا يفعل بهم إلا ما هو خير لهم. ثم حذَّر تعالى المؤمنين، من مجاراة اليهود في تعنتهم واقتراحاتهم على أنبيائهم ورسلهم فقال سبحانه: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي بل أتريدون

يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم، كما سأل قوم موسى نبيَّهم من قبل، ويكون مثلكم مثل اليهود، الذين قالوا لرسولهم موسى: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» فتضلُّوا كما ضلُّوا؟ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي ومن يختر الكفر بدل الإيمان، ويستبدل الضلال بالهدى ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فقد عدل وجار عن الطريق المستقيم، وضلَّ طريق الهدى الموصل إلى جنات النعيم. والغرضُ من الآية توصية المسلمين بالثقة برسول الله ﷺ وترك الاقتراح عليه بشيء من الأمور، فالأصل في المسلم الإذعان والتسليم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم أخبر تعالى عمَّا يضمره أهل الكتاب للنبيّ والمؤمنين، من ضروب الكيد، والحسد، والبغضاء، وتمني زوال النعمة عن المسلمين، وذلك ليحذروهم ويجتنبوا طريقهم، فليس عند أعداء الله «اليهود والنصارى» إلاَّ كل خبث وسوء وكيد للمؤمنين، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبَّ وتمنى كثير من اليهود والنصارى، أن يصرفوكم عن الإيمان والتوحيد، وأن يجعلوكم من بعد إيمانكم كفاراً، مرتدين عن دينكم، بعد أن هداكم الله للدين الحق ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسداً منهم لكم، منبعثاً من نفوسهم الخبيثة التي تكرهكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة، أنكم على هدى، وأن دين الإسلام هو الحق، والحسدُ: تمني زوال النعمة عن المحسود، وهو مرض قلبي

خطير، يعصف بدين المرء، كما قال المصطفى ﷺ: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ، والبَغضاءُ، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعَر، ولكنْ تحلق الدِّينَ»[1] ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ العفوُ: تركُ عقوبة المذنب، والصفحُ: تركُ تأنيبه، والمراد ترك المقابلة، والإعراض عنهم، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت، لا العفوِ على وجه الرضا، ولذلك لم يأمر سبحانه بذلك على الدوام، بل علقه بغاية، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذن في قتالهم، وفيه إشعارٌ بالانتقام من الكفار، ووعدٌ للمؤمنين بالنصرة، وتهديد لمن يخالف أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم، إذا حان حينه، فهو تعليلٌ لما قبله.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطف على ﴿فاعفوا﴾ كأنه أمرهم بالصبر، والمخالفة، واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة، لأنها تدفع عنهم ما يكرهون ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة، وصدقة، وغيرهما. أيْ أيَّ شيءٍ من الخيراتِ تقدمون لأنفسكم ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ثوابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عملٌ، وهو وعد للمؤمنين، وعبّر عن «علمه» تعالى بالبصر، لأن أعمال البشر كلها كالمبصرات، بالنسبة إلى علمه سبحانه وتعالى، حيث يعلم الصغير والكبير، والفتيل والقطمير.

ثم أخبر تعالى عن عقائد اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود، وكلٌّ منهم يلعن الآخر، وفي ذلك يقول سبحانه:

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٥١٢.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، جمع الله بين قولَيْ الفريقين ثقةً بفهم السامع، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارىٰ عَلَى شَيْءٍ﴾ فكلٌّ منهما يكفِّر الآخر، ولمّا كانت أقوالهم كلها كاذبة باطلة، في ادعائهم أن الجنة خاصة بهم، جمع الله أقوالهم، وردَّ عليهم جميعاً، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ﴾ أي تلك مزاعمهم، ورغباتهم الفاسدة، وشهواتهم التي يتمنونها، وليس لها في الواقع ظلٌّ من الحقيقة ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي قل لهم تسفيهاً وتكذيباً لما زعموه: أَحضِرُوا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة لليهود، أو للنصارى؟! وفي هذا تسفيهٌ للفريقين في مزاعمهم الباطلة.

ثم قال تعالى تكذيباً لهم: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي بلى يدخل الجنة، من استسلم وخضع لله، وأخلص نفسه لرب العالمين، لا يشرك به شيئاً، وليس الأمر كما تزعمون، أن الجنة لا يدخلها إلا اليهودي أو النصراني!! والوجه يُطلق ويراد به ذات الإنسان، كقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وإنما عبَّر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر والحواس، وموضع السجود، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء،

والمراد بإسلام الوجه: الإقبال على عبادة الله، وجعل توجهه إليه سبحانه بجملته وبالكلية، ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مع تسليم نفسه، وإخلاصه لربه، مؤمنٌ مصدِّقٌ متَّبعٌ لرسول الله ﷺ، فلا بدَّ في كل عبادةٍ صادقة من أمرين هامين: الإخلاص لله، وأن يكون عمله موافقاً لطريقة رسول الله ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي فله ثواب عمله عند ربه، لا يضيع منه شيء، والعندية للتشريف، وإظهار مزيد اللطف بالعبد ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ولا خوف عليهم في الآخرة، ولا يعتريهم حزن ولا كدر، لأنهم في نعيم مقيم، في دار الخلد والكرامة.

ثم أخبر تعالى عن ضلال اليهود والنصارى، وتكفير بعضهم لبعض في الدنيا، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي قال اليهود عن النصارى: ليسوا على دين صحيح معتدٍّ به، مقبولٍ عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل مقالتهم: ليس اليهود على دين صحيح، مقبول عند الله، فدينهم باطل، ونهايتهم إلى نار الجحيم ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي والحال أن كلاً من الفريقين، يقرأ التوراة والإنجيل، ويعلم أن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، من لوازم الإيمان، فقد كفَّر بعضهم بعضاً عن علم، لا عن جهل ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال الوثنيون الجهلة «مشركو العرب» مثل قول أهل الكتاب، قالوا: إن دين الإسلام باطل، ومحمد ليس برسولهم، فقد اجتمعت آراء أهل الضلال على مذهب واحدٍ، يقولون لأهل كل دين: ليسوا على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فالله يحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العادل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويُظهر الحقَّ ويُزهق الباطل. روي في سبب نزول هذه الآية، ما رواه ابن كثير عن ابن عباس أنه قال: «لمَّا قدم أهلُ نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار اليهود ـ أي أكابر علمائهم ـ فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم يا معشر النصارى على شيء من الدين، وكفر

بعيسى وبالإنجيل، وقال قسيس من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفر بموسى وبالتوراة، فأنزل الله عزَّ وجلّ ﴿وقالتِ اليهودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلَى شَيْءٍ..﴾ الآية[1].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ عام لكل من فعل ذلك، في أي مسجد كان، وإن كان سبب النزول في مسجد مخصوص، ومما يدلُّ على أنه عام في سائر المساجد، إطلاقه ذلك، واختلف في سبب النزول، فقال الحسن وقتادة: نزلت في بختنصَّر المجوسي، خرَّب بيت المقدس، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه، وعن ابن عباس أنها نزلت في مشركي العرب، لأنهم منعوا المسلمين، عن ذكر الله في المسجد الحرام، وظاهرُ الآية العمومُ، وخصوصُ السبب لا يمنعه ﴿ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ كنَّى بذكر الله تعالى، عما يحصل في المساجد من الصلاة، ومجالس العلم المأذون بفعلها، ومدارسة القرآن، واليهود كانوا سبباً لتخريب بيت المقدس، بعصيانهم، وقتلهم الأنبياء عليهم السلام، ولا يراد بالاستفهام حقيقته وإنما هو بمعنى النفي، فيؤول إلى الخبر، أي لا أحد أظلم من ذلك، واستشكل بأن هذا اللفظ ﴿ومن أظلم﴾ قد تكرَّر في القرآن والكلام خرج مخرج المبالغة، في التهديد والزجر ﴿ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ أي عمل في خرابها بالهدم، أو بتعطيلها من العبادة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ أي ما كان ينبغي

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٠.

لهم أن يدخلوها إلاَّ بخشيةٍ، وخشوع، فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو إلاَّ خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، وفيه وعد للمؤمنين بالنصرة، وتخليص المساجد من الكفار، وقد أنجز الله وعده، ونصر عبده ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم، أشد ممّا لهم في الدنيا.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له سبحانه الأرض كلّها، لا يختص به مكان دون مكان، فإنْ مُنِعْتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ ففي أيِّ مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي هناك جهته التي أمركم بها، ورضيها لعباده، وفي هذا تسلية للمؤمنين بجعل الذكر، والصلاة في جميع الأرض، وفي الحديث الصحيح «وجعلت ليّ الأرضُ مسجداً وطهورا»[1]. و﴿ثَمَّ﴾ بالفتح اسم إشارة إلى مكان مبني على الفتح، ولا يتصرف سوى الجر بمن فيقال: مِنْ ثَمَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته، يريد التوسعة على عباده، فلذا وسَّع عليكم القبلة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها. عن ابن عمر قال كان ﷺ يصلي وهو مقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[2].

---

(١) هذا طرفٌ من حديث أخرجه البخاري ١/ ٣٧٠ في التيمم، ومسلم في المساجد رقم ٥٢١ ولفظه: «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً. .» إلى آخر الحديث.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٧٠٠ ورواه البخاري رقم ١١٠٥ وليس فيه جملة «وفيه نزلت ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله﴾ وروى الترمذي روايةً أخرى في سبب نزول هذه الآية، فأخرج عن عامر بن ربيعة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، في ليلةٍ مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلّى كلُّ رجل منا على حياله ـ أي تلقاء وجهه ـ فلمَّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجهُ الله﴾» سنن الترمذي ٥/ ١٨٨.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لمّا قالت اليهود: «عزير ابنُ الله» والنصارى «المسيحُ ابنُ الله» ومشركو العرب «الملائكة بناتُ الله» ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه، والحاجة، وسرعة الفناء، والسببُ في ضلالهم أن أرباب الشرائع المتقدمة، كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه هو السبب الأول، ثم ظنَّت الجهلةُ منهم أن المراد منه معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كُفر قائله، ومُنع منه مطلقاً، حسماً لمادة الفساد.

والنصارى في التسمية فريقان ١ ـ منهم من قال: عيسى حقيقةً ولدُ الله ٢ ـ ومنهم من قال: اتخذه ولداً، كإبراهيم خليل الله، فنفى الله تعالى الأول بقوله ﴿لم يلد﴾ والثاني بقوله ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ ولهذا قال بعد ذلك ﴿سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ردٌّ لما قالوه، واستدلال على فساده والمعنى: تقدَّس اللهُ وتنزَّه عمَّا قاله أولئك السفهاء تنزهاً بليغاً، فإنه تعالى خالق جميع ما في السموات والأرض، التي من جملتها: الملائكةُ، وعزيرٌ، والمسيح ابن مريم، فكيف يكون له ولد، وكلُّ ما في الكون خلقه وعبيده؟ ثم إن الولد يكون عن حاجة، ولا بدَّ أن يشبه أباه، وكل ذلك ممتنع على الله عزَّ وجلّ، فإنه الغنيُّ المطلق، المنزَّه عن مماثلة المخلوقات، ولمَّا كانت الدعوى خطيرة، بدأ الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزَّه الله كلَّ التنزه، عن مثل تلك المزاعم الباطلة الكاذبة، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي كلُّ ما في السموات والأرض، منقادٌ لأمر الله، لا يستعصي شيء منهم، على مشيئته وتكوينه.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقها ومبدعها على غير مثالٍ سابق، وهذه حجةٌ ثانية لإبطال مقالتهم الشنيعة، فإذا كان الله مبدع الأشياء كلها،

وليس له مثيل ولا شبيه من مخلوقاته، وقد خلق السمٰوات والأرض ـ وهي أعظم من خلق الإنسان ـ فكيف لا يقدر على خلق عيسى، من أم بدون أب؟ ولهذا قال بعده ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي وإذا أراد إيجاد شيء من الأشياء، حصل من غير امتناع ولا مهلة، لأنه سبحانه يقول له كن فيكون، أي أُحدثْ فيحدثُ، من غير تأخر ولا تباطؤ، وفي الآية تقرير لمعنى الإبداع، وتلويح لحجةٍ أخرى، وهي أنه تعالى لو أراد الولد ـ وتنزَّه الباري عن ذلك ـ لما احتاج إلى ما زعموه من اتخاذ زوجة!!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي وقال جهلة المشركين وهم كفار مكة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ لولا بمعنى هلاَّ، أي هلاَّ يكلمنا الله مشافهة، أو تأتينا بحجة ساطعة على صدق نبوتك؟! والأول منهم استكبار، والثاني جحود وعناد، فقد بلغوا من العتوّ، أن يطلبوا مرتبة المفاوضة الإلهية، دون وساطة مَلَك أو رسول، ومن الجحود والعناد أن يعتبروا جميع ما جاءهم به الرسول ﷺ من المعجزات الساطعات، والآيات البينات، من قبيل الأساطير، ولهذا يطلبون معجزات أخرى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك القول الباطل الشنيع ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الماضية، كقولهم ﴿اجْعَلْ لنَا إلَهاً كَمَا لهمْ آلِهَةٌ﴾[1] و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنَ ينزِّلَ عَلَيْنَا مائِدَةً﴾[2]؟ ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا البهتان ﴿تَشَٰبَهَتْ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨.
(٢) سورة المائدة، آية: ١١٢.

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم، في العَمَىَ والعناد، والتشابُه: أن يُشبَّه كل واحد من الشيئين بالآخر، كقول الشاعر:

رقَّ الـزُّجـاجُ وَرَقَّـتِ الخَمْـرُ فَتَشَـابهـا فَتَشَـاكَـلَ الأمـرُ
فكـأنـه خمـرٌ ولا قَـدَحٌ وَكـأنَّـه قَـدَحٌ ولا خَمْـرُ

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي وضَّحناها لقومٍ يطلبون اليقين الصادق، لا يعتريهم شبهة ولا عناد، وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك، الخفاء في الآيات، وإنما قالوه عُتُوّاً أو عناداً، والمراد من الآيات، الآيات القرآنية، الدالة على نبوته ﷺ، وما جاءهم به من المعجزات الباهرات، وفي تعريف الآيات وجمعها، وإيراد التبيين مكان الإتيان، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى: إنهم اقترحوا آيةً فذَّة، ونحن قد بيَّنَّا الآيات العظام، لقوم يطلبون الحقَّ واليقين، وإنما لم يتعرض لرد قولهم ﴿لَولاَ يُكَلمُنَا الله﴾ إيذاناً بأنه منهم أشبهُ بكلام الأحمق، وجوابُ الأحمق السكوت.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً ومؤيداً به، وفُسِّر الحقُّ بالقرآن، وبالإسلام، وبقاؤه على عمومه أولى، والمعنى: نحن يا محمد أرسلناك بالشريعة النيِّرة، والدين القويم، وبالهدى الساطع، والحق المبين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي تبشر المؤمنين بجنات النعيم، وتنذر الكافرين بعذاب الجحيم، وأكثر ما يستعمل الإنذار في التخويف، والبشارة بالخبر السارّ ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي ولست يا محمد مسؤولاً عن أصحاب النار إن لم يؤمنوا، بعد أن أدَّيت الأمانة، وبلغت الرسالة!! والجحيمُ: المتأجّجُ من النار، وفي التعبير عنهم «بأصحاب الجحيم» دون قوله عن الكفار والمشركين، للإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم، لا يُرجى منهم خير ولا إيمان، وفي الآية وعيد شديد لأولئك المجرمين.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

بعد أن بيَّن تعالى ضلالات أهل الكتاب والمشركين، نبَّه رسوله ﷺ إلى أن اليهود والنصارى أعداء ألداء لدين الإسلام، لن يرضوا عن أحدٍ من المسلمين، حتى ينسلخ عن دينه، ويتبع دينهم الأعوج.

فقال سبحانه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ أي ولن يرضى عنك اليهود والنصارى، مهما توددت لهم، حتى تترك الإسلام الواضح النيِّر، وتتبع دينهم الباطل المحرَّف، وفي الآية مبالغةٌ في إقناط الرسول عليه الصلاة والسلام من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتَّبع ملَّتهم وهذا أمر مستحيل، فكيف يتَّبعون هم ملَّته؟ قال الله عزَّ شأنه ذلك له، لأنه عليه السلام كان شديد الحرص على إيمانهم، حيث كان يتلطف معهم ليسلموا، فأخبره تعالى أنهم لن يرضوا عنه، ما دام مستمسكاً بالإسلام، حتى يدخل في دينهم، ويترك دينه الحنيف، وإنما وحَّد الملَّة، مع أن ملَّة اليهود، غير ملّة النصارى، فكان السياق يقتضي أن يقال: حتى تتَّبع ملَّتهما، للتنبيه على أن الكفر ملَّةٌ واحدة، ومعنى الملَّةِ: الدينُ، وهي خاص لا تُستعمل إلا في الشرائع، فلا يقال: ملة العصر، ولا ملَّة الدهر ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ ﴾ وهذا صريح في أن ما وقع كان جواباً لما قالوه: ﴿كُونُوا هُودًا أو نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ أي قل رداً عليهم: إنَّ هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى الحقُّ، ليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوىٰ، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي آراءهم الزائفة، الصادرة عنهم بشهوات أنفسهم، وأمَّا ما شرع الله لهم، على لسان الأنبياء، فقد غيّروه وبدَّلوه، وفي صيغة الجمع ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾

إشارة إلى كثرة الاختلاف بينهم ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحتُه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ جواب القسم، أي من جهته العزيزة ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يلي أمرك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عِقابه، وهذا من باب التَّهييج والإلهاب، وإلاَّ فأنى يتوهم إمكان اتباعه ﷺ لملَّتهم؟ وقيل: الخطابُ للرسول والمراد به أمته[1]، لأن من عادات الناس أن يوجّهوا أمرهم ونهيهم إلى من هو أعظم درجةً بينهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله ابن سلام، وقيل هم أصحاب النبي ﷺ والكتابُ: القرآنُ، وقيل المؤمنون عامة ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاةِ اللفظ، عن التحريف، والتدبر في معناه، والعمل بمقتضاه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب، وتلاوته ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بكتَابهم، دون الأشرار المحرفين لكتاب الله، فإنهم بمعزلٍ عن الإيمان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي ومن يكفر بالكتاب المنزَّل، الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان، فخسروا سعادة الدارين.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

تقدَّم تفسير هذه الآيات، ومعنى تفضيلهم على العالمين، أن بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وتمسكوا بالتوراة، هم أفضل عالمي زمانهم،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ١/١٦٨: وفي الآية تهديدٌ ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة ـ عياذاً بالله من ذلك ـ فإن الخطاب مع الرسول، والأمرُ لأمته، وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله تعالى ﴿حتى تتَّبع ملَّتهم﴾ حيث أفرد الملة، على أن الكفر كلَّه ملَّةٌ واحدة.

لا أنَّهم أفضل العالمين على الإطلاق، لقوله تعالى في أمة محمد ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وإنما كرَّر النداء لبني إسرائيل، وأمرهم بذكر النعم، مبالغة في النصح والتذكير، وإيذاناً بأنه مضمون القضية، والمقصود من القصة، حتى لا يغفلوا عن طاعة الله.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

الابتلاء في الأصل: التكليفُ بالأمر الشاق، ومعناه: الامتحان والاختبار، مشتق من البلاء كما قال سبحانه: ﴿ونَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ ﴾ فيه تقديم المفعول على الفاعل، للاهتمام بشأن المبتلَىٰ أي المختبر، وهو إبراهيم أبو الأنبياء، الذي يقرُّ جميع أهل الأديان بفضله، والمعنى: اذكر يا محمد حين اختبر اللهُ عبده ورسوله إبراهيم الخليل، وامتحنه بأنواع من الامتحان الشاق، والمراد بالكلمات هنا ما ابتلاه به من وجوه المحن، وكلَّفه من أنواع التكاليف الشرعية، منها: فراق قومه في الله حين أُمر بمفارقتهم، وصبره على قذفهم له بالنار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أُمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه، ومحاجة نمرود في الله، فهذا أصحُّ ما نُقل عن ابن عباس، في الكلمات التي امتحنه الله بها، كما ذكره السيوطي في الدُّر المنثور[1] ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتى بهن على وجه الكمال والتمام، وقام بهنَّ حقَّ القيام. قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ والابتلاء إنما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور، وأمَّا من العليم الخبير، فإنه لإظهار الطائع من العاصي. حكى الله سبحانه عن

(١) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٢٥.

إبراهيم أموراً، فإنَّ إبراهيم عليه السلام شخصٌ يعترف بفضله جميع أهل الملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضله، ومتشرفين بأنهم من أولاده، وأهل الكتاب أيضاً مقرون بفضله ومتشرفون بأنهم من أولاده، ويدَّعون أنهم على دينه وملته، فبيَّن اللهُ عزَّ وجلّ أن هدى الله هو ما عليه الرسول ﷺ من التوحيد، والإسلام، الذي هو مِلة إبراهيم، وأن ما يدَّعيه أهل الكتابين أهواءٌ زائفة، ودعاوى كاذبة، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والجعل بمعنى التصيير، أي إني جاعلك قدوة للناس، ومناراً يهتدي بك البشر، والإمام اسم لمن يؤتم به، وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يُبعث بعده نبيٌّ، إلا كان من ذريته، مأموراً باتّباعه ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ خبرٌ في معنى الطلب، وكان أصله: واجعل يا رب بعض ذريتي أئمة، عدل عن صيغة الأمر مراعاةً للأدب، والذرية نسلُ الرجل، من الذر بمعنى التفريق، والمرادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الآباءُ والأولاد، أصلها الأولاد الصغار، ثم عمت الكبار. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتمسه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة، لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه دليل على عصمة الأنبياء، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة، والمتبادر من العهد الإمامة، وليست هي هنا إلاَّ النبوة، وعبَّر عنها به، للإشارة إلى أنها أمانة الله تعالى، لا يقوم بها إلا من شاء الله من عباده، والمتبادر من «الظالم» الكفر، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَالكَافِرونَ هُمُ الظَالِمُونَ﴾[1].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٤.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الثريا وليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه بكونه أمناً، وهذا صفة جميع الحرم، كما في قوله تعالى: ﴿هَدْيَاً بالِغَ الكَعْبَةِ﴾ والمراد الحرم، لأنه لا يُذبح في الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي مرجعاً يثوب إليه الزوَّار ويرجعون، من ثاب يثوب إذا رجع، وقال ابن عباس: ﴿مَثابَةً﴾ ملجأً، والتاء فيه للمبالغة كالعلاَّمة ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمَاً آمِناً﴾ أو يأمن حاجُّه من عذاب الآخرة من حيث إن الحجَّ يهدم ما قبله، ولا يؤخذ الجاني، الملتجىء إليه، حتى يخرج وهذا مذهب أبي حنيفة، كمن قتل أو سرق في الحل، ثم دخل الحرم فإنه لا يؤذى حتى يخرج، فيؤخذ، ويجوز إرادة العموم بالأمن في الدنيا والآخرة ولم يذكر للناس هنا إشارة إلى العموم، حتىٰ الحيوانات والنباتات، ولا يمكن أن يكون المراد، الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم، لأنا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً قد يوجد القتل المباح، قال الله تعالى ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتّى يُقاتِلُوكُم فيه فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ عن ابن عباس قال: قال ﷺ يوم فتح مكة «إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى، إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلاَّ ساعةً من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكُه، ولا يُنفَّر صيدُه، ولا تُلتقط لقطته إلاَّ لمَنْ عَرَّفها، ولا يُختلى خلاه[1]، فقال العباس يا رسول الله إلاَّ الإذخر، فإنه لِقَيْنِهمْ ولبيوتهم، فقال: «إلاَّ الإذخِر»[2] ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ

---

(١) لا يُختلى خلاه: الخَلَىٰ: الرطب من المرعىٰ، أي لا يُقطع نباته الرطب.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ٤/ ٤٠ ومسلم برقم ١٣٥٣ في الحج أيضاً باب تحريم مكة وصيدها، والقيْنُ: الحدَّادُ والصائغ، أي يحتاج إليه الحداد، ويحتاج إليه الناس لسقوف البيوت.

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أي وقلنا اتخذوا مصلّى عند مقام إبراهيم أي صلّوا فيه، والخطابُ لأمة محمد ﷺ و«من» للتبعيض، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدميه، الذي وقف عليه حين رفع قواعد البيت، وفي فتح الباري: المقامُ من عهد إبراهيم لزيق البيت إلى أن أخّره عمر رضي الله عنه إلى المكان الذي هو فيه[1] وقيل: «مقام إبراهيم الحرم كلُّه»، والقول الأول أولى، لحديث جابر رضي الله عنه، فقد روى جابر أنه ﷺ لمّا فرغ من طوافه، عمد إلى مقام إبراهيم، فصّلى خلفه ركعتين، وقرأ ﴿وَاتَّخِذوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي أمرناهما ووصيناهما وقلنا لهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ بأن طهِّرا، يريد طهِّراه من الأوثان، والأنجاس، وما لا يليق به، وإضافةُ البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف، كناقة الله، وتوجيه الأمر ههنا إليهما لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم عليه السلام، فإن ذلك قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأنا لإِبْراهِيمَ مَكانَ البيت﴾[3] وكان إسماعيل عليه السلام صغيراً، بمعزل من مقام الخطاب، والظاهر أن هذا بعد بلوغه وتمام البناء ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله، والمراد كل من يطوف من حاضر وباد، وقال ابن جبير: المراد الغرباء ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، والمعتكفين فيه، وفي سورة الحج ﴿والقَائِمِيَن﴾ والمراد المقيمون، وغاير بينهما جرياً على عادة العرب، من تفننهم في الكلام ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي المصلين جمع راكع، وساجد أي أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند قوي.

(٢) هذا طرف من حديث جابر بن عبد الله في بيان حجة النبي ﷺ رواه مسلم في كتاب الحج رقم ١٢١٨ وفيه: فجعل المقام بينه وبين البيت، أي صلى خلف مقام إبراهيم، وكان يقرأ في الركعتين ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه. .» الحديث.

(٣) سورة الحج، آية: ٢٦.

فإنَّ عبادة غير المؤمنين، من قبيل تلويثه وتدنيسه، كما قال سبحانه: ﴿وما كانَ صلاتهم عند البيتِ إلاَّ مُكاءً وتصْدِيةً﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴾ يريد البلد أو المكان، وهو إشارة إلى الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذُرِّيتي بَوَادٍ﴾[2] أي اجعل هذا المكان القفر ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي أهله، أي اجعل أهله آمنين، طلب من الله نعمة الأمان، لأنها أعظم أنواع النعم، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلاَّ بها، وهل الأمن من الجبابرة، أو من الخسف، أو من القحط، فيه أقوال للعلماء، واختلف في أن مكة هل كانت آمنة قبل دعوة إبراهيم، أو صارت بدعوته آمنة؟ فقيل إنها كذلك أبداً لقوله ﷺ: «إن الله حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض»[3] الحديث، وقال آخرون: إنها صارت أمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام بدليل قوله ﷺ: «اللهم إنَّ إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرَّمتُ المدينة»[4]. ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ خصهم بالدعاء إظهاراً لشرف الإيمان، ومراعاةً لحسن الأدب، وفيه ترغيب لقومه بالإيمان، كما أن حكايته ترغيبٌ وترهيبٌ لقريش وغيرهم وقولُه ﴿من الثمرات﴾ أي من أنواعها، بأن تجعل بقربِ منه قُرىً، يحصل فيها ذلك كالطائف، أو يجيء من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية،

---

(١) سورة الأنفال آية: ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

(٣) الحديث تقدَّم بكماله وهو في الصحيحين، وانظر صفحة ١٥٢ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٣٦٢ في كتاب الحج باب فضل المدينة.

في يوم واحد. قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أيضاً ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي متاعاً قليلاً، وزماناً قليلاً، فأرزقه في الدنيا، إلى منتهى أجله، وذلك قليل بالنسبة للآخرة، لأنه ينقطع، ونعمةُ المؤمن في الدنيا، موصولةٌ بالنعمة في الآخرة ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي أُلْجِئُهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ لكفره، وتضييعه ما متعه به من النعم، والاضطرار: ضدُّ الاختيار، وهو أن يُكْره على الشيء من غير اختياره، كمن اضطر لأكل الميتة أو لحم الخنزير، والمضطر هو الذي لا يملك الامتناع عمَّا اضطُر إليه، والمراد به هنا الإلجاء إلى دخول النار الموقدة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر نارُ الجحيم. قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فنبَّهه تعالى على أن الرزق رحمةٌ دنيوية، شاملة للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، بخلاف النبوة والإمامة فإنها نعمة خاصة لا تكون إلاَّ لمن آمن بالله، واستقام على شرعه المبين.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي اذكر يا محمد ذلك الحدث العجيب، وقت رفع إبراهيم، وولده إسماعيل، قواعد البيت العتيق، ورفعُ القواعد كنايةٌ عن البناء، وأتى بصيغة المضارع ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حكايةً عن الماضي، وهو وجه معروف في أساليب البيان، لاستحضار الصورة الماضية، وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان الآن بالبناء، وهما يدعوان الله عزَّ وجلّ بهذه الدعوات المباركات ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي تقبل منا عملنا هذا، واجعله خالصاً لوجهك الكريم، فإنك أنت يا رب السميع لدعاء من

دعاك، العليم بأحوالنا ونيَّاتنا. وشرفُ البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إيَّاه بيته، لا لفضل أحجاره عن سائر الأحجار، وقد أفصح عن هذا المعنى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه حين قال عند استلامه للحجر الأسود، وتقبيله له: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبِّلكَ ما قبَّلتُك»[1]!! وهذا غاية ما يقصده المخلصون.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصَيْنِ لك، من أسلم وجهه أي أخلص القصد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص، والثبات عليه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصا الذرية بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي عرِّفنا وعلِّمنا مواضع نسكنا، وشرائع متعبداتنا في الحج، والنسك في الأصل: غايةُ العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة، والبعد عن العادة، ومناسكُ الحج عباداته، وقيل: مواضعُ العبادات، كمنى، وعرفات، ومزدلفة، والمعنى: علّمنا كيف نعبدك؟ وأين نعبدك؟ وبماذا نتقرب إليك؟ أجاب الله دعاءهما، وبعث جبريل عليه السلام، فأراهما المناسك، فقال أعرفت يا إبراهيم؟ فقال نعم، فسمي ذلك عرفة، والموضع عرفات ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وتب علينا يا رب، واعف عمَّا فرط منا، فإنك عظيم المغفرة، واسع الرحمة، لا يخيب من دعاك، و «تَوَّابٌ» من صيغ المبالغة، أُطلق عليه تعالى لكثرة توبته على عباده، وكثرة قبوله توبة المذنبين، وهو تعليلٌ للتوبة، ومزيد استدعاء للإجابة، وإذا أراد العبد أن يُستجاب له، فلْيدعُ اللهَ عزَّ وجلّ بما يناسبه من أسمائه وصفاته، كما جاء في دعاء إبراهيم الخليل.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي ربنا وابعث في هذه الأمة المسلمة،

---

(١) انظر تمام الحديث في صحيح مسلم في كتاب الحج رقم ١٢٧٠.

رسولاً من أنفسهم من العرب ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن المجيد ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي ويعلم الأمة الإسلامية ـ وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة ـ القرآن العظيم، والسُنّة النبوية المطهرة، فالمراد بالحكمة السنة المطهَّرة، لأن بها تكميل نفوس المؤمنين، وإذا قرنت الحكمة بالقرآن، أريد بها سنته ﷺ المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك وعبادة الأوثان ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ «العزيزُ» أي الغالبُ الذي لا يُقهر ولا يُغلب «الحكيمُ» أي الذي لا يفعل إلاّ ما تقتضيه المصلحة والحكمة. وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فبعث محمداً ﷺ من ذريتهما، وختم به الرسالات السماوية، فلم يبعث من ذريتهما غير النبي عليه السلام، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمّي التي رأت حين وضعت بي، أنه قد خرج منها نور ساطع، أضاءت له قصور الشام»[1].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ۖ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم ، وقصة بنائه للبيت العتيق، منار الإيمان والتوحيد، ذكر بعده سفه من خالف دينه وشرعه، وهو أبو الأنبياء وإمام الموحدين.

فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم، وملته الحنيفية السمحة، إلاّ من استخفَّ نفسه،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة مرفوعاً، ٤/١٢٨.

فأهانها وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه بالنبوة والحكمة والإمامة في الدنيا ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات العالية. والآية بيانٌ لخطأ رأي من يرغب عن ملّته، فإنَّ من كان خليلَ الرحمٰن، ومشهوداً له بالتقى والصلاح في الدارين، كان حقيقاً بالاتّباع، لا يرغب عنه إلاَّ سفيهٌ ومتسفهٌ، والتأكيد باللاّم في قوله «لَمِنَ» لأن أمور الآخرة خفيَّةٌ عند المخاطبين، ولذا أكَّد الجملة بمؤكدين «إنَّ» و «اللام» لينبه تعالى على تحقُّق خلوصه في الصلاح في الآخرة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك، وأخلصْ دينك لله واستقم، ومعنى الإسلام: الانقيادُ والخضوع، ولا يراد به إحداث الإسلام والإيمان، لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون قبل النبوة وبعدها، فهم مسلمون قبل أن يتنزَّل عليهم الوحي، يدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَا إبراهيَم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[1] أي آتيناه هداه وصلاحه من الصغر، وإنما المراد به الخضوع والانقياد ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي قال: استسلمتُ لأمر الله، وخضعتُ لحكمه، وأيقنتُ وأخلصتُ لوجهه، وإضافةُ الرب للعالمين لا لنفسه، للإيذان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن بشمول ربوبيته تعالى لجميع الخلق، لا لنفسه وحده.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصَّى الخليلُ أبناءه باتباع ملة الإسلام، وكذلك وصَّى يعقوب بنيه بها أيضاً، والتوصيةُ: هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاحٌ وقربة، وتتضمن هنا معنى الأمر، أي أمر إبراهيم بنيه بالاستمساك بالإسلام. فإن قيل: لمَ وصَّىٰ ولم يأمرهم؟ فالجواب أنَّ الوصية أوكد، لأنها أكثر ما يكون عند خوف الموت، وفي ذلك الوقت يكون قبولها أقرب، وإنما خصَّ بنيه لأنهم كانوا أئمة يُقتدى بهم. ثم فصل الوصية التي أوصى بها فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي أعطاكم

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥١.

الدين الذي هو صفوة الأديان، وهو دينُ الإسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ والمراد من الأمر الثبات على الإسلام[1]، لأن الإسلام كان حاصلاً لهم، وإنما أدخل حرف النفي ﴿فلا تموتُنَّ﴾ للدلالة على أنَّ موتهم على غير الإسلام موتٌ لا خير فيه، يجب أن يحذروه غاية الحذر، وما مزجَ بهذه الوصية وصيةً أخرى، لشدة الاهتمام بها.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

روي أن اليهود قالوا لرسول الله ألستَ تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ وهذا انتقالٌ عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، إلى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية، والمراد بحضور الموت حضور أسبابه[2]، أي ما كنتم حاضرين حين احتضاره عليه السلام، فلم تدَّعون ما تدَّعون؟! ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على

---

(١) هذا النهي ﴿فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ إنما ورد بصيغة الحصر، للمبالغة في التحذير من الموت على غير الإسلام، والمراد به الثبات على الإسلام، أي اثبتوا على الإسلام، ولا تفارقوه أبداً، حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، وقد تكرر هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته، ولا تموتنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ﴾ كنايةٌ غريبة لطيفة، فقد شبَّه الموت بمسافر غائب، لا بدَّ أن يرجع إلى أهله، ويقدم على ذويه، فإذا رجع من السفر، حضر عندهم، ولذا يقال في الدعاء: «واجعل الموتَ خير غائبٍ ننتظره».

الثبات عليهما، وكان هذا بعد أن دخل مصر، ورأى فيها من يعبد النار، فخاف على ولده، فحثَّهم على ما حثَّهم عليه، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ أُعيد ذكر الإله لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عطف بيان لآبائك، وعد إسماعيل من آبائه لأنه كالأب لقوله ﷺ «عم الرجل صِنْوُ أبيه»[1] والمعنى: قالوا نعبد إلٰهك، وإله آبائِك المتفقة على وجوده تعالى وألوهيته، ووجوب عبادته ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بدل من إلٰه آبائك، وفائدتُه التصريحُ بالتوحيد ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون في العبودية، ومنقادون لأمره ونهيه.

ثم بيَّن تعالى أنَّ كلَّ أمةٍ تُجزى بعملها، ولا تحمل وزر غيرها، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم، ويعقوب، وما بينهما من الأمم الموحّدة، ومعنى ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضتْ، وأصله صارت إلى الخلاء، وهي الأرض التي لا أنيس بها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لكلٍّ أجرُ عمله، والمعنى: إنَّ انتسابكم إليهم، لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ولا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تُثابون بحسناتهم، فالمراد تخييب المخاطبين، وقطع أطماعهم عن الانتفاع بحسنات الأمة، وما قيل أي «لا تؤاخذون بسيئاتهم» ممَّا لا يليق بشأن الأنبياء. كيف وهم منزهون من كسب السيئات، فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم؟.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب رقم ٣٧٦٢ وهو طرف من حديث طويل وله قصة، فقد روى الترمذي أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضباً، فقال له رسول الله ﷺ: ما أغضبك؟ فقال: يا رسول الله أرى قوماً من قريش يتلاقون بينهم بوجوه مسفرة ـ أي فيها بشاشة ـ وإذا لقونا لقونا بغير ذلك!! فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّ وجهه، وقال: والذي نفسي بيده لا يدخل قلبَ رجلٍ إيمانٌ، حتى يحبَّكم لله ورسوله، ثم قال: «يا أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، إنما عمُّ الرجل صنوُ أبيه» ومعنى الصنو المثيلُ والشبيه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ شروعٌ في بيان إضلال أهل الكتاب، إثر بيان ضلالهم في أنفسهم، أي قالوا للمؤمنين ﴿كُونُوا هُودَاً أَوْ نَصَارَى﴾ أو للتنويع لا للتخيير، ومعنى الآية قالت اليهود كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى ﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ جواب للأمر، أي إن تكونوا كذلك تهتدوا ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ خطاب للرسول ﷺ أي قل لهم على سبيل الردّ، وبيان ما هو الحق، لا نكون كما تقولون، بل نكون على ملة إبراهيم عليه السلام، أي نحن أهل ملته ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الباطل إلى الحق، والحنيفُ: المائل عن كل دين باطل، إلى الدين الحق، مأخوذ من الحنَف وهو الميلُ عن الضلال، وضدُّه الجَنَفُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدَّعون اتباعه وهم مشركون.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

﴿ قُولُوٓاْ ﴾ هذا خطاب للمؤمنين أي قولوا لهم بمقابلة ما قالوا تحقيقاً وإرشاداً لهم. ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ أي القرآن، قدَّم ذكره لأنه الكتاب المحفوظ الذي جاء مصدقاً لغيره ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ من الصحف المنزلة من عند الله كما أنَّ القرآن، منزَّل إلينا، والأسباط جمعِ سِبْط وهو الحافد، يريد بها حفدة يعقوب، وأبناءه، وذريتهم،

واختلف الناس في أولاد يعقوب أخوة يوسف، هل كانوا أنبياء أم لا؟ والصحيح الثاني، أنهم غير أنبياء، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألَّف فيه، لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه السلام، ينافي النبوة قطعاً، وليس في القرآن ما يدلُّ على نبوتهم[1] ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة، والإنجيل، أفردهما بالذكر، لما أن الكلام مع اليهود والنصارى، ولكون أهل الكتاب حرَّفوا، وادَّعوا أنهما نزلا كذلك، ، اهتمَّ بشأنهما فأفردهما، بالذكر ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ من الآيات والمعجزات، وهو تعميم بعد التخصيص ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ للهِ تعالى ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون، أي إسلامنا لأجل طاعة الله، لا لأجل اليهود والنصارى.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أي فإن آمن اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي آمنوا إيماناً مثل إيمانكم به، من الإذعان، والإخلاص، وعدم التفريق بين الرسل الكرام، بأن يؤمن الإنسان بالبعض ويكفر بالبعض ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ إلى الحق، وإن لمجرد الفرض، والكلام من باب الاستدراج مع الخصم، حيث يراد تبكيته، يعني نحن لا نقول إننا على الحق، وأنتم على الباطل، ولكن إن حصلتم شيئاً مساوياً لما نحن عليه من الإيمان، فقد اهتديتم، ومقصودنا هدايتكم ليس إلاَّ، والخصم إذا نظر بعين الإنصاف في هذا الكلام، علم أن الحق ما عليه المسلمون لا غير ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا عن الإيمان، أو عمّا تقولون لهم، بأن أخلُّوا بشيء من ذلك ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي فما هم إلا في خلاف وعداوة، فإن كل واحد من المتخالفين في شَقٍّ غير شقِّ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير ٢/ ٤٨٧: ولم يقم دليل على نبوة أخوة يوسف، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم، لهذه الآية ﴿والأسباط﴾ وهذا لا يدل عليه، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يُقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، فالله عزَّ وجلّ أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، وكل سبطٍ من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان بني إسرائيل، وما فعلوه مع يوسف من الحسد، وإلقائه في الجب، وكذبهم على أبيهم، يدل على أنهم ليسوا أنبياء!!.

الآخر، والتنوين للتفخيم، أي هم مستقرون في خلاف عظيم، والجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم في ذلك، ولما دلَّ الشقاق على العداوة العظيمة، عقَّب ذلك بتسلية النبي ﷺ وتفريح المؤمنين بالنصر، فقال ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ وعدٌ لهم بالحفظ، والنصر على من ناوأهم، وهو ضمانٌ من الله تعالى، لإظهار دين الإسلام، لأنه تعالى إذا تكفل بشيء أنجز وعده، وهو إخبار بالغيب وقد أنجز وعده، ونصر عبده، والمراد سيكفيك كيدهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان، بل بالأفعال ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي أنه تعالى يسمع ما يبدون، ويعلم ما يخفون، وهو معاقب لهم على ما يضمرونه من الشر.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ الصبغة من الصبغ وهو ما يلوَّن به الثياب، أي صَبَغنا اللهُ صبغة، وهي «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فإنها حِلْيةُ المؤمن، كما أن الصبغ حلية المصبوغ، وسماه صبغة لأنه تداخل قلوبهم، تداخل الصبغ بالثوب، وإضافته إلى الله تعالى للتشريف، والإيذان بأنها عطية منه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحد أحسن من الله صبغة وديناً، فهو استفهام بمعنى النفي ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ أي لله الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿عَابِدُونَ﴾ شكراً لها ولسائر نعمه.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

أتجادلوننا في دين الله؟ وتدَّعون أن دينه الحقُّ، هو اليهودية والنصرانية؟ والمحاجة: المجادلةُ والمغالبة في إقامة الحجة، والهمزة للإنكار.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي في شأن الله، وفي أمر دينه، فتزعمون أن دينكم هو الحقُّ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه؟! وهذه الآية ردٌّ على اليهود، حيث قالوا: الأنبياء كلهم من بني إسرائيل، فلو كنت يا محمد نبياً لكنت منَّا، وما هو إلا من باب الحسد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحسُدونَ النَّاسَ عَلَى ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له تعالى بقومٍ دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. أي والحالُ أنه لاوجه للمجادلة أصلاً، لأنه تعالى ربُّنا وربكم، نشترك جميعاً في كوننا عباده تعالى ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم، لا يحتمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي موحّدون، نخلصه بالإيمان والطاعة دونكم، والإخلاص جعلُ الشيء خالصاً لله، والمخلص هو الذي يأتي بالعمل الصالح لا يريد به رياءً ولا سمعة ويقابل الإخلاص الرياءُ، وعلاماته الكسلُ عند العبادة وحب الثناء على العمل.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾؟ يعني أتزعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم الأعوج ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد نفى الله الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إبراهيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرانِياً﴾ واحتج عليهم بقوله: ﴿مَا أُنْزِلَتِ التَّوراةُ والإنجيلُ إلاّ مِنْ بعدِهِ﴾ وهؤلاء الرسل المذكورون أتباعه في الدين، فكيف تدَّعون له ولهم، ما نفى الله تعالى عنهم، فما ذلك إلاّ جهلٍ وضلال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ ثابتة ﴿عِندَهُۥ﴾ كائنة ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفيَّةِ، والبراءة من اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لهم أي هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون، فيعاقبكم بذلك.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مرَّ تفسيرهُ، وهو تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع، من الافتخار بالآباء، والاتكال عليهم.

وقيل: الخطابُ فيما سبق لهم، وفي الآية هُنَا لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين، واليهود، والمشركين، وإنما قال المنافقون لمجرد الطعن في الإسلام والاستهزاء، لا لاعتقادهم حقية القبلة، والمشركون كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها، وليرجعنَّ إلى دينهم أيضاً، واليهود كانوا يظنون أن موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يصير موافقاً لهم بالدِّين، فلما تحوَّل يئسوا، وقالوا قد عاد إلى طريقة آبائه وذلك القول المحكي، لم يصدر عن كل فردٍ من تلك الطوائف، بل عن سفهائهم وأشقيائهم، المعتادين للخوض في الفساد، وفائدة الإخبار به توطين النفس، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه، أقطع للخصم، والعلم به قبل الوقوع يكون معجزة، وقال القفَّال: هذه الآية نزلت بعد تحويل القبلة، ويؤيده ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال: «لمَّا قدم النبي ﷺ المدينة، صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً،

وكان ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل اللهِ ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فقال السفهاء وهم اليهود ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ أيْ أيُّ شيء صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾[1] والقبلة من الاستقبال والمراد بها ههنا «بيت المقدس» ووصفها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي مستمرُّون على التوجه إليها، لتأكيد الإنكار، ومدارُ هذا الإنكار بالنسبة إلى اليهود، زعمهم استحالة النسخ، وكراهتهم مخالفته ﷺ لهم ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية، وإنما العبرة بامتثال أمره، لا بخصوص المكان، لأن الأماكن كلها لله، فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء، لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده ولا يمنع اختلاف المصالح، بحسب اختلاف الجهات، وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيْهَا، إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يتبع الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين حين كانوا بمكة، أن يتوجهوا إلى بيت المقدس، ليتميَّزوا من المشركين، فلَّما هاجروا إلى المدينة، أُمروا بالتوجه إلى الكعبة، ليتميَّزوا من اليهود ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما توجبه الحكمة، وتقتضيه المصلحة والتوليةُ هدايةٌ يخصُّ الله تعالى بها من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل القبل، كذلك الجعل البديع ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً وعدولاً، والوسطُ في الأصل اسم المكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة، لوقوعها بين طرفي إفراطٍ وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، ولما كان العباد لا يحيطون إلاَّ بالظاهر، أقام الفقهاء الاجتناب عن الكبائر، وعدم الإصرار على الصغائر، مقياس الأفضلية، وسمَّوه عدالةً في إحياء الحقوق أي جعلناكم أمةً وسطاً بين الأمم،

(١) فتح الباري على صحيح البخاري ١/ ٥٠٢.

لتمسُّككم بالخصال الحميدة ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب الله لكم من الحجج، وما أنزل عليكم من الكتاب، أنه تعالى أوضح السبل، وأرسل الرسل، فبلَّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وتشهدوا بذلك يوم القيامة على الأمم.

طريقة أداء الشهادة

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق، على لسان نبيه الصادق. أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بنوح وأمته يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير!! فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾» والوسط: العدل[1]. ثم يُسأل الرسول ﷺ عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وهذه الشهادةُ وإن كانت لهم، لكنْ لما كان الرسول كالرقيب، المهيمن على أمته، عُدّي بعلى ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي وما شرعنا ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي الكعبة المشرفة فإنه ﷺ كان يصلي إليها بمكة، ثم لمَّا هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس، وقال ابن عباس: كانت قبلته بمكة «بيت المقدس» إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه، والمعنى: إن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٤٨٧ والترمذي رقم ٢٩٦١ ولفظ البخاري «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبَّيْك وسعدَيْك يا رب، فيقول: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!! فيقول من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلَّغ، فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ والوسطُ: العدلُ الذي تُقبل شهادتهُ، ا هـ.

وما جعلنا قبلتك بيت المقدس، لشيء من الأشياء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي إلاَّ لنمتحنَ النَّاسَ، فنعلم من يتَّبعك في الصلاة إليها، ممن يرتدُّ عن دينك؟ فإن قيل: كيف قال ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ وهو لم يزل عالماً؟ أجيب عن هذا ونحوه أنه باعتبار التعلق أي ليتعلق علمنا به موجوداً، أو ليعلم رسولنا والمؤمنون، فالتغيير على المعلوم لا على العلم، ونبين هذا بمثال، وهو أن المِرآة الصافية، إذا عُلقت في موضع، ثم عبر عليها زيد لابساً ثوبه الأبيض، ظهر فيها في ثوبه الأبيض، ثم إذا عبر عليها عمروٌ في ثوب أسود يظهر فيها كذلك، فهل يقع في ذهن أحدٍ أنَّ المرآة تغيَّرت؟ فعلمُ الله تعالى أعلى، لأن المرآة ممكنة التغير، وعلمُ الله لا يتغيّر[1] ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إنْ هي المخفَّفة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة، أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً فمعنى كبيرة أي شاقّة وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي هداهم إلى معرفة سر أحكامه الشرعية، المبنية على الحِكم والمصالح، وهم المهديُّون الثابتون على الإيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان، أو صلاتكم إليها، لما روي في الصحيح أنه ﷺ لمَّا توجه إلى الكعبة، قالوا: كيف من مات قبل التحويل من إخواننا[2] ؟ فنزلت الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم، ولا أعمالهم الصالحة التي فعلوها، وهو تقريرٌ للحكم، وتعليل له، فإن اتصافه عزَّ وجلّ بهما، يقتضي أن لا يضيع عملهم، والرأفةُ: عبارةٌ عن إيصال النعم الصافية من الآلام، والرحمة أعم منه.

---

(١) خلاصة هذا أن علم الله تعالى لا يتبدل ولا يتغير، فهو سبحانه عالم بما كان، وما سيكون، وما هو كائن، فقوله تعالى: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر علمنا لعبادنا المؤمنين، فيعرفوا الحقيقة ويَنكشف لهم ما كان خفياً عنهم، وإنما أسنده إليه تعالى تشريفاً لرسوله والمؤمنين، وهذا الأسلوب شائع في لسان العرب يقولون: فتح عمرُ العراقَ، وجبىٰ خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٢٩٦٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي قد رأينا يا محمد تردُّد وتصرّف نظرك جهة السماء، انتظاراً للوحي، وكان ﷺ يتوقع من ربه أن تُحول القبلة إلى الكعبة، لأنها قبلة آبائه، وأقدم القبلتين، وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل، عن وجهه إلى وجه آخر ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلنمكننَّكَ من استقبالها ولنجعلنك تلي جهتها، وهذا الوعد كان قبل الأمر، لفرح النفس بالإجابة، ثم بإنجاز الوعد، ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ أي تحبها وتتشوق إليها، وليس في اللفظ ما يدل على أنه ﷺ كان يطلب قبلةً معيَّنة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم، وتخصيص التولية بالوجه لأنه أشرف الأعضاء وبه يتميز الإنسان، والتولية إذا كانت متعدية إلى واحد فمعناه الصرف أي اصرفْ وجهك ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ نحوه، والشطرُ جزءُ الشيء، وهو في الأصل لما انفصل عن الشيء، ويأتي بمعنى الجهة، والحرامُ أي المحرَّم فيه القتالُ، أو الممنوع عن الظَّلَمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة، لأنه ﷺ كان في المدينة، والبعيدُ يكفيه الجهةُ، بخلاف القريب، عن ابن عمر قال: «بينما الناسُ بقباء في صلاةِ الصبح إذ جاءهم آتٍ فقال: إن النبي ﷺ قد أُنزل عليه قرآنٌ، وقد أُمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة[1]، وخص الرسول ﷺ بالخطاب، تعظيماً له، وإيجاباً لرغبته، ثم عمَّم الحكم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة ١/ ٤٢٤ ومسلم في المساجد رقم ٥٢٦ والترمذي رقم ٣٤١ في باب ما جاء في ابتداء القبلة.

فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أي من برّ أو بحر، من شرقٍ أو غرب، وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي توجهوا نحو البيت الحرام وفائدة تعميم الأمكنة على ما ذهب إليهِ البعض، دفع توهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أحبار اليهود، وعلماء النصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التحويل ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لعلمهم بأن الرسول ﷺ لا يأمر بالباطل، إذْ هو المبشر به في كتبهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بجميع ما يعمله العباد، وسيجازيهم عليه، وفيه وعدٌ ووعيد للفريقين.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ أي ولئن جئتهم بكل حجة قاطعة، والآية برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، وأن التوجه إليها هو الحق ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ وهذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: إنهم ما تركوا قبلتك، لشبهةٍ تزيلها الحجة، إنما هو عن مكابرة وعناد ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ مسوقة لقطع أطماعهم، أي ولست يا محمد متبعاً قبلتهم أبداً، قيل إن قبلة الطائفتين في الأصل بيت المقدس، وعيسى عليه السلام لم يصلِّ جهة الشرق حتى رفع، وإنما كانت قبلته بيت المقدس، ثم بعد رفعه شرع أشياخ النصارى لهم الاستقبال إلى الشرق، واعتذروا بأن المسيح فوض إليهم تشريع الأحكام، وذكروا أن في الشرق أسراراً ليست في غيره، وأن المسيح حين صُلب استقبل الشرق، وقال ابن القيم: إنَّ قبلة الطائفتين الآن، لم تكن قبلةً بوحي بل بمشورة، وليس في التوراة الأمر بذلك، والسَّامرة منهم يصلُّون إلى طورهم بالشام قرب بلدة نابلس، وهذان القولان ـ إن صحَّا ـ لأشكل القول بأنه تعالى لم يخصص كل شريعة بقبلة ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع

الشمس، ولا يُرجى توافُقهم كما لا يُرجى موافقتهم لك، لتصلبهم في الهوى وعنادهم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ مرَّ تفسيره، أي لئن اتَّبعتَ أهواءهم فَرَضاً ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه تحذير عن متابعة الهوى، ولقد بولغ في التأكيد، أولاً بالقسم، وإنَّ التحقيقية ﴿إِنَّكَ﴾ واللام في خبرها، وتعريف الظالمين، والجملة الاسمية، وفي هذه المبالغة تعظيمُ أمر الحق، والتحريض على اقتفائه، والتحذير عن متابعة الهوى، واستعظام لصدور الذنب عن الأنبياء، وقيل: الخطاب في الظاهر للرسول ﷺ والمراد أمته.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علماءهم، إذ هم العمدة في إيتائه، وقيل: أراد بهم مؤمني أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي الرسول ﷺ وإن لم يسبق ذكره، لدلالة الكلام عليه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم، يروى أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم والله وأكثر، نزل أمينُ السماء جبريل، على أمين الأرض محمد بنعته، فعرفته كما وصفه تعالى بالتوراة، وأمَّا ابني فلا أدري ما كان من أمه، فقد تكون قد خانتني فيه!! فقال له عمر: وفَّقَك الله، ولهذا قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[1] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي وإن جماعة من رؤسائهم وأحبارهم، ليخفون الحقَّ ولا يعلنونه، ويكتمون صفة محمد المذكورة عندهم في التوراة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وهم يعلمون حقيقة الأمر، ولكنهم فجرة يكابرون ويعاندون، وفي الآية تنبيه على كمال شناعة من يكتم الحقَّ، وأنه لا يليق بالعلماء الكتمان.

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٠٠ نقلاً عن القرطبي.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد، من أمر القبلة، ومن خبر الأحبار والرهبان، الذين يعرفون محمداً بصفته في التوراة والإنجيل، هو الحقُّ القاطع، واليقين الساطع، فلا تكونَنَّ من الشاكِّين فيما أخبرناك عنه. والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أمته، يقال: امترى في الشيء أي شكَّ فيه.

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي ولكل أمة من الأمم، قبلةٌ ومنهاج يسير عليها أصحاب الملل، يتوجهون بها إلى الله ـ على زعمهم ـ فتوجهوا يا معشر المؤمنين إلى ما أرشدكم إليه ربكم، من أمر القبلة والدين ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي سارعوا إلى فعل الخيرات ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي في أي مكانٍ أو موضع، تكونون فيه بعد موتكم، من أغوار الأرض، أو قُلَل الجبال، أو أعماق البحار، يجمعكم الله للحساب، وإن تفرَّقت أجسادكم وأبدانكم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على كل شيء، لا يعجزه أمر من الأمور مهما كان، فلا تشكُّوا في قدرة الرحمٰن.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي من أيّ مكانٍ خرجتَ للسفر، تأكيد لحكم التحويل، وتصريح بعدم تفاوت الأمر، في حالتَيْ السفر

والحضر ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إذا صلّيتَ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإنَّ هذا الأمر ﴿ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم بذلك.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته؛ وجريُ العادة الإلهية على أن يُولّى كلُّ أهل ملة وجهةً يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين، فإن القبلة لها شأن عظيم، والنسخ من مظان الفتنة، فبالحري. أن يؤكد أمرها، ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ متعلق بمحذوف كأنه قيل: فعلنا ذلك لئلا يبقى لأحد عليكم حجة، كاحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأنه يتبعنا في قبلتنا، والمشركين بأنه يدَّعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة، إلا المعاندين منهم، فإنهم يقولون: ما تحوَّل إلى الكعبة إلاَّ ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، والحجةُ: الدليلُ والبرهان، كأن من أقامها يقصد إثبات الحكم بها، فتقسم إلى حجة ناهضة يثبت بها الحق، وحجة داحضة[1]، يُموَّه بها الباطل ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فلا تخافوهم، لأنهم لا يقدرون على نفع ولا ضُرّ ﴿ وَٱخْشَوْنِى ﴾ أي وخافوني فلا تخالفوا أمري ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ ﴾ بهدايتي إياكم إلى الكعبة المشرفة قبلة أبيكم إبراهيم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ولإرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم، وعن علي: تمامُ النعمة الموت على الإسلام.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

---

(١) الحجة الداحضة يعني الباطلة كما قال تعالى في سورة الشورى ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَه، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ متصل بما قبله أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، كما أتممتها بإرسال رسولٍ منكم، فإنَّ إرسال الرسول، نعمة لا تكافئها نعمة، لما فيه من الشرف لهم، فإنَّ البعثة منهم وفيهم، أقرب إلى قبول قوله، والانقياد له فيما كان سبباً لسعادة الدين والدنيا ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ صفة ثانية للرسول، كاشفة لكمال النعمة، يعني القرآن، وذلك من أعظم النعم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوته ﷺ لأن تلاوة الأميّ، الآيات الخارجة عن طوق البشر، واشتمالها على المصالح التي ينتظم بها أمر المعاش والمعاد، أقوى دليل على نبوته ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ يحملكم على ما تصيرون به مطهّرين من دنس الشرك وقبيح الأعمال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ صفة أخرى مترتبة في الوجود على التلاوة، وإنما وسَّط بينهما التزكية، للإيذان بأن كلاً من الأمور المترتبة نعمة جليلة بانفرادها مستوجبة للشكر، وهو السر في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات، وأخرى بالكتاب، وثالثاً بالحكمة، رمزاً إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي ما لا سبيل لكم إلى معرفته إلاَّ بالوحي، وهو تخصيصٌ بعد التعميم، مبين لكون إرساله ﷺ نعمة عظيمة، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم، لا يدرون ماذا يصنعون.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة والعبادة ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالمغفرة والثواب، واذكروني في النعمة والرخاء، أذكركم في الشدة والبلاء، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، كمثل الحيِّ والميت»[1] فالمعنى: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ أي أجازيكم بها، وعبَّر بالذكر للمشاكلة، ولأنه نتيجته، والذكرُ يكون باللسان، وهو أن يسبّحه، ويحمده،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ١٧٥ في الدعوات، ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٧٧٩.

ونحو ذلك، ويكون بالقلب، وهو أن يتفكر في عظمة الله، وفي الدلائل الدالة على وحدانيته، ويكون بالجوارح مثل الطاعات والصلاة ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمت به عليكم من النعم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم، وعصيان الأمر، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصفهم بالإيمان إثر تعداد ما يوجبه، تنشيطاً لهم، وحثاً على مراعاة ما يعقبه من الأمر ﴿ٱسْتَعِينُواْ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وحظوظ النفس، وعلى الأمور الشاقة على النفس، التي من جملتها معاداة الكفرة، المؤدية إلى مقاتلتهم ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ أي وبأداء الصلاة التي هي أهم أركان الإسلام، فبالصبر تنالون كلَّ فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنُّصرة، وإجابة الدعوة، ومعنى المعيَّة: الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة.

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ عطف على استعينوا ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقتل في سبيل نصرة دين الله ويموت شهيداً، وسبيلُ الله: كلُّ ما أمر الله تعالى به من الخير فهو سبيله، كالجهاد، والحج، وطلب العلم ﴿أَمْوَٰتُۢۚ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم؟ وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يُدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن البصري أن الشهداء أحياء عند ربهم، تُعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الروح والفرح بالنعيم، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون، غدُوَّاً وعشيّاً، فيدخل إليها الألم والوجع، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها، تبقى بعد الموت درَّاكة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء، لاختصاصهم بالقرب من الله، ومزيد البهجة والكرامة، قال أبو السعود رحمه الله: رأيت

في المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة، أني أزور قبور شهداء أُحُد رضي الله عنهم وأنا أتلو هذه الآية، متفكراً في أمرهم، وفي نفسي أن حياتهم روحانية، فبينما أنا على ذلك، إذْ رأيتُ شاباً منهم قاعداً في قبره تام الجسد في أحسن ما يكون من الهيئة، فنظرتُ إلى وجهه فرأيته ينظر إليَّ مبتسماً، كأنه ينبهني على أن الأمر بخلاف رأيي!! فسبحان من علت كلمته، وجلَّت حكمته[1] واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد، ولكنا لا ندركها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وبأن الحياة الروحانية ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم، وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، وأنها من خصائص الشهداء .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ولنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم، هل تصبرون على البلاء، وتستسلمون للقضاء؟ وهل تشكرون فيما تحبونه وتصبرون فيما تكرهونه؟ وفيه إيماء إلى أنَّ المقصود من هذه الحياة الابتلاء، واللام جواب القسم، تقديره والله لنبلونكم، والخطاب للمؤمنين أي لنعاملنكم معاملة المختبر ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلَّله بالإضافة إلى ما وقاهم منه، ليخفّف عليهم، ويريهم أن رحمته لا تفارقهم، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه، ليوطّنوا عليه نفوسهم، ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له، وليعلموا أنه شيء يسير، له عاقبة حميدة،

---

(١) انظر هذه الرؤيا في إرشاد العقل السليم «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠ .

والجوعُ: القحطُ وعدم حصول القوت ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي وشيء من نقص الأموال بموت المواشي ونحوه، ونقص الأنفس كموت الأصحاب والأحباب، ونحو ذلك، ونقص الثمرات أي ثمرات الحرث والأشجار، بحيث لا تغلُّ الحدائق والمزارع ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه البشارة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ المصيبة ما يصيب الإنسانَ من مكروه، في النفس، أو في الأهل، أو في المال، قليلاً كان أو كثيراً طفىء سراج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون» فقيل أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم، كلُّ شيء يؤذي المؤمن فهو مصيبة» وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُردِ الله به خيراً يُصِبْ منه»[1] يعني يبتليه بالمصائب، حتى يأجره على ذلك، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ أْؤجُرْني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلاَّ آجَرَه الله في مصيبته، وأخلفَ له خيراً منها»[2] وليس الصبر والاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب، والمصيبةُ إذا كانت من قبل الله، يجب الصبر عليها كالأمراض، ووفاة بعض الأولاد، وأما إذا جاءت من الظلمة، فالصبر عليها غير واجب، بل إن أمكن أن يدفع ذلك ولو بالمقاتلة، والمبشَّر به محذوفٌ، دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ «أولئك» إشارة إلى الصابرين، والأجر لمن صبر عليها وقت إصابتها، كما في الحديث: «إنما الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى»[3] والصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التَّزكيةُ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المرضى ١٠/ ٩٣ ومالك في الموطأ ٢/ ٩٤١.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنائز رقم ٩١٨ وفيه قالت: أم سلمة فلما توفي أبو سلمة قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ.

(٣) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان، من رواية أنس قال: مرَّ النبي ﷺ على امرأة =

والمغفرةُ، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي هم المهتدون للحق والصواب، والفائزون بمطالبهم الدينية والدنيوية، فإن من نال رأفة الله ورحمته، لم يفته مطلب.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ هما جبلان بمقربةٍ من البيت الحرام، لهما مكانة جليلة في شريعة الإسلام، ولهذا قال: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه، ومناسك حجه، التي تعبَّدنا الله بها، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، وكلُّ ما تعبَّدنا الله به من أمور الدين فهو من الشعائر، كالطَّواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والأذان، والإقامة، وغير ذلك ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي فمن قصد بيت الله، للحج أو للعمرة، فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، أي بين الصفا والمروة ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي ومن فعل خيراً، سواءً كان فرضاً أو نفلاً، فإن الله شاكر له طاعته، ومجازيه عليها أفضل الجزاء، فإنه سبحانه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال، فلا يُنقص من أجورهم شيئاً. وظاهر الآية: ﴿فلا جُناحَ عَلَيهِ أنْ يَطَوَّفَ بِهِمَا﴾ يشير إلى عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، مع أنه من أركان الحج أو واجباته، ولهذا أشكل على عروة بن الزبير فهمُ الآية، حتى سأل خالته «عائشة» أم المؤمنين رضي الله عنها فقال: يا خالة، ما أرى بأساً على من ترك السعي بين الصفا والمروة!! فقالت له: بئسما قلتَ يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرتَ، لقال الله تعالى: فلا جناح عليه أن لا يطَّوف بهما،

= تبكي عند قبرٍ على صبيٍّ لها فقال لها: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبي ﷺ فأتت النبي تعتذر إليه وقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبرُ عند الصدمة الأولى.

ولكنَّ أهل الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة لصَنَمَيْنِ: أحدهما على الصفا يسمى «إسافاً» والثاني على المروة يسمى «نائلة» فلما دخلوا في الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأنه فعل الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج، وتخبر أنهما من شعائر الله، وأنه ينبغي أن يكون السعي بينهما للرحمن لا للأوثان، قالت عائشة: وقد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما، فليس لأحدٍ أن يترك الطواف بينهما[1]. وعن عاصم بن سليمان قال: قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ فقال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية!! فهذا هو السرُّ في نفي الحرج.

أما الحكمة من السعي بين الصفا والمروة، فهي لإحياء ذكرى قصة «هاجر» أم إسماعيل عليهما السلام، فإنه لمَّا تركها إبراهيم عليه السلام مع طفلها الرضيع في الصحراء ـ قبل بناء البيت العتيق ـ وعطشت وعطش ابنها، أغاثها الله بماء زمزم، بعد أن سعت بين جبل الصفا، وجبل المروة عدة مرات، وهي تبحث عن الماء، لتنقذ حياتها وحياة وليدها، فبعث الله إليها «جبريل» عليه السلام، فضرب برجله الأرض، ونبع منه ماء زمزم، وقال لها: إن لله ههنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه، فجعل الله أفعالها وسعيها طاعةً لجميع المكلفين، ليعلم الناس أن الله تعالى لا يضيع أجر الصابرين، وهذا هو السرُّ في مشروعية الطواف بين الصفا والمروة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

(١) انظر تفصيل القصة في صحيح البخاري ٣/٣٩٨ وصحيح مسلم كتاب الحج رقم ١٢٧٧.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ نزلت في أحبار اليهود الخائنين، وهي عامة في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، والمعنى: إن الذين يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الساطعات الواضحات، التي تدل على صدق محمد ﷺ في أمر النبوة والوحي ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي من بعدما أوضحناه لكل الناس، في كتب الله المنزَّلة على رسله، كالتوراة والإنجيل والزبور، كما قال سبحانه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[1] فالمراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ أي أولئك المجرمون، الكاتمون لأوصاف الرسول عليه السلام، المحرِّفون لأحكام التوراة والإنجيل ﴿يَلْعَنُهُمُ الله﴾ أي يطردهم ويُبعدهم من رحمته، ويذيقهم أليم نقمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي يلعنهم أهل السماء والأرض، الملائكة، والمؤمنون، وجميع الخلائق من الإنس والجن، حتى البهائم والدواب، فكما أن العالم المبلغ لشريعة الله، يستغفر له كل شيء، حتى الطير في الهواء، والحيتان في الماء، كما ورد به الحديث الشريف، فكذلك الكاتمون لوحي الله، يلعنهم كل شيء في السمٰوات والأرض.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ أي إلا الذين تابوا عن الكتمان، وندموا على ما صنعوا من العصيان ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ أي وأصلحوا ما أفسدوه بالتدارك، ببيان حقوق الحقِّ والخلق، ومن ذلك أن يصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الدين الحق «دين الإسلام» ﴿ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ أي أظهروا للناس حقيقة ما أنزل الله في كتبه المقدَّسة، لتتمَّ توبتهم من التحريف والكتمان ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي فأولئك التائبون الصادقون، أقبل توبتهم، وأشملهم برحمتي الواسعة، فأنا الرب الجليل، واسع التوبة، عظيم الرحمة.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

قال ابن كثير: والآية وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل، من الدلالات البيّنة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب، من بعدما بينه الله تعالى لعباده، في كتبه التي أنزلها على رسله[1]، ولهذا جاء في الحديث «من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ أي إن الذين كفروا بالله، وماتوا ولم يتوبوا كأمثالِ هؤلاء الكاتمين، واستمروا على الكفر، حتى داهمهم الموت، وهم على تلك الحالة الشنيعة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي استقرَّ عليهم اللعن والطرد، من الله والملائكة وأهل الأرض جميعاً، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ومعنى اللعن: الطردُ والإبعادُ من رحمة الله عزَّ وجلّ، فالكافر يلعنه أهل السماء والأرض، لأنه مفسدٌ مخرّبٌ لنظام الله، حائد عن الصراط المستقيم.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي خالدين في نار الجحيم، وفي إضمارها تفخيم لشأنها ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع، لا يخفُّ عنهم طرفة عين، كما قال سبحانه: ﴿لاَ يُفَتَّر عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[3] ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي ولا يُمهلون أو يُؤجَّلون،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥١ وأبو داود رقم ٣٦٥٨ وفي رواية أبي داود «ألجمه الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».

(٣) سورة الزخرف، آية: ٧٥.

بل يلاقيهم العذاب من حين مفارقة الروح للجسد، فهم في سكرات الموت معذبون، وفي القبر يرون أشد العذاب، وفي الآخرة لهم نار الجحيم، وهذه الصفات الثلاثة للعقاب: الخلود، وعدم الإمهال، وعدم التخفيف، تشير إلى يأس الكفار من الخروج من نار الجحيم، كما قال سبحانه: ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾[1].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لنعم الله، وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، أعقبه بذكر أدلة الوحدانية، وأتى بالبراهين الساطعة الدالة على وجود الإله الخالق، المدبر الحكيم فقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة أيها الناسُ إله واحد، لا نظير له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحقّ إلا هو جلَّ وعلا، المتصف بالرحمة التامة، المفيض أنواع النعم على العباد، وفي الآية تقرير للتوحيد، فإنه تعالى حيث كان المولي لجميع النعم، صغيرها وكبيرها، وكان كلُّ ما سواه مفتقراً إليه في وجوده وإمداده، تحققت وحدانيته بلا ريب، وانحصر استحقاق العبادة فيه وحده جلَّ وعلا.

عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة آل عمران: ﴿الٓمٓ. الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾[2].

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة رقم ١٤٩٦ والترمذي في الدعوات رقم ٣٤٧٢ وقال: حديث حسن.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

روي عن عطاء أنه قال: أُنزل على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية، فقال الكفار بمكة: كيف يَسَعُ الناسَ إلهٌ واحد؟ أي كيف يكفيهم إله واحد؟ حيث كان عندهم حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] الآية. أي إن في إبداع السمٰوات والأرض، بما فيهما من عجائب الصنعة، ودلائل القدرة، بما يعجز عن فهمها عقول البشر، وإنما جمع السمٰوات لأنها طبقات منفصل بعضها عن بعض، بخلاف الأرض، والآيةُ في السماء هي: ارتفاعها بغير عمد، وما يرى فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والمجرات، وحركة هذه الكواكب ودورانها، كما قال سبحانه ﴿كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والآية في الأرض ما يرى فيها من الجبال، والبحار، والمعادن، والأنهار، والنباتات، والثمار، والأشجار ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، ويمضي النهار فيعقبه الليل، ويأخذ هذا من هذا، فأحياناً يطول الليل ويقصر النهار، وأحياناً يقصر الليل ويطول النهار، حسب الأمكنة والأوقات، وحسب قرب البلاد وبعدها عن القطب الشمالي، أو خط الاستواء، فالبلاد القريبة من القطب الشمالي، أيامُها الصيفية أطول، وليلُها أقصر، من أيام البلاد البعيدة عنه، وهكذا يتعاقب الليل والنهار، لتحصل مصالح العباد، لأن انتظام أحوال البشر، بسبب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب الراحة والنوم يكون في الليل

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ص: ٢٥.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي والسفن الضخمة الكبيرة، التي تسير في البحر، وتجري على سطح الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال، بما فيه تحصيل مصالح الناس، من أنواع البضائع والسِّلع التجارية، والآيةُ في هذه السفن، هي تسخيرها وجريانها على وجه الماء، مع ضخامتها وما تحمله على ظهرها من أثقال، والماء خفيف لطيف، فكيف حمل هذه السفن الضخمة على سطحه ولم تغص فيه، مع أن الحصاة الصغيرة لو طرحناها في الماء لنزلت إلى قعره؟ فسبحان من سيَّرها بقدرته، وأجراها برحمته، لتنقل ذرية بني آدم، من قطر إلى قطر ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[1] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وما أنزله الله من المطر، من السحاب الذي يعلو في السماء، فينزل قطراتٍ قطرات، به حياة البلاد والعباد، وبه إنعاش البشر، وإخراج النبات والأرزاق، والآية في إنزال المطر، أن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع، من حيوانٍ، ونبات، وشجرٍ، وثمر، ولولاه لما عاش إنسان ولا حيوان ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2] ثم نزوله عند وقت الحاجة بمقدار المنفعة كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[3] فلو زاد على القدر المطلوب، لأهلك الحرث والنسل، وخرَّب ودمَّر، كما يحدث في بعض الأوقات من السيول المدمرة وسمَّى تعالى السحاب سماءً، لأن كلَّ ما علاك فأظلَّك فهو سماء كما قال أهل اللغة، والمطر إنما ينزل من السحاب، بنص القرآن العظيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَىٰ الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾[4] والودقُ: هو المطر

---

(١) سورة يس، آية: ٤١.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.
(٣) سورة المؤمنون آية ١٧.
(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٨.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على «أنزل» أي وما نشر وفرَّق في الأرض، من كل ما يدبُّ عليها من إنسان، وحيوان، وهوام، وزواحف، المختلفة في أشكالها، وألوانها، وأحجامها، والدابة تجمع الحيوان كلَّه «الفيل، والبعير، والغزال، والشاة، والزواحف» وغيرها مما لا يحصى من أنواع الدواب، وكلها من مخلوقات الله، كما قال سبحانه: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ، إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] والآية فيها اختلافَ الأصوات، والأشكال، والألوان، والأحجام، فمنها المنتصب القامة كالإنسان، ومنها الذي يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها الذي يمشي على أربع كالبعير وسائر الحيوانات ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها، جنوباً وشمالاً، حارة وباردة، ليِّنةً وعاصفة، عقيماً وملقّحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[2] ومنها رياح تأتي بالخير والمطر وهي رياح الرحمة، ومنها ما يأتي بالعذاب والبلاء، كرياح الهلاك والتدمير ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[3] وفي تصريف الرياح تربيةٌ للنباتات، وبقاء للحيوانات، ولو أمسك الله الرياح ساعة، لأنتن ما بين السماء والأرض، والريح جسم لطيف وهي مع ذلك في غاية الشدة والقوة، تقلع الأشجار والصخور، وتخرِّب البنيان والدور ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي والسحاب المذلَّل بين السماء والأرض بقدرة الله، يسير حيث شاء الله، وهو يحمل الأطنان من المياه العذبة، ثم يصبه على الأرض قطراتٍ قطرات، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة، التي تسيل منها الأودية الواسعة، يبقى معلقاً بين

---

(١) سورة النور، آية: ٤٣.

(٢) سورة النور، آية: ٤٥.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٤١ ـ ٤٢.

السماء والأرض، فكيف حمل السحاب هذه الملايين من الأطنان من الماء؟ ثم قال تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة، دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة، وختم الآية بقوله: ﴿لقوم يعقلون﴾ أي يتفكرون بعقولهم في دلائل وجود الله ووحدانيته، ويدركون عظمة الله وجلاله، وقدرته وسلطانه، فيعرفون الخالق من آثار الخلق، والمبدع من بدائع الصنع.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة، من دلائل القدرة والوحدانية، ومن عجائب المخلوقات، التي بثَّها سبحانه في هذا الكون، ثمانية أنواع، تنبيهاً على ما فيها من العظات والعبر، فإن المتفكر في هذه الأمور، يقطع بأنها من صنع إله قادرٍ، مدبّر حكيم، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿لآيَاتٍ لقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة والحماقة، أن يعبد غير الله، من الأوثان والأصنام، ويجعلها أشباهاً ونظراء مع الله، كأنها تخلق وترزق، وهي حجارة صماء بكماء، لا تسمع ولا تنفع، ولا تدري من دعاها ممن دحاها ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ أي يعظّمونهم ويطيعونهم ويخضعون لهم، كحب المؤمن لله، فيسوُّون بين محبة الله ومحبة الأوثان، كأنهم في المنزلة سواء، وهذا عين الزيغ

والضلال، إذ كيف يُسوَّى بين الإله والحجر؟ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي وحب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد، لأن محبتهم لله لا تنقطع، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض موهومة فاسدة، ولذلك كان المشركون يعدلون عن آلهتهم إلى الله عند الشدائد، ويعبدون الصنم زمناً ثم يعبدون غيره ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي ولو رأى الظالمون الذين عبدوا غير الله، حين يشاهدون العذاب الأليم، المعدَّ لهم يوم القيامة، أن القدرة كلَّها لله وحده، لا ينفع ولا يضرُّ غيره ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وأن عذاب الله أليم شديد!! وجواب «لو» محذوف للتهويل أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة، ولاستعظم الإنسان ما حلَّ بهم من العذاب.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي حين تبرأ المتبوعون من الأتباع، والرؤساء المضلون من الأنصار الأشقياء الذين قلَّدوهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي وعاينوا عذاب الله الشديد، وتقطعت بينهم روابط المحبة والألفة، وانقلبت إلى عداء.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي وتمنى الأتباع لو أن لهم عودة ورجعة إلى الدنيا، ليتبرأوا من أولئك الزعماء الذين أضلوهم، كما تبرءوا هم منهم في ذلك الموقف العصيب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي كما أراهم الله العذاب، فذاقوه وعاينوه، كذلك يريهم أعمالهم القبيحة، ندامات شديدة، وحسرات تتبعها زفرات، تتردَّد في صدورهم، وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، لأنهم في عذاب سرمدي في نار جهنم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ نزلت في المشركين الذين حرَّموا على أنفسهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، والخطابُ عام يشمل جميع البشر، والمعنى: كلوا يا معشر الناس ممَّا أحلَّه الله لكم مما في الأرض ﴿حَلالاً طَيّباً﴾ أي حال كونه حلالاً مستطاباً في نفسه، غير ضار للأبدان والعقول، والمراد بالطيب الحلال الذي أباحه الله لعباده ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي ولا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيّنه لكم من المنكرات والفواحش، والخُطُواتُ جمع خُطْوة وهي ما بين قدمي الماشي، يقال: اتَّبع خُطُواته: إذا اقتدى به ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ بيانٌ لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، والسوء والفحشاء ما أنكره العقلُ، واستقبحه الشرع، وقيل: السّوءُ يعمُّ القبائح، والفحشاء ما يجاوز الحد من الكبائر ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كقولكم هذا حلالٌ، وهذا حرام بغير علم، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لا يجوز إسناده عليه ومعنى: ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ما لا تعلمون أن الله تعالى أمر به، والقول على الله تعالى بغير علم، من أعظم أصول المحرمات، فإنه أصل الأديان الباطلة، ومنشأ تحريف الأديان المحرَّفة، كما فعل اليهود والنصارى في شرائعهم، ومن عموم الجهل أن أكثر المسلمين لا يشعرون بهذا، فيقولون: هذا حرام، هذا حلال، هذا مندوبٌ أو مكروه من غير معرفة ولا دليل، والتحليل والتحريم حقُّ الله وحده، كما نبَّه سبحانه بقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الكَذِبَ﴾ وقد أمر الله بالتَّثَبُّتِ والرجوع إلى أهل العلم عند عدم المعرفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين، على وجه النصيحة والإرشاد: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والإرشاد، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والفساد ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من العقائد والعبادات، أُمروا باتباع القرآن فجنحوا إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد، قال تعالى رداً عليهم ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ الاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، أي أيتَّبعون آباءهم ولو كانوا أغبياء سفهاء؟ ليس لهم عقل، يردعهم عن الغيّ والضلال، ولا بصيرة تنير لهم طريق الهدى والخير!؟.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾ هذا مثلٌ ضربه للكفار، في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الواضحة، أي ومثل هؤلاء الكفار، العُمي عن هداية الله، كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي لا تفهم مراده، ولا تدرك غرضه، إنما تسمع النداء والصوت، دون أن تفهم الكلام والمراد، والمعنى: إنَّ الكفرة لانهماكهم في التقليد، لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلىٰ عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر، فهم في ذلك كالبهائم، التي يُنعق عليها، وهي لا تسمع إلاّ دويّ الصوت، ولا تفهم ما تحته[1]، يُقال: نعق الراعي: إذا صاح بغنمه

(١) ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الروعة والإبداع، فمثَّل لهم في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الساطعة، بمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت، دون أن تفهم المراد والكلام، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة، لا تفهم ولا تعقل ما يُقال لها، يسمعون القرآن ويصمُّون عنه الآذان، فمثلهم كمثل من يصيح بالماشية، يمر النداء على آذانهم يسمعونه ولا يفقهونه.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً لأن طرق التعقل هو التدبر في مبادىء الأمور المعقولة، وذلك إنما يحصل باستماع آيات الله، ومشاهدة حججه، فإذا كانوا صماً، بكماً، عمياً، فقد انسدَّ عليهم أبواب التعقل، وطرق الفهم بالكلية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لمَّا وسَّع الأمر على الناس كافة، وأباح لهم ما في الأرض، سوى ما حرَّم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا، وأمرهم أن يقوموا بحقوق النعم، فقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي تخصونه بالعبادة، وتقرُّون أنه تعالى مُولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلاّ بالشكر له، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله طيب لا يقبل إلاَّ طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء، يقول: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربُه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك»[1].

(١) أخرجه مسلم في الزكاة رقم ١٠١٥ والترمذي في التفسير رقم ٢٩٩٢.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي أكلها والانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، وأُبِيحَ من الميتة: السمكُ، والجراد، للحديث الشريف قال ﷺ: «أحلّت لنا ميتتان، ودمان: السمكُ والجراد، والكبدُ، والطحال»[1] وحكمةُ تحريم الميتة، أنَّ الدم يكون ضاراً، وإذا احتبس دمه فيفسد، وتفسد العضلات ويحصل منه ضرر عظيم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أي مسفوحاً لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وكانت العرب في الجاهلية، تجعل الدم في مصارين ثم تشويه وتأكله، فحرَّم الله تعالى ذلك ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان، وسائر أجزائه كالتابع له، وقد أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم، وحكمة تحريم الخنزير للضرر والاستقذار، لملازمته للقذارات، وأما كون لحم الخنزير ضاراً، فهو مما يثبته الطب الحديث ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي رفع به الصوتُ عند ذبحه للصنم، والإهلالُ: أصلهُ من رؤية الهلال، فقد جرت العادة أن يُرفع الصوتُ بالتكبير، إذا رؤي الهلالُ، لذلك سمي إهلالاً، أي وما ذبح للأصنام، وهذا حرام لسببٍ ديني محض، لا لأجل الصحة والنظافة، والمراد قول أهل الجاهلية: باسم اللات والعزَّى، وكانوا يرفعون أصواتهم بذكرهما ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ألجيء وأُحْوِج إلى أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ متجاوزٍ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعد مقدار الحاجة، والإباحةُ للاضطرار فيقدر بقدر ما تندفع الضرورة، واستدل بعموم الآية على جواز أكل المضطر ميتة الخنزير والآدمي خلافاً لمن منع ذلك ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل، بل يأثم بترك التناول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلذا أسقط الحرمة في تناوله، وقيل: الحرمةُ باقية إلا أنه يسقط الإثم لاضطراره، كما هو الظاهر من تقييد عدم الإثم، والمغفرةُ إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه تعالى ستر عيبه، ثم رآه مفلساً فرحمه، وإذا ذكرت بعد الرحمة، يكون معناها أنه تعالى رأى عجزه، فترك عقابه، وستر ذنبه.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الأطعمة من حديث ابن عمر مرفوعاً رقم ٣٣٥٧.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

نزلت في رؤساء اليهود، الذين كتموا ما أنزل الله تعالى من صفة الرسول ﷺ طمعاً في حطام الدنيا، وحفاظاً على رياستهم الموهومة التي كانوا يتسلطون بها على رقاب الناس، فيأكلون أموالهم بالباطل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي يخفون صفة النبي المذكورة في التوراة ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون به عوضاً حقيراً من حطام الدنيا مقابل هذا الكتمان ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي أولئك الأشرار الفجار، إنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة، شبَّه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، برضَفٍ من جهنم يأكلونه يوم القيامة، زيادة في التقبيح لهم والتشنيع عليهم، بتصويرهم بصورة من امتلأ بطنه من السُّحْتِ، فأردى به في نار جهنم، وسُمي مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وهذا أسلوب معروف في لغة العرب، وجاء به القرآن، كقوله تعالى في آكل مال اليتيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1] وهكذا يلتقي الكاتمون مع آكلي أموال الأيتام في الإجرام ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي لا يكلمهم سبحانه كلام رضى كما يكلم المؤمنين، بل كلام سخط وغضب، كقوله سبحانه في الكفار ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فالمنفيُّ هنا هو كلام اللطف والرضا، لا كلام الغضب والسخط، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ مَا

(١) سورة النساء، آية: ١٠.

لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾؟ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم زاد تبارك وتعالى لهم في العقوبة والنكال فقال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهّرهم من دنس الذنوب، يوم يتطهر المؤمنون من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم فوق ذلك عذاب مؤلم وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي استعاضوا عن الهدى بالضلالة، وأخذوا الكفر بدل الإيمان، والعذاب بدل المغفرة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؟ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟! وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الفجار، على اقتحام النار مع ما نالهم من غضب الله وسخطه.

ثم بيَّن تعالى سبب هذا السخط والعذاب فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه، بسبب أن الله أنزل كتابه «التوراة» بالحقِّ، فكتموا وحرَّفوا ما فيه طمعاً في حطام الدنيا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن اليهود والنصارى الذين اختلفوا في تأويل التوراة وتحريفها، وتحريف الإنجيل، لفي خلافٍ بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشد العذاب.

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الخطاب لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» الذين اختلفوا في كتابهم اختلافاً كبيراً، صاروا بسببه في جدالٍ وشقاق، ومن أسباب شقاقهم خوضهم في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة المشرفة، وادعت كل

طائفة أن البِرَّ هو التوجه إلى قبلته، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعل الخير وعملُ الصالحات، مقصوراً على أمر القبلة، أن تتوجهوا في صلاتكم جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكنَّ البرَّ الذي ينبغي أن يُهتم بشأنه، والذي ينال به الإنسان رضى ربه، هو بِرُّ من آمن بالله وحده، إيماناً بريئاً من شائبة الضلال والإشراك، وآمن باليوم الآخر، وبجميع الملائكة، والكتب، والرسل الكرام، من غير تفريق بين أحدٍ منهم ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي وأعطى المال على محبته له، وشحّه به، ذوي القرابة منه، فإنهم أولى بالمعروف، وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، والمساكين المعدمين الذين لا مال لهم، وفي الحديث الشريف «أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال يا رسول الله: أيُّ الصدقة أعظم أجراً عند الله؟ قال: أن تَصَدَّق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان»[1] ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي وأعطى المال أيضاً لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله، سُمّي به لملازمته للطريق، فكأنه ولد منه، وهو الغريب الذي فقد ماله، وللسائل المحتاج الذي يسأل المال بدافع الحاجة، وفي فكِّ الأسرى والأرقاء لتخليصهم من الرق، وهو الذي عناه تعالى بقوله: ﴿وفِي الرِّقَابِ﴾ أي فكِّ الرقاب، فهذا هو البرُّ ببذل الأموال على وفق مراد الله، في المصارف المذكورة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أدى الصلاة المفروضة عليه، التي هي أهمُّ أركان الإسلام، ودفع زكاة ماله إلى المحتاجين، فأدى حقَّ الله وحقَّ عباده ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، والعهد هنا عام يشمل حقوق الحق، وحقوق

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة مرفوعاً رقم ١٠٣٢.

الخلق ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي والصابرين على الشدائد والمكاره، في الأنفس والأموال، وحين اشتداد القتال، وهو منصوب على المدح، لبيان فضل الصبر على سائر الأعمال، و﴿البأساء﴾ المراد بها: الفقرُ والفاقة، و﴿الضراء﴾ المراد بها: المرضُ ومصائب البدن ﴿وحِينَ البَأْسِ﴾ أي وقت اشتداد الحرب في المعركة، ومجاهدة العدو، ومنه حديث: «كنا والله إذا حمي الوطيس، واشتدَّ البأس، واحمرَّتِ الحَدَقُ نتقي برسول الله ﷺ»[1]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف، هم الصادقون في إيمانهم، والكاملون في خشيتهم لله، والفائزون بمرتبة التقوى. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها تصريحاً أو تلويحاً، فإنها ـ بكثرتها ـ منحصرة في ثلاثة أشياء: ١ ـ صحة الاعتقاد. ٢ ـ وحسن المعاشرة. ٣ ـ وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين﴾ وإلى الثاني بقوله: ﴿وآتى المالَ على حبه﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ إلى آخر الآية. ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق نظراً إلى إيمانه، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق، ومن عمل بهذه الآية، فقد استكمل الإيمان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

(١) أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٧٦ ولفظه عند مسلم «قال البراءُ: كنَّا والله إذا احمرَّ البأس ـ أي اشتدت الحرب ـ نتَّقي برسول الله ﷺ، وإنَّ الشجاع منّا للذي يُحَاذي به».

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية التي يبتنى عليها أمر المعاش والمعاد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ أي فُرض عليكم عند مطالبة صاحب الحق، والوجوب بالنسبة إلى الحكام، أو القاتلين، ﴿ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ﴾ أي بسبب قتلهم، عُدّي القصاصُ بفي لتضمنه معنى المساواة، إذ معناه أن يُفعل بالإنسان مثل ما فَعَل، والمعنى: فُرض عليكم اعتبار المساواة بين القتلى ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ ﴾ مبتدأ وخبر، أي الحرُّ مقتولٌ بالحرِّ، ﴿ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي والعبد يُقتل بالعبد، ولا يُقتل به الحرُّ، والأنثى تُقتل بالأنثى ولا يُقتل بها الرجل، فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبدُ العبدَ فاقتلوه به، ولا تعتدوا بقتل غير القاتل، والآية نزلت رداً على عدوان أهل الجاهلية، فقد كانوا إذا كان لبعضهم قوة وفضل، وقُتل عبدٌ منهم قالوا: لا نقتل به إلاَّ حراً، وإذا قتلت أنثى قالوا: لا نقتل بها إلاَّ رجلاً، وإذا قُتل واحد قالوا لا نقتل به إلاَّ اثنين أو خمسة، فنزلت الآية تأمر بقتل الجاني فقط دون العدوان.

يروى أن واحداً قتل إنساناً من أشراف العرب، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول، وقالوا: ماذا تريد؟ فقال: إحدى الثلاث، قالوا: ما هي؟ قال: إما تحيون ولدي، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا جملة قومكم حتى أقتلهم، ثم لا أرى أني أخذت عوضاً، وظلموا بمثل ذلك، فلما بعث الله الرسول ﷺ أوجب رعاية العدل، وسوّى بين العباد ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ أيُّ شيءٍ من العفو، وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام، في إسقاط القصاص، والمراد من الأخ ولي المقتول، وفيه الإشارة إلى أن الأخوة الإسلامية لا تنقطع بالقتل ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أي فليكن اتباع أو فالأمر اتباع والمراد به وصية العافي بأن يطالب الدية بالمعروف من غير تعنيف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان، وهو أن لا يمطل ولا يبْخسْ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم المذكور من العفو وأَخْذِ الدية ﴿ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع،

فشرعة العفو تسهيل على القاتل، وشرعة الدية تنفيع لأولياء المقتول ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف فتجاوز بأن قتل غير القاتل، أو بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُۥ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إما في الدنيا بالاقتصاص بما قتله بغير حق، وإما في الآخرة بعذاب النار.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرَّف القصاص ونكَّر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة النفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتصَّ من القاتل، سلم الباقون ويصير ذلك سبباً لحياتهم ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يا ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص، فمن لا عقل له يهديه إلى هذا الفكر، لا يحصل له ذلك التأمل، فلهذا أخصَّ الله سبحانه بهذا الخطاب أولي الألباب[1]، واللبُّ: العقل الخالص من الشوائب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون محارم الله، وتزجرون عن العدوان وسفك الدماء.

---

(١) اتفق علماء البيان على أن الآية الكريمة: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات الفصاحة والبيان، ونُقل عن العرب في هذا المعنى قولهم «القتلُ أنفى للقتل» وفضل الآية عليه من وجوه: ١ ـ قلة الحروف. ٢ ـ الاطراد في الآية، إذ في كل قصاص حياة، وليس كل قتل أنفى للقتل، فإن القتل ظلماً أدعى للقتل. ٣ ـ خلو الآية من التكرار اللفظي، بخلاف حكمة العرب. ٤ ـ عذوبة اللفظ في الآية. ٥ ـ الطباق بين لفظ «القصاص» و«الحياة» إلى غير ما هنالك من الفوارق التي تجدها في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية القصاص سبباً للحياة، والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزم الحياة، وانظر بقية الوجوه البيانية، في كتاب الإتقان للسيوطي.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي حضر أسبابه، وظهرت أماراته ومعنى حضر الموت أي أشرف على الموت وصار في النزع ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً، وقيل: مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله عنه أن مولىً له أراد أن يوصي، وله سبعمائة درهم فمنعه، وقال: قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً﴾ والخيرُ المال الكثير[1]، وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصي، فسألت كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْراً﴾ فإن هذا الشيء يسير، فاتركه لعيالك[2]، والظاهر أن الكثرة غير مقدرة، بل تختلف باختلاف حال الرجل، وكثرة عياله، وذهب الزهري أن الوصية مشروعة، قلَّ أو كثر المالُ ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ مرفوع بكُتب وكان هذا الحكم في بدء الإسلام، ثم نسخ عند نزول آية الموارث، بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كلَّ ذي حقّ حقه، ألاَ لا وصية لوارث»[3] والحديث تلقته الأمة بالقبول، فانتظم في سلك المتواتر، في صلاحية النسخ، على أن التحقيق أن الناسخ هي آية المواريث وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون، وإليه ذهب الأكثرون ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي حق على المؤمنين الذين يتقون.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ غيَّره من الأوصياء والشهود ﴿ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ ﴾ أي إثم التبديل ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ على

---

(١) رواه البيهقي وجماعة عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أبي أمامة مرفوعاً.

مبدّله، لأنه هو الذي حاف وخالف الشرع وإيثار الجمع للإيذان بشمول الإثم لجميع الأفراد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدِّل بغير حق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ أي توقع وعلم، والمراد بالخوف الظنُّ الغالبُ الجاري مجرى العلم ﴿جَنَفًا﴾ أي ميلاً بالخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف في الوصية ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي وبين الموصَى لهم، بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول، وقيل هذا في حياة الموصى أي فمن حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه، وحمله على الصلاح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة، ثم يحضرهما الموت، فيضارّان في الوصية فتجب لهما النار»[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الوصايا رقم ٢١١٧ وزاد في آخره ثم قرأ عليَّ أبو هريرة =

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بيان لحكم آخر، وتكرير النداء لإظهار الاعتناء بهم ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ الصيام لغةً: الإمساكُ، ومنه يقال للصمت: صومٌ، لأنه إمساك عن الكلام، وشرعاً: إمساك عن أشياء مخصوصة، على وجه مخصوص، والمراد به صيامُ شهر رمضان، خُصَّ هذا الشهر بهذه العبادة، لأن فيه إنزال القرآن، وأضيفت فيه هداية الرحمٰن، وحصل فيه الظفر ببدر بنصر العزيز المنَّان، وكان جبريل عليه السلام يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ أي فرض عليكم صومه كما فرض ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء والأمم، وعن ابن عباس ومجاهد أنهم أهل الكتاب، وفيه توكيد الحكم، وترغيب على الفعل، وتطييب للنفس، فإنَّ الأمور الشاقة إذا عمَّت طابت وسهل عملها، والمماثلة في أصل الوجوب، وقد كتب الصوم على أهل الملل السابقة، فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادة، وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه على الذين من قبلنا، إشعارٌ بوحدة الدين في أصوله ومقصده، ويروى أن صوم رمضان كان مكتوباً على اليهود والنصارى، ثم غيَّروه فتركه اليهود، إلاَّ صوم يوم من السنة، زعموا أنه اليوم الذي أُغرق فيه فرعون، وزاد النصارى فيه حتى بلغ خمسين، فصعب عليهم في الحر فنقلوه إلى زمن الربيع ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لعلكم تنتظمون به في زمرة المتقين، فالصوم إنما فُرض لمنفعتنا، لأنه يعدُّنا للسعادة، وإعدادُ الصيام نفوسَ الصائمين بتقوى الله سبحانه من وجوه:

١ ـ أعظمها أن الصوم أمرٌ داخلي، موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب لأحدٍ عليه، إلاَّ لله سبحانه وتعالى، وهو سرٌّ بين العبد وربه، فإذا ترك الصائم شهوته ولذته، مدة شهر، امتثالاً لأمر ربه، ملاحظاً عند

= ﴿من بعد وصيةٍ يُوصَىٰ بها أو دَيْنٍ غير مضار..﴾ الآية وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

عروض كل رغبة جسدية، من أكلٍ نفيس، وشراب لذيذ، وزوجة فاتنة، أنه لولا اطلاع الله عليها، لما صبر على ترك تلك الشهوات، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة «ملكة المراقبة» لله تعالى، والحياء منه أن يراه حيث نهاه، وهذه المراقبة الدائمة من كمال الإيمان، كما جاء في الحديث القدسي: «يَدَع طعامَه وشهوتَه من أجلي» وهي أكبر وسيلة لسعادة الروح، فهل يُقدم من تُلابس هذه المراقبة قلبَه، على غشّ الناس ومخادعتهم؟ كلا!! إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي، لأن الصوم ربى نفسه.

٢ ـ ومن الوجوه الاجتماعية، أن الصائم عندما يجوع، يتذكر الفقير الذي لا يجد قوتاً، فيحثُّه التذكر على الرأفة والرحمة بعباد الله، فيمدُّ إليهم يد العون والإحسان.

٣ ـ ومن الوجوه أيضاً أن الصوم يُصفّي نفس الإنسان، ويهذّب لسانه وسلوكه، وينقل الإنسان من «حيوانية» الأرض، إلى «ملائكية» السماء، فيجعله كالملائكة الأبرار الأطهار، الذين ليس لديهم ميل إلى المخالفة والعصيان، ومن أجل ذلك شُرع الصيامُ.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي هذا الصيام أيامُه معدودات، وهي أيام قلائل، فلم يفرض الله على عباده صيام الدهر، حتى لا يشقَّ عليهم، وإنما جعله شهراً واحداً في السنة، رأفة ورحمة بهم، وأحد عشر شهراً يتقلبون في لذائذ الطعام، والشراب، والمتعة الجسدية، فما أرحم الله عزَّ وجلّ بعباده؟!.

متى شُرع الصيام؟

عن عائشة قالت: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان

ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه»[1] وكانت فريضة رمضان في السنة الثانية من الهجرة، قبل غزوة بدر، لسبع عشرة خلت من رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضرُّه الصومُ، ويعسر معه، أو يخاف من الصوم زيادة المرض، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء بأنَّ من سافر أثناء اليوم لم يُفطر، ولهذا أُوثر على قوله «أو مسافراً» فمعنى الآية: من كان عند دخول رمضان مريضاً، أو مشتغلاً بالسفر فعلاً، فأفطر فعدة من أيام أخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب، وأكثر العلماء على تقييده بما يلزمه العسر غالباً، وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدة أيام المرض، أو السفر، من أيام أخر، إن أفطر، فالمريض والمسافر إن شاءا صاما، وإن شاءا أفطرا، ومذهب الظاهرية وجوب الإفطار وهو غريب ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هي قدر ما يأكله كلَّ يوم، وهي نصف صاع من بر، أو صاع من غيره، وكان ذلك في بدء الإسلام، لما أنه قد فرض عليهم الصوم، وما كانوا متعودين له، فاشتد عليهم، فرخص لهم في الإفطار والفدية، ثم نُسخ، كما روي عن سلمة بن الأكوع قال: «لمَّا نزلت ﴿وعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ كان من شاء منَّا صام، ومن شاء أفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فصارت هذه الآية ناسخةً للتخيير»[2] ومن الناس من لم يقل بالنسخ، وفسرها بأن المراد يصومونه على جهدهم، لأن الإطاقة أدنى درجة المكنة، والقدرة على الشيء، فلا تقول العرب: أطاق الشيءَ إلاّ إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف، بحيث يتحمل به مشقة شديدة، قالوا: والآية نزلت في الشيخ الكبير، والعجوز الهرمة، وقيل معناه: «لا يُطيقُونَهُ» فأضمر «لا» لقراءة حفصة كذلك ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية، قاله

---

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة رقم ٥٤٠٤ في كتاب التفسير.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم ٤٥٠٧ ومسلم رقم ١١٤٥ في الصيام.

مجاهد، أو جمع بين الإطعام والصوم، قاله ابن شهاب ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ عند ربه ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي والصوم خير لكم من الفدية، أو من التأخير إلى أيام أخر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة والأجر العظيم!!.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتُدىء فيه نزول القرآن الكريم، وإلاَّ فإنَّ القرآن نزل في جميع شهور السنة، في مدة ثلاث وعشرين سنة، وأمَّا ابتداء نزوله فكان في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه على وجه الخصوص لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقيل: نزل جميع القرآن من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم نزل مفرَّقاً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهو مروي عن ابن عباس ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي أنزله الله هداية للناس بما فيه من الإيجاز والإعجاز، وبما فيه من الآيات الواضحات، التي تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فهو كتاب فريد، معجز في بيانه، واضح في أحكامه، جمع الله فيه الحلال والحرام، والحِكَم والأحكام ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن حضره الشهر[1]، ولم يكن مريضاً أو مسافراً، فليصم شهر رمضان، فإن الله ما فرض صيامه إلاَّ لتذكيرنا بنعمة القرآن، التي هي أجلُّ النعم بعد نعمة الإيمان ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضاً مرضاً يشقُّ عليه، أو مسافراً سفراً طويلاً شرعياً، فأفطر بسبب المرض أو السفر، فعليه صيام أيام أُخَر، بعدد الأيام التي أفطرها، ولا يشترط في السفر أن يكون على الدواب أو الأقدام، بل يحقُّ له

---

(١) المراد بقوله سبحانه: ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ هو حضور الشهر أي من حضره دخول الشهر، وهو حي غير ميت، ومقيم غير مسافر، فعليه أن يصومه، وليس معنى «شهد» أنه رأى الهلال وشاهده بنفسه، فإن الصوم يجب برؤية شاهد عدل لقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» فتنبَّه والله يرعاك. الصابوني.

الإفطار ولو كان بالسيارة أو الطائرة، بشرط أن تزيد المسافة على تسعين كيلو متراً، وهي مقدار ثلاثة أيام على الدواب مع الاستراحة، وهي المسافة التي تقصر فيها الصلاة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد الله أن ييسّر عليكم ولا يُعسِّر، فلذلك أباح لكم الفطر في السفر والمرض ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي ولتكملوا عدة صيام الأيام التي أفطرتم فيها، بسبب السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي ولتحمدوا ربكم، على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا الله على فضله وإحسانه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ سببها أن قوماً من الأعراب قالوا يا رسول الله: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ـ أي ندعوه سراً ـ أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية، أي إنني مع عبادي، أسمع دعاءهم، وأعلم حالهم، وأعرف تضرعهم، وأقضي حوائج السائلين، فأنا قريب منهم، وفي الصحيح: «إنَّ الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته»[1] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعاء من دعاني، إذا كان عن إيمان، وصدق طلب.

قال ابن كثير: والمراد من هذا أنه تعالى لا يُخيِّب دعاء داعٍ، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه[2]، وفي الحديث الشريف: «ما على ظهر الأرض من رجلٍ مسلمٍ، يدعو الله عزَّ وجلّ بدعوةٍ، إلاَّ آتاه الله إيَّاها، أو كفَّ ـ أي صرف ـ عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[3] ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه، من الإيمان والطاعة، كما أجيبهم إذا دعوني لمهمَّاتهم، ولْيثبتوا على إيمانهم،

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان، وانظره في جامع الأصول ٤/ ١٦١.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٢٢٤.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند، ورواه الترمذي رقم ٣٥٦٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب وزاد فيه «فقال رجل من القوم: إذاً نُكْثِرُ، قال اللهُ أكثر».

في أن ربهم سميع مجيب، راجين إصابة الرشد والسداد، وإنما وردت آية الدعاء ضمن آيات الصيام، للتنبيه على أن هناك أوقاتاً للإجابة، منها يوم الجمعة، ووقت السحر، وعند فطر الصائم، كما جاء في الحديث الشريف: «إن للصائم عند فطره لدعوةً ما تُردُّ»[1]!! فينبغي للداعي أن يحرص على الأوقات الفاضلة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر آيات الدعاء، شرع في بيان تتمة الأحكام التي تتعلق بالصيام، فقال سبحانه:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي أبيح لكم يا معشر الصائمين جماع النساء في ليالي رمضان، ولفظة «أُحِلَّ» تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، روي أن المسلمين كانوا إذا دخل المساء، أُحلَّ لهم الأكل والشربُ والجماع، إلى أن يصلُّوا العشاء أو يناموا، ثم إن جماعةً من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم، منهم «عمر بن الخطاب» جاء إلى امرأته فأرادها، فقالت له: قد نمتُ، فظنَّ أنها تعتلُّ فوقع بها، ثم تحقق أنها كانت قد نامت، فجاء إلى رسول الله ﷺ يشكو

(١) أخرجه البيهقي كما في الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٨٩ ورواه الترمذي بلفظ: «ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم».

أمره، وجاء رجال كذلك فاعترفوا بما صنعوا واعتذروا، فأنزل الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي أبيح لكم طيلة الليل في رمضان، معاشرة النساء وجماعهن، والرَّفثُ: كنايةٌ عن الجماع، وأصله قول الفُحش وإنما ذكره هنا بلفظ الرفث، استقباحاً لما وُجد منهم قبل الإباحة، قال الزجَّاج: الرفثُ كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قُبلةٍ، ولمسٍ، وملاعبةٍ، وجماع؛ قال الشاعر:

ويُرِيْنَ من أُنْسِ الحديث زوانياً وبهنَّ عن رَفَث الرجال نِفار

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي هنَّ سكنٌ لكم وسِترٌ، وأنتم سَكَنٌ لهنَّ وسِتْر[1]، وهو استئنافٌ يبيّن سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن، لكثرة المخالطة وشدّة الملابسة، ولمّا كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه، شُبِّه باللباس، ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب والاختيان أبلغ من الخيانة، ويقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لمَّا تبتم مما اقترفتموه ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره أي ما فعلتم قبل الرخصة، فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم

---

(١) قال ابن عباس: أراد الله به الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجلّ كريمٌ حليم يكني، فكلٌّ من الزوجين سكنٌ للآخر.

أقول: الآية جاءت في غاية الروعة والإبداع في تصوير «العلاقة الجنسية» وسلكت ـ بطريق الاستعارة ـ مسلكاً أفاض عليها البهاء والجمال، فقد شبَّه المرأة باللباس، الذي يزيّن الإنسان، ويستر قبحه، ولولا اللباس لبدت سوءة الرجل، فكان منظره قبيحاً تنفر منه الطباع، فالمرأة ستر للرجل وسكن له، تزيّنه وتكمّله وتجمّله، والرجل ستر للمرأة، يزيّنها ويجمّلها ويسترها، وهما حالة الجماع كأنهما روحان حلاَّ في جسد واحد، بثوب واحد، فستر كل منهما الآخر، فانظر إلى روعة البيان في تصوير القرآن ﴿هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال الشاعر:

إذا ما الضجيعُ ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباساً

﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ أي بعد نسخ التحريم، آن يئين، كحان يحين وزناً ومعنىً ﴿باشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم، وهو أمر إباحة وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنى به عن الجماع لالتصاق بشرتهما ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدَّره الله لكم من الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يبدو معه من غلس الليل، بخيطين: أبيضَ، وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان الخيط الأسود، لدلالته عليه، عن عدي بن حاتم قال: لمَّا نزلت ﴿حتى يَتَبَيَّنَ لكُمْ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود﴾ عمدت إلى عقال أسود، وعقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي وجعلتُ أنظر في الليل، فغدوت على رسول الله ﷺ وذكرتُ له ذلك، فقال: إنما ذلك سواد الليل، وبياض النهار[1] وفي تجويز المباشرة إلى الفجر، دلالة على جواز تأخير الغسل إليه، وصحة صوم من أصبح جنباً ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان آخر وقته، وإخراج الليل عنه ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ معتكفون فيها، والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القربة، والمراد بالمباشرة: الوطء، وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد، وأن الوطء فيه حرام ومفسد له، لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه اللهُ عزَّ وجل»[2] ﴿تِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة، المشتملة على إيجابٍ، وتحريم، وإباحة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حدود وضعها الله تعالى لعباده وقيل يجوز أن يراد بحدود الله محارمه لأن الأوامر تستلزم النواهي، والحدُّ بمعنى المنع والحاجز بين الشيئين ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى أن يُقرب الحدُّ الحاجز

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤/ ١١٤ ومسلم رقم ١٠٩١ في الصوم.

(٢) أخرجه البخاري في التراويح ٤/ ٢٢٦ ومسلم في الاعتكاف رقم ١١٨٣.

بين الحق والباطل، لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه، وهو أبلغ من قوله ﴿لا تعتدوها﴾ وقال ﷺ «ألا وإنَّ لكلَ ملِكٍ حِمىً، ألاَ وإن حِمَى الله محارُمه»[1] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على أحكام الشرع ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولما ذكر الله سبحانه الصيام: عقَّبه بالنهي عن أكل الحرام، المفضي إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، والمرادُ من الأكل ما يعمُّ الأخذ والاستيلاء، والمراد بالباطل الحرام ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ الإدلاء: الإلقاءُ، أي لا تتوصلوا بالخصومة فيها إلى الحكام على وجه الرشوة ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ بالرفع إليهم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح، وصاحبه بالتوبيخ أحق، عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جَلَبَةَ خَصْم بباب حُجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضهم أن يكون

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في الإيمان ١/١١٧ وأوله: إن الحلال بيِّنٌ وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات..» الحديث ورواه مسلم رقم ١٥٩٩.

ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي له على ما أسمع منه، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ سأله معاذ وثعلبة فقالا، يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقاً، ثم يزيد، ثم ينقص فنزلت الآية، وكان هذا سؤالاً على وجه الفائدة، أي ما سبب اختلافها؟ ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ فأمر الله تعالى أن يجيب، بأن الحكمة الظاهرة في ذلك، أن تكون معالم للناس، يوقّتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات، والمواقيت جمع ميقات من الوقت، استعير للمكان، وكان الجواب مبنياً على الحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام، المذكرة لنعمة الله تعالى، وهي أن يكون معالم للناس، يوقّتون أمورهم الدينية والدنيوية، ولو كان الهلال مدوراً كالشمس، لم يكد يتيسر التوقيت به، والحكمة الباطنة لم يذكرها لأنه لم يطلع عليه كل أحد، وهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، فإن السؤال عن الحكمة لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم[2] ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ رُوي عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب البيوت، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَل بَابه، فكأنه عُيِّر بذلك، فنزلت[3] ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ إذ ليس

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشهادات ٥/ ٢١٢ ومسلم في الأقضية رقم ١٧١٣.

(٢) يسمى هذا في علم البديع «الأسلوب الحكيم» فالصحابة رضوان الله عليهم سألوا رسول الله عن الهلال يبدو صغيراً، ثم يكبر حتى يصبح بدراً منيراً، فَصَرفهم تعالى إلى ما هو أهمُّ من هذا الأمر الظاهر، وكأنه يقول لهم: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن كيفية بدئه صغيراً دقيقاً ثم اكتماله في منتصف الشهر، فاعرفوا الحكمة من ذلك.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٤٩٤ ومسلم في التفسير رقم ٣٠٢٦.

في العدول برٌّ فباشروا الأمور من وجوهها[1] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تظفروا بالهدى والبر، فإن من اتقى الله تعالى، تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار الإلهية حسب تقواه، وإتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي جاهدوا لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سُئلَ رسولُ الله ﷺ عن الرجلِ يقاتل شجاعةً، ويقاتل حميةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[2] قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ وقيل معناه الذين يتوقع منهم القتال دون غيرهم من المشايخ والولدان والنساء ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهد، أو بالمُثْلة، أو نحو ذلك. وعن بُرَيْدة رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيشٍ، أو سريةٍ،

---

(١) إنما كانوا يتحرجون من الدخول من الباب، حتى لا يحول سقف الباب بينهم وبين السماء، وهذا جهل منهم بحقائق الدين وتشريع الله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦/ ٢١ ومسلم في الإمارة رقم ١٩٠٤.

أوصاه بتقوى الله في خاصته، ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: أُغزُوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا مَنْ كَفر بالله، أُغْزُوا ولا تغلُّوا، ولا تَغْدِروا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً»[1] الحديث، فلا يقتل الشيوخ والنساء منهم قياساً عليهم بتلك العلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ولا يريد بهم الخير، وهو تعليل للنهي، ونهيٌ عن العدوان.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في حِلٍّ وحرم، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء، وهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها. رُوي أنَّ المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابل، وخاف المسلمون أن لا يُوَفُّوا لهم، ويقاتلوهم في الحرم والشهر الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة وقد فعل ذلك من لم يسلم يوم الفتح ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يُفتن بها الإنسان، كالإخراج من الوطن، أصعب من القتل لدوام ألم النفس بها، وقيل: شركهم في الحرم أشد من قتلكم إياهم فيه، لأنهِ ارتكاب القبيح لدفع الأقبح ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فإنهم هتكوا حِرمة المسجد، فاستحقوا أشد العذاب، فلا تبالوا بقتالهم، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل ذلك جزاؤهم، يُفعل بهم مثل ما فعلوا، لأنهم كَفرةٌ فَجَرة، لا يتورَّعون عن انتهاك محارم الله.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف، واستدل به بعض المفسّرين على قبول توبة القاتل العمد، لأن الكفر أعظمُ من القتل، والله يغفره لمن تاب وأناب.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له، ليس

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٣١ والترمذي في السير رقم ١٦١٧ وأبو داود في الجهاد رقم ٢٦١٢ وهو حديث طويل وفيه أحكام كثيرة.

للشيطان فيه نصيب، والمراد من الفتنة: الشركُ على ما هو المأثور، ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلاّ الإسلام، أو السيف، لقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أو يُسْلِمُونَ﴾ بخلاف الكتابي فأمهلهم الله بحرمة تلك الكتب من القتل ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن الشرك ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا وأسلموا فلا تعتدوا عليهم، إذ لا يحسن الظلم إلا لِمن ظلم، وتسميةُ الجزاء بالعدوان للمشاكلة[1]، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2].

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمته، فقيل لهم: هذا الشهر بذاك الشهر، وهتكه بهتكه، فلا تبالوا به ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه أي كل حرمة يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله، فادخلوا عليهم عنوة، واقتلوهم إن قاتلوكم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ سمى مقابلته بأنه اعتداء لشبهها بالمقابل به في الصورة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الانتصار ولا تعتدوا إلى ما لم يُرخِّص لكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

---

(١) معنى المشاكلة: الاتفاق باللفظ مع الاختلاف في المعنى، فالعدوان ظلمٌ، ورد العدوان ليس بظلم بل هو عدل محض، وإنما جاء اللفظ ﴿فاعتدوا عليه﴾ بطريق المشاكلة، ومثله قوله تعالى: ﴿وجزاء سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها﴾.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي في الجهاد، فإنه إذا قيّد الإنفاق بذكر «سبيل الله» فالمراد به في طريق الدين، لأن سبيلَ الله هو دينه، فكل ما أمر الله تعالى في دينه من الإنفاق، فهو داخل في الآية، سواءً كان إنفاقاً في حجة، أو عمرة، أو جهاد، أو في الزكاة، والكفارات، أو على العيال والأقارب وغير ذلك، إلاّ أن الأقرب في هذه الآية، أن يُراد بالإنفاق في الجهاد لتقدم ذكره ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ بالبخل عن الإنفاق في جهاد الأعداء، أو بالكفّ عن الغزوِ والإنفاق، فإن ذلك يُقوّي العدوَّ، ويسلطهم على إهلاككم، ويؤيده ما رُوي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: «لمَّا أعزَّ اللهُ الإسلام، وكثر أهله، رجعنا إلى أهلينا وأموالنا، فقال بعضنا لبعض سراً: إنَّ أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يرد علينا ما قلنا، فكانت التهلكةُ تركَ الغزو»[1]. والمراد لاتوقعوا أنفسكم في الهلاك، واستدل بالآية على تحريم

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٧٦ وأبو داود رقم ٢٥١٢ وله قصة بديعة ذكرها المحدِّثون، ونحن نذكرها لما فيها من العظة والعبرة، حيث كانت في غزوة هامة غزاها جماعة من سادات الصحابة، لبلاد الروم، ولنستمع للرواية كما في سنن الترمذي عن «أسلم أبي عمران قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا لنا صفاً عظيماً من الروم، فخرج لهم من المسلمين مثلُهم، فحمل رجل من المسلمين على صفِّ الروم، حتى اقتحم صفوفهم ودخل فيهم، فصاح الناس: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة؟ فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: (يا أيها الناسُ، إنكم لتتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لمَّا أعزَّ الله الإسلام، وكثُر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّاً: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه يردُّ علينا ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ «فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً ـ أي مسافراً ـ في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم» يعني في القسطنطينيَّة، وهي التي تسمى اسطنبول)، وانظر جامع الأصول ٢/ ٣٢.

الإقدام على ما يخاف فيه تلفُ النفس ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويج بمساعدتهم ومعونتهم، وأمره بالإحسان مطلقاً، يدخل فيه الإعانة بالمال، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن الذكر، والإحسان خلاف الإساءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين فيثبتهم ويرضى عنهم.

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ بيان لوجوب إتمام أفعالهما عند التصدي لأدائهما، وإرشاد للناس إلى تدارك ما عسى يعتريهم، من العوارض المخلة بذلك، من الإحصار ونحوه، والعمرة سنة على الراجح لقوله ﷺ: «الحجُّ جهادٌ، والعمرةُ تطوعٌ»[1] وإتمامهما أداؤهما بشرائطهما، بلا توانٍ ولا نقصان، فهو دليل على أن من شرع فيهما لزمه إتمامهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي منعتم، يُقال: حصره العدو، وأحصره، إذا حبسه ومنعه من المضي، وكل منع من عدوّ أو مرضٍ أو غيرهما فهو إحصار، لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من كُسِر، أو عَرِجَ، فقد حلَّ، وعليه حجةٌ أخرى»[2] قوله فقد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك رقم ٣٠٢٣ وأخرج الترمذي عن جابر أن النبي ﷺ سئل عن العمرة أواجبة هي؟ قال: «لا، وأن تعتمروا هو أفضل» قال الترمذي: حديث حسن، وروي عن ابن عباس الوجوب.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الحج رقم ٩٤٠ وأبو داود في المناسك رقم ١٨٦٢ وحسَّنه الترمذي.

حلَّ أي جاز له أن يحلَّ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فعليكم أو الواجب ما استيسر، والسينُ ليست للطلب، والمعنى: إن المحرم إذا أُحصر وأراد أن يتحلل، تحلل بذبح هدي يتيسر عليه، من بدنة، أو بقرةٍ، أو شاة، حيث أحصر عند الأكثر ولا يتحلل قبل الذبح، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ حَلْقُ الرأس كناية عن التحلُّلِ، والخطاب للمحصرين لأنه أقرب، وحمل الكثيرون بلوغ الهدي محله، على ذبحه حيث يُحصر ويتحلَّل فيه، لما روي عن ابن عمر قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر ﷺ وحلق رأسه»[1] ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحةٍ أو قمل ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روى الشيخان عن كعب بنِ عُجْرة، قال: «أتى رسول الله ﷺ عليَّ، وأنا أوقد تحت قدر لي، والقمل يتناثر على وجهي، فقال: أيؤذيك هوامُّ رأسك؟ قال: قلت نعم، قال: فاحلقْ، وصمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة، لا أدري بأيِّ ذلك بدأ» النسكُ واحدتها نسيكة أي ذبيحة، وأعلاها بدنة، وأوسطها بقرة، وأدناها شاة، ولم يبين محل الفدية، والظاهر العموم في المواضع كلها وهو مذهب الإمام مالك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي فإذا لم تُحصروا، وكنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة، قبل الانتفاع بتقربه بالحج في شهره، وقيل: من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع، شكراً لله للجمع بين النسكين، فهو كالأُضحية ويذبح يوم النحر عند أبي حنيفة، وعند الشافعي دمُ جبر يذبحه إذا أحرم. ولا يأكل منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الحج ٤/٨.

وثامنه وتاسعه، فلا يصح في النحر وأيام التشريق لكون الصوم منهياً فيها، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعمال الحج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ أي هذه مجموع عشرة أيام، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» وأن المراد بالسبعة العدد دون الكثرة، فإنها يطلق لها ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة، محافظة على العدد[1] ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع عند أبي حنيفة، إذ لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام، في حق أهل مكة، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي من كان من الحرم مسافة القصر، وعند مالك أهل مكة، وللمسجد الحرام إطلاقان: أحدهما نفس المسجد، والثاني الحرم كله، وإرادة المعنى الأخير في الآية هنا هو قول أكثر أئمة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه، وخصوصاً في الحج ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، وارتكب مناهيه، والعقابُ هو مجازاة المسيء على إساءته.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

---

(١) لمَّا جاز أن يتوهَّم متوهمّ التخيير بين الثلاثة في الحج، والسبعة إذا رجع إلى وطنه، أزيل ذلك بالجملة بقوله سبحانه: ﴿تلك عشرة﴾ وأكَّد ذلك بقوله ﴿كاملة﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته، كقولك البرد شهران ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات بين الناس، هي شوال، وذو القعدة، وعشر ذي الحجة عندنا، وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وعند الشافعي تسعة بليلة النحر، لأن الحج يفوت بطلوع الفجر من يوم النحر، وعند مالك كل ذي الحجة، عملاً بظاهر لفظ الأشهر ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي أوجبه على نفسه بالإحرام والتلبية، أو بالإحرام والنية ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع أو ذكره عند النساء أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصي، أو السباب، لقوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[1] أو التنابز بالألقاب لقوله تعالى: ﴿بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ وقال ابن عمر ما نهى الله تعالى عنه المحرم في حال الإحرام ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولامراء ولا خصومة مع الخدم والرفقة، يقال: جادل إذا اشتدت خصومته ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أيامه، حرَّم تعالى الرفث، والفسوق، والجدال، على قصد النهي للمبالغة، وللدلالة على أنها حقيقٌ بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبحة في أنفسها ففي الحج أقبح فإن زيارة البيت المعظم، والقرب بها إلى الله تعالى، من موجبات ترك الأمور المذكورة، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجَّ ولم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمُّه»[2] ثم حث على الخير عقيب النهي فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيجزي به خير الجزاء، فالخير أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسق البِرَّ والتقوى، ومكان الجدال الوفاقَ وحسن الأخلاق ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في أهل اليمن، كانوا يحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فيكونون كَلاًّ ـ أي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٣/ ٢٢ ونصُّه الكامل «سباب المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر» وأخرجه مسلم والنسائي والترمذي.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم.

عَالةً ـ على الناس، فأمروا أن يتزودوا، ويتَّقوا الإبرام في السؤال»[1].
﴿ وَٱتَّقُونِ ﴾ أي خافوا من عقابي أي أخلصوا في التقوى لله عزَّ وجلّ ﴿ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ فإن قضية العاقل خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى، ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى، فلذلك خصَّ أولي الألباب بهذا الخطاب.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ ﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا، والجناح: الإثم ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي عطاءً ورزقاً منه تعالى، يريد الربح بالتجارة لما روي عن ابن عباس قال: «كانت عُكاظُ، ومجنةُ، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فلمّا كان الإسلام فكأنهم تأثموا بأن يتّجروا في المواسم، فنزلت[2]» ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ ﴾ أي دفعتم منها بكثرة، من أفضتُ الماء إذا صببته بكثرة، وإنما سمي الموقف «عرفة» لأنه نُعِتَ لإبراهيم عليه السلام، فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر، فلما أراه قال: عرفت، والناس يتعارفون فيها، وعرفات للمبالغة في ذلك، وهي من الأسماء المرتجلة ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بالتلبية، والتهليل، والدعاء ﴿ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمى قزح، وقيل المشعر الحرام هو مزدلفة، وإنما سمي مشعراً لأنه معَلم العبادة، ومعنى عند المشعر الحرام ما يليه وما يقرب منه، فإنه أفضل، وإلا فمزدلفة كلها موقف، إلاّ وادي محسّر ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي كما علمكم وكما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها ﴿ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أي الهدي ﴿ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي الجاهلين،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٤٦ وأصله في صحيح البخاري، ٣/٣٠٣ بلفظ «كان أهل اليمن يحجُّون فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فنزلت الآية».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحج ٣/٤٧٣ وأبو داود رقم ١٧٣٢ في الحج أيضاً.

لا تعرفون كيف تذكرونه، وتعبدونه، وتؤمنون به، عن ابن عباس قال: «إن أسامة بن زيد كان رديف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة من ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى، فكلاهما قالا: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة»[1].

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع ـ أي مزدلفة ـ وسائر الناس، يقفون بعرفة، ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمروا بأن يساووهم، وأن يفيضوا من عرفات ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر، وينعم عليه، عن ابن عباس أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البرَّ ليس بالإيضاع[2] أي بالسير السريع الشديد.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج، وفرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره، وبالغوا فيه، كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخر، وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم، وقفوا

(١) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٣٢ باب التلبية والتكبير غداة النحر.
(٢) أخرجه البخاري في الحج ٣/ ٥٢٢ وأحمد في المسند ١/ ٢١١.

بمنى، بين المسجد والجبل، يذكرون مفاخر آبائهم، ومحاسن أيامهم، فيقول بعضهم: أبي كبير الجفنة، رحب الفناء، كان يقري الضيف، وكان كذا وكذا، يعُدُّ مفاخره، ويتناشدون الأشعار في ذلك، وغرضهم الشهرةُ والسمعةُ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل أكثر ذكراً من ذكر آبائكم، لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم، اذكروه بالتسبيحات والدعوات ﴿فَمِنَ النَّاسِ﴾ تفصيلٌ للذاكرين أي من الناس من لا يطلب بذكر الله إلا الدنيا ولا يريد شيئاً سواها، وهو المراد بقوله ﴿مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي اجعل إيتاءنا في الدنيا خاصة، يعني الجاه والغنى، والمشركون كانوا يقولون: اللهم أعطنا إبلاً، وغنماً، وعبيداً، ولم يطلبوا نعيم الآخرة، لأنهم ينكرون البعث ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ من نصيب، فهو بيان لحاله في الآخرة، أنه ما كان يبتغي بحجِّه ثوابَ الله، وإنما همُّه في نيل حطام الدنيا، ولذلك فَقَد نصيبه من نعيم الآخرة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الإيمان والأعمال الصالحة، والصحة، والكفاف، وتوفيق الخير، والعلم، والنصر، والعافية ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ المغفرة، والرحمة، والثواب، والجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وعن الحسن معناه احفظنا من الذنوب المؤدية إلى النار، وعن علي: الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لكل منهم نوع نصيب، من جنس ما كسبوا، أو مما دعوا به، نعطيهم منه ما قدرناه، وتسمية الدعاء كسباً لما أنه من الأعمال ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحة بصر.

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ أي كبِّروه أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار، وغيرها في أيام التشريق، روي عن ابن عمر: «أنه كان يكبّر بمنى تلك الأيام جميعاً، فيسمعه أهل المسجد، فيكبِّرون ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ منى»[1] ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ ﴾ أي استعجل النَّفر ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في تمام يومين، أي بعد النحر، والمراد فمن نفر في ثاني أيام التشريق قبل الغروب بعد رمي الجمار ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ باستعجاله ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ ﴾ أي النفر حتى رمى في اليوم الثالث ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ والمراد التخيير بين التعجل والتأخر، ولا يقدح في أفضلية الثاني، وإنما ورد بنفي الإثم تصريحاً، لرد أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فيه ﴿ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ لمن اتقى المحظورات أو اتقى فيما بقي من عمره، ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات، أو احذروا الإخلال بما ذكر من الأحكام وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ للجزاء والحساب، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق، وهو تأكيد للأمر بالتقوى، وموجب للامتثال به، فإن من علم الحشر والمحاسبة والجزاء، كان ذلك من أقوى الدواعي عنده إلى ملازمة التقوى والمراد بقوله ﴿إِلَيْهِ﴾ أنه حيث لا مالك سواه، ولا ملجأ إلا إياه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري في العيدين ٢/ ٤٦١ من فتح الباري ولفظه: «كان عمر يكبِّر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد فيكبّرون، ويكبِّر أهل الأسواق، حتى ترتجَّ مِنى تكبيراً».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس في شأن التقوى إلى حزبين، وفيه تحذير من الاغترار بظاهر القول، أي ومنهم من يروقك كلامه، ويعظم موقعه في نفسك، لما تشاهد فيه من لطف الأداء، وحلاوة اللسان، ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الدنيا فقط، أما الآخرة فالحاكم فيها علاَّم الغيوب، الذي لا يخفى عليه سريرة ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ يحلف، ويقول: اللهُ يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني، من محبتك ومن محبة الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد العداوة والجدل للمسلمين في الباطن، وفي الآية إشارة إلى أن شدة الخصومة مذمومة، وهي من صفات المنافقين، لأنهم يحبون الدنيا فيكثرون الخصومة عليها وفي الحديث الشريف: «تجدون من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[1] والآية نزلت في الأخنس بن شُرَيق الثقفي، كان حلو الكلام والمنظر، أقبل إلى النبي ﷺ في المدينة فأظهر له الإسلام، وأعجب النبي ﷺ منه، ثم خرج من عند رسول الله ﷺ فمرَّ بزرعٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعَقَر الحُمُرَ، وارتد عن الإسلام، وهذه الآية عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات، ونزولها في الأخنس لا يمنع من العموم[2].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أسرع جاهداً ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ﴾ كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف بالظلم، حتى يخرِّب الزرع والبهائم، والنسلُ: كل ذات روح، والمراد به نتاج الحيوان ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ لا يرتضيه ويكره ويبغض كل مفسد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ١٠/ ٣٩٥ ومسلم في البر والصلة رقم ٢٥٢٦.

(٢) نزلت في الأخنس، كان منافقاً كذاباً، يخدع الناس بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، وهي عامة في كل منافق، كما قال القائل:

يُعطيك من طَرَف اللِّسانِ حَلاوةً ... ويَروغ فيك كما يَروغُ الثَّعْلَبُ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم والتكبر عن قبول الحق ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ أي كافيه جهنم، جزاءً وعذاباً ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ المهادُ: الفراشُ أي بئس الفراش نار الجحيم، والتعبير به للتهكم، وفي الآية ذم لمن يغضب إذا قيل له: اتق الله، روي عن ابن مسعود أنه قال: إن من أكبر الذنب، أن يقول الرجل لأخيه: اتّق الله، فيقول: عليكَ بِنفسك.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ﴾ يبيعها ويبذلها في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى يقتل في سبيل الله، فصار كالبائع، والله تعالى كالمشتري، والثمن ثواب الله ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ طلباً لرضاه، وهذا كمال التقوى ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء، وكلَّفهم بالجهاد، فعرَّضهم لثواب الشهداء، ومن رأفته أن النفس والمال له، ثم يشتري ملكه بملكه فضلاً منه[1].

---

(١) نزلت هذه الآية في قصة صُهَيْب الرومي رضي الله عنه، فإنه لمَّا هاجر إلى المدينة المنورة، لحقه رجال من قريش يريدون منعه، فنزل عن راحلته، ونَثَر ما في كنانته من السهام، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش تعلمون أني من أرماكم رجلاً ـ أي لا أخطىء الرمي ـ والله لا تصلون إليَّ، حتى أرمي بما عندي من السهام، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي حتى ينكسر، ثم افعلوا بي ما شئتم!؟ قالوا: جئتنا صعلوكاً ـ أي فقيراً ـ لا تملك شيئاً من المال، وأنت الآن ذو مالٍ وفير!! قال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلُّون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلَّهم على ماله بمكة فذهبوا فأخذوه، ثم انطلق مهاجراً في سبيل الله، فلما وصل المدينة كان الوحي قد سبقه بالخبر، فدخل على رسول الله ﷺ فقال له الرسول: ربح البيع يا صهيب، ربح البيع، فنزلت الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ السِلم بالكسر الإسلام، والاستسلام، والطَّاعة، وكافة بمعنى جميعاً، والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملةً، ظاهراً وباطناً، ورُوي عن ابن عباس أنها نزلت في أهل الكتاب، لمَّا أسلموا أقاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها، وقالوا: إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام، وواجب في التوراة، فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم أن يدخلوا في شرائع الإسلام، ولا يتمسكوا بالتوراة المنسوخة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ بمخالفة ما أُمرتم به وبوساوسه فيما زيَّن لكم ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة، فإن قلتَ: إنا لا نرى هذه العداوة! قلت إن الله تعالى بيَّن عداوته لنا، وأنه أغشُّ عباد الله لعبيد الله، وأنه كيف خدع آدم حتى أكل من الشجرة.

﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾ أي انحرفتم عن الدخول في الإسلام أي ملتم وضللتم، وأصل الزلة: السقوط ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ الآيات والحجج، الشاهدة على أنه الحق، الموجبة للدخول في الإسلام ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين، ولا ينتقم إلا بالحق.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي، أي ما ينتظر هؤلاء المتبعون خطوات الشيطان ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بالمعنى اللائق به، منزَّهاً

عن مشابهة المحدثات، وإيراد الانتظار للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة، كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلَّة كقُلَل جمع قُلَّة، وهي ما أظلك[1] ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ أي السحاب الأبيض، وإنما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة، فإذا أتى منه العذاب كان أفظع وأوجع ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي وتأتيهم الملائكة الذين وكّلوا بتعذيبهم ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وتمَّ أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لتيقّنِ وقوعه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى الله تصير أمور العباد، في الدنيا والآخرة، فيجازيهم عليها بالثواب أو بالعقاب، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد من أهل الخطاب، والمراد بالسؤال تبكيتهم بذلك، وتقريرٌ لمجيء البينات، لا أن يجيبوا فيعلم من جوابهم، كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، يقول لمن حضر: سله كم أنعمتُ عليه؟ وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات، لأنه كان ﷺ قد علمها بإعلام الله تعالى: ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة شاهدة على الحق، دالة على صدق رسول الله ﷺ وأهل الكتاب أعرف بالمعجزات، وكيفية دلالتها على الصدق، ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي آيات الله، فإنها سبب الهدى، الذي هو أجلُّ النعم، وتبديلها بالتحريف،

(١) الظُّلَلُ جمع ظُلَّة وهي ما أظلَّك من فوقك كالسحاب والغمام، والتنكير فيها للتهويل فإنها في غاية المهابة والهول، لما لها من الكثافة التي تغمُّ النفس.

والتأويل الزائغ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه، وتمكَّن من معرفتها، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي حُسّنت في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّنُ على الحقيقة هو الله تعالى، أو الشيطان بالأشياء الشهية، والوسوسة الخفية. ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلالٍ، وعمَّار، وصهيب، أي يسترذلونهُمْ، ويستهزئون بهم، على رفضهم الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، والآيةُ نزلت في أبي جهل وأضرابه، وهو مروي عن ابن عباس، وقيل: في رؤساء اليهود ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ هم الذين آمنوا، وإنما ذكروا بعنوان التقوى للإيذان بأنهم أعرضوا عن الدنيا زهداً فيها، لكونها مخلة بتوجههم إلى جناب القدس، ﴿فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم في أعلى العلّيين وأولئك في أسفل السافلين، ولأنهم في كرامة، وأولئك في مذلة ومهانة ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في الدارين ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة، وابتلاءً أخرى، أو يرزق أولياءه المؤمنين في الآخرة، رزقاً واسعاً رَغَداً، لا زوال له ولا انقطاع.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي كان الناس على الفطرة وعلى

(١) سورة البقرة، آية: ٧٥.

الإيمان، فاختلفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يريد به الجنس، ولا يريد به أنزل مع كل واحدٍ كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن معهم كتاب، فالمعنى أنزل جنس الكتاب مقدار مصاحبته للنبيين حيث كان كل واحد منهم يأخذ الأحكام إما من كتاب يخصه أو من كتاب من قبله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبساً بالحق شاهداً به ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ علة للإنزال المذكور، أي ليحكم الله بما أنزله في كتابه بين عباده ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التَبَسَ عليهم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب المنزل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر، فجعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف، سبباً لاستحكامه، والمراد من الذين أوتوه «اليهود والنصارى» واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ أي الدلالات الواضحة على صدق الكتاب ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم، لحرصهم على الدنيا والرياسة، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتاب ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه، وفي إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً ما لا يخفى من التفخيم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره وبإرادته ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو طريق الحق، الذي لا يضلُّ سالكه، ويصل به إلى طريق السعادة والنجاة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ نزلت في غزوة الخندق، حين أصاب

المسلمين ما أصابهم، من الشدة والخوف، والبرد وسوء العيش، وأنواع الأذى، حتى بلغت القلوبُ الحناجر، والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ أي والحال لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به، من الأحوال الهائلة التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدة، وهو متوقع ومنتظر ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أي أصابتهم الشدة، من الخوف والفاقة ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أي الآلام والأمراضُ ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما دهمهم من الأهوال والأفزاع[1] ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي انتهى أمرهم من الشدة، إلى حيث اضطرهم إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى ـ والمؤمنون المقتدون بآثاره ﴿مَتَىٰ﴾ أي متى يأتي ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ طلباً وتمنياً له، واستطالة لمدة الشدة، ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ على تقدير القول أي فقيل لهم: إن نصر الله قريب، فكونوا يا معشر المؤمنين كذلك، فإن نصر الله قريب، فلا تيأسوا من الفرج[2]، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول إلى نصرة الله، والفوز بالكرامة، برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والأهوال.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ شروع في بيان الأحكام، لأن من عادة القرآن الكريم أن يكون بيان التوحيد، والوعظ، والأحكام مختلطاً، ليكون كل واحد مقوياً للآخر، ومؤكداً له. روي عن ابن عباس أن الآية نزلت في

---

(١) هذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل ـ مع علو منزلتهم في الصبر والثبات ـ قد استبطأوا نزول النصر، كان ذلك دليلاً على أن الشدة قد بلغت منتهاها، وأن الأمر في غاية الهول.

(٢) روى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة: فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض حفرة، فيجعل فيها، ثم يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه ـ أي ما يصرفه ـ والله ليتمنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

«عمرو بن الجموح» وكان شيخا كبيراً وله مال كثير، فقال يا رسول الله: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟ فنزلت الآية ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أصناف أموالهم ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أيَّ خيرٍ كان، ففيه تجويز الإنفاق من جميع أنواع المال ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ للإيذان بأن الأهمَّ بيان المصارف، وليس في السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم، وحق المعلِّم فيه أن يكون كطبيب رفيق، يتحرى الشفاء، طَلَبه المريضُ أم لم يطلبه، ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عَليه، بيَّن الأمرين وهذا من الأسلوب الحكيم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي المحتاجين منهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولم يتعرض للسائلين وفي الرقاب، إما اكتفاءً بما ذكر في مواضع أخر، وإمَّا بناءً على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ فإنه شامل لكل خير، وفي أي مصرفٍ كان، فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق، فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية، فيقدِّم الأول والأول ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي فإنَّ الله يعلم ما تفعلونه من الخير، ويوفي ثوابه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم جهاد الكفار، ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي والقتال شاق عليكم، مكروه طبعاً، وهذا الكره من حيث نفور

الطبع، لما فيه من مؤنة المال، ومشقة النفس، وخطر الروح، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى، لأن هذا ينافي الإيمان، وذلك ككراهة الشارب للدواء البشع ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به فإن الطبع يكرهه، وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم، ولفظة «عسى» توهم الشك مثل لعلَّ، وهو من الله يقين، والمعنى: إن الغزو فيه إحدى الحسنتين: إما الظفر والغنيمة، وإمَّا الشهادة والجنة، وربما كان الشيءُ الشاق سبباً للمنافع الجليلة، كشرب الدواء المر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهُوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه، وهو يُفضي بها إلى الردى، ومن ذلك ترك الجهاد مع الأعداء، فإن فيه الذل، وضعف الأمر، وسبي الذراري، ونهب الأموال، وخروج الوطن من اليد، وإنما ذكر «عسى» الدال على عدم القطع، لأنهُ لمَّا كانت النفس قابلة لعكس ما تهوى، لم يقطع بأنها تكره ما هو خير لها وتحب ما هو شر لها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم وما هو شر لكم، وحُذِفَ المفعولُ للإيجاز ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمركم، به، لأنه تعالى لا يأمركم إلا بما علم أن فيه خيراً لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه، لأنه تعالى لا ينهاكم إلاَّ عما هو شرٌّ لكم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش في سرية في جمادى الآخرة، ليترصدوا عيراً لقريش فيهم «عمرو الحضرمي» وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين، واستاقوا العير وكان ذلك غِرَّة رجب، وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: قد استحلَّ محمد الشهرَ الحرام، وعيّر بذلك أهلُ مكة من كان بها من المسلمين، وعنَّف المسلمون عبد الله وأصحابه فيما صنعوا، فعظم ذلك على أصحاب السريَّة، وقالوا يا رسول الله: لا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام، أهو حلال

أم حرام؟ ﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي إثم كبير، وفيه تقريرٌ لحرمة القتال في الشهر الحرام، والأكثرون أن هذا الحكم منسوخ، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ﴾ فإن المراد من الأشهر الحرم أشهر معينة، أبيح للمشركين السياحة فيها ﴿وَصَدٌّ﴾ صرفٌ ومنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام وما يوصل العبد إلى الله تعالى من الطاعات ﴿وَكُفْرٌ بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وصدٌّ عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ وهو النبي ﷺ والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد الحرام ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناءً على الظن، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي ما فعلوه من الإخراج، والصدّ عن الإسلام، وما يعذبون به المسلمين ليكفروا ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي من قتل الحضرمي ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم، وإصرارهم على الفتنة في الدين ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ الحقّ إلى دينهم الباطل، إخبار عن دوام عدواة الكفار لهم، وأنهم لا ينفكون عنها تحذيراً للمؤمنين عنهم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم ذلك ، وإشارة إلى تصلّب المؤمنين في الدين، كأنه قيل: أنّى لهم ذلك؟! ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الحق، تحذير من الارتداد أي ومن يفعل ذلك بإضلالهم، أو الخوف من عداوتهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام، وفيه ترغيب إلى الرجوع إلى الإسلام ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، باعتبار اتصافه بالارتداد، والموت عليه ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي أعمالهم الحسنة التي كانوا عملوها في حالة الإسلام ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية، لبطلان ما تخيّلوه من الفوائد، يقال: أحبط الله عمله أي أبطله ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كسائر الكفرة لا يخرجون من النار أبداً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نزلت في أصحاب السرية، لمَّا ظُنَّ بهم أنهم إنْ سَلِموا من الإثم، فليس لهم أجر ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرَّر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، فكأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء، إشعاراً بأن العمل غير موجب، ولا قاطع لدخول الجنة، سيما والعبرة بالخواتيم، والهجرة هي الخروجُ من أرض إلى أرض، والمجاهدة أصلها من الجهد وهو المشقة لنصرة الدين ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لما فعلوه خطأ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بإجزال الأجر والثواب لهم.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾.

روي أن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل مع نفر من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتِنَا يا رسول الله في الخمر، والميسر؟ فإنهما مذهبةٌ للعقل، ومسلبةٌ للمال؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾ الخمر مصدر خَمَره أي سَتَره، سمي به لتغطيتها العقل، والتمييز والخمر النيء من ماء العنب، إذا غلى واشتد وقذف بالزبد، وهو حقيقةٌ في كل مسكر، لما في الصحيحين «كلُّ مسكر خمرٌ»[1] ومن أنكر حرمة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة ١٠/ ٣٥ ومسلم رقم ٢٠٠٣ في الأشربة أيضاً ولفظه «كل مسكرٍ خمرٌ، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها، لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة» وانظر الروايات في جامع الأصول ٥/ ٩٨.

الخمر، فقد كفر لجحوده الكتاب، إذْ سمَّاه الله، رجساً، والرجسُ محرم العين فيحرم ولو قطرة والحق الذي لا ينبغي العدول عنه، أن الشراب المتخذ من العنب وغيره كيفما كان، وبأي اسم سُمّي، متى كان بحيث يسكر حرامٌ، وقليله ككثيره، ونجاسته غليظة، ويحد شاربه لما ورد في الصحيح «كل شراب أسكر فهو حرام»[1] والأحاديث فيه متضافرة، والميسر من اليُسْر سمّي به، لأنه أخذ المال بيُسر، من غير كدٍّ ولا تعب وقد كان لأهل الجاهلية عشرة أزلام أي أقداح: الفذُّ، والتوأمُ، والرقيب، والحِلْس، والنافس، والمسبل، والمعلى، والمنيح، والسفيح، والوغد، فلكل منها نصيب من جَزُور ينحرونها، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءاً؛ فللفذِّ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحِلْس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، ولا سهم للمنيح، والسفيح، والوغد، ويجعلونها في خريطة، ويضعونها على عدل عندهم، ثم يجلجلها ـ أي يخلطها ـ ويدخل يده فيخرج باسم رجل زلماً ـ قدحاً ـ فمن خرج له نصيب من ذوات الأنصباء، أخذ نصيبه، ومن خرج له من تلك الثلاثة التي لا نصيب لها، غرم ثمن الجزور، مع حرمانهم، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بها، وفي حكمه أنواع القمار، من النرد، والشطرنج وغيرهما[2] ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن الخمر مسلبة للعقول، التي هي قطب الدين والدنيا، مع كون كل منهما متلفة للأموال، ومسببة للتخاصم والتشاتم، وقول الزور، والمقاتلة،

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة ١٠/ ٤١ ولفظه: عن عائشة قالت: سُئل رسول الله ﷺ عن ـ البتْع ـ وهو نبيذُ العسل، وكان أهل اليمن يشربونه ـ فقال رسول الله ﷺ «كلُّ شرابٍ أسكَرَ فهو حرامٌ».

(٢) ومن القمار المحرَّم، ما انتشر في هذا الزمان باسم «أوراق اليانصيب» ولو كان القصد منها جمع المال للمؤسسات الخيرية، كالمستشفيات، والمدارس، وصندوق الإعانات الخيرية، فالشأن فيها جميعاً شأن الجزور في الجاهلية فهو حرام، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والانتحار، وترك المأمور، وفعل المحظور، وفي تقديم إثمه ووصفه بالكبير، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهي كسب الطرب واللذة، وتشجيع الجبان، وتسخية البخيل، وأخذ المال باليسر في الميسر[1]، ونصَّ على غلبة الأول بقوله ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما، أعظم من المنافع المتوقعة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي يسألونك ماذا ينفقون من أموالهم، وماذا يتركون؟ ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي أنفقوا ما تيسَّر من أموالكم، وما فضل عن حاجتكم، وكان التصدق في أول الإسلام بالفضل فرضاً، فإذا كان الرجل صاحب زرع، أمسك قوت سنة، وتصدق بالفضل، فنسخت بآية الزكاة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنَىً، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[2] وقيل: هو في صدقة التطوع، إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لتبين قدره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على الأحكام الشرعية، وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى، واضحة المدلول، لا أنه تعالى يبينها بعد أن كانت مجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتفكروا فيها، وتقفوا على مقاصدها، وتستنبطوا الأحكام، وتفهموا المصالح المنوطة بها.

---

(١) المنافع في الخمر مادية، وليست منافع صحيّة أو روحية، فقد كانوا يبيعون الخمر بأثمانٍ غالية، فيربحون منها مرابح خيالية، وليس في الخمر أي منافع بدنية، اللهم إلاَّ تلك التصورات والأوهام، التي عبَّر عنها شعراء الجاهلية:

ونَشْربُها فتتركنا مُلُوكاً ... وأُسْداً لا يَنْهَنِهُنا اللِّقاءُ

أي تجعلهم الخمرة كأنهم ملوكٌ وشجعان لا يغلبهم أحد، والجنون فنون.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٩٤ ومسلم رقم ١٠٣٤.

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين، فتأخذوا بالأصلح والأنفع منهما، وتجتنبوا ما يضرُّكم ولا ينفعكم، أو لتتفكروا في الدنيا وزوالها، والآخرة وبقائها، وهو المروي عن ابن عباس والحسن ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إن الذين يأكلونَ أموالَ اليَتَامى ظُلماً﴾ الآية، تحرَّج المسلمون تحرجاً شديداً، حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، فاشتد ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي مداخلتهم لإصلاحهم وإصلاح أموالهم، خير من مجانبتهم[1] ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم على وجهٍ ينفعهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، الذي هو أقوى من العلاقة النسبية، ومن حقوق الأخوة، وموجبها، المخالطةُ بالإصلاح والنفع أي أن تخالطوهم في الطعام والمسكن، وفي الآية دليل خلط مال الولي بمال اليتيم، والتصرف فيه بالبيع والشراء، إذا وافق الإصلاح، وعلى أنه لا بأس بتأديب اليتيم، وفيها دلالة على جواز الاجتهاد، لأن الإصلاح يعلم بالاجتهاد ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ وعيدٌ ووعد، لمن خالطهم لإفسادٍ وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء الله لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة، ولكنه يسَّر عليكم الدين فلم يكلفكم ما يشق عليكم، والعَنَتُ: شدة المشقة، والضرر، وأصله حمل الإنسان على مشقةٍ لا تُطاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ «عزيزٌ» أي غالبٌ على أمره، حكيم أي لا يفعل إلا ما تقتضيه المصلحة، ولهذا لم يكلفكم بما لا تطيقون.

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا رقم ٢٨٧١ والنسائي ٦/٢٥٦ ولفظه عن ابن عباس قال: «لمَّا نزل ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ ونزل ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فإذا فَضَل من طعام اليتيم وشرابه شيءٌ، حُبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿قل إصلاح لهم خيرٌ. .﴾ الآية فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم».

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ أي لا تتزوجوا يا معشر المسلمين بالمشركات الوثنيات، اللواتي ليس لهن دين سماوي، حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر، ولا يدخل بالمشركات هنا اليهوديات والنصرانيات، لأنَّ لهن حكماً خاصاً لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الذيَن أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ وطعامُكُمْ حِلٌّ لهم، والمُحْصَناتُ من المؤمناتِ والمحصَنَاتُ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي العفيفات من الكتابيات[1] ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ أي ولأمةٌ مملوكة مؤمنة، خير وأفضل من حرة مشركة كافرة، لا تؤمن بالله ورسوله، ولو أعجبتكم المشركة بحسنها وجمالها ومالها، فالإيمان أساسٌ في الزواج ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من الإنكاح، والمراد بهم الكفار على الإطلاق، أي لا تزوجوا المشركين بالمؤمنات، سواء كنَّ حرائر أو إماءً ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾ ويتركوا ما هم فيه من الكفر، واستدل بها على اعتبار الولي في النكاح مطلقاً، وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالكافر ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مع ما به من ذلّ المملوكية ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ مع ما له من الحرية ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ بما فيه من دواعي الرغبة تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين

---

(١) هذا الحكم بشرط أن يكون للزوج المسلم، السلطة الكاملة على أولاده، وأن يكونوا تبعاً له عند الفراق، كما هو في النظام الإسلامي، أمَّا إذا خاف أن يتبعوا أمهم كما هو الحال في النظام الغربي والأمريكي، أو كان للأم الكتابية السلطة على تربية الأولاد، فيحرم الزواج بها خشية ضياع الأولاد، وتعريضهم للتنصُّر على يد أُمِّهم النصرانية، فتدبَّر الأحكام والله يرعاك.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي المذكورون من المشركات والمشركين ﴿ يَدْعُونَ ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق، فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم والمقصود أن المؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة، ويجتنب ما يُفضي إلى العذاب، مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي إلى الاعتقاد الحق، والعمل الصالح، الموصلَيْن إليهما، ﴿ بِإِذْنِهِۦ ۖ ﴾ بتوفيق الله تعالى، وتيسيره ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ ﴾ المشتملة على الحكم الرائعة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها، فيفوزوا بما دُعوا إليه من الجنة والغفران.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ روي عن أنس أنه قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت ـ أي لم يساكنوها في بيت واحد ولم يخالطوها ـ فسأل أصحاب النبيّ ﷺ النبي عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»[1] أي اصنعوا كل شيء من الملاعبة والمضاجعة إلا

(١) هذا طرف من حديث أخرجه مسلم في كتاب الحيض ١/ ٢٤٦ وتتمته: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ أن يدعَ من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه، فجاء أُسَيْد بن حُضير، وعَبّاد بن بشر فقالا «يا رسول الله: إن اليهود تقول: كذا، وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجه رسول =

الجماع، والمحيض مصدر بمعنى الحيض، كالمعيش بمعنى العيش، وأصله: السيلان، يُقال: حاض السيل وفاض ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي إنه شيءٌ مستقذر، مؤذٍ لمن يقربه، لأنه دم منتن، خارج من مجرى البول ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا مجامعتهن في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أي ولا تجامعوهنَّ حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن، وهو تأكيد لحكم الاعتزال، وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن ـ أي جماعهن ـ لا عدم القرب منهن، أو عدم مؤاكلتهنَّ ومجالستهن، كما كان يفعل اليهود ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فإذا انقطع عنهن دم الحيض، وتطهَّرن بالماء، فأتوهنَّ في المكان الذي أحلَّه الله لكم، وهو القُبُل ـ الفرج ـ مكانُ الذرية والنسل، لا الدبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي التائبين من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمجامعة الحائض، والإتيان في غير المأتيِّ، وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهير.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم، شُبِّهن بها تشبيهاً، لما يُلقى في أرحامهنَّ من النُّطَف بالبذور، والحرثُ: إلقاء البذر في الأرض ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ أي فأتوهن في مكان الزرع، وهو كالبيان لقوله ﴿فَأْتُوهُنَّ من حيثُ أمرَكُمُ اللهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أيِّ جهةٍ شئتم، باركةً، أو مستلقيةً، أو مضطجعة، بعد أن يكون المأتيُّ واحداً، وهو موضع الحرث، لا مكان الفرث، قال مجاهد: كيف شئتم، وقال الضحاك: متى شئتم، عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها في قُبُلها، جاء الولدُ أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[1] وعن أبي

= الله ﷺ حتى ظننَّا أن قد وجد عليهما ـ أي غضب ـ فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لَبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما» رواه مسلم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ١٤٣ ومسلم في النكاح رقم ١٤٣٥.

هريرة قال: قال ﷺ: «ملعون من أتى امرأةً في دُبُرها»[1] وأجمع العلماء على تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وقالوا لأن الله نص على ذكر الحرث ـ الزرع ـ فلا يحل العدول عنه إلى غيره ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ فعل الخير، والعمل الصالح، ومنه التسمية وطلب الولد المؤمن، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنّبنا الشيطان، وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إنْ يُقَدّرْ بينهما ولد في ذلك، لم يضرَّه الشيطانُ أبداً»[2] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي أيقنوا أن مرجعكم إليه بالبعث، فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم، وفي هذا تذكير وتحذير.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ عُرْضةً: أي حاجزاً ومانعاً، والمعنى: لا تجعلوا الحلف بالله، سبباً مانعاً عن فعل الخير ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي من أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فتتعلّلوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفتُ بالله ألاَّ أفعله، وأريد أن أبرَّ بيميني، بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم، فيكون الله كأنه السبب المانع عن فعل البِرّ والخير والإصلاح بين الناس. قيل: إنها نزلت في الصدّيق رضي الله عنه لمَّا حلف ألاَّ ينفق على مسطح، لخوضه في حديث الإفك، وقيل: نزلت في ابن رواحة حين حلف ألا يكلِّم خَتَنَه،

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح رقم ٢١٦٢ ورواه الترمذي رقم ١١٧٦ بلفظ قال ﷺ: «لا ينظر الله عزَّ وجلّ إلى رجلٍ أتى رجلاً أو امرأة في دبرها».

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح ٩/ ٢٢٨ فتح الباري.

وروي عن عائشة أن المعنى: لا تكثروا الحلف بالله، في كل حق وباطل، فتبتذلوا اسمه الأعظم في كل كثير وحقير، إذا أردتم لأنفسكم البِرَّ.. فيكون الغرض النهي عن كثرة الأيمان ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع أيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم نيّاتكم، فحافظوا على ما كلفتموه، ولا تكثروا الحلف بالله، فإنه ضربٌ من الجرأة على الله تعالى.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار، والمراد به في الأيمان ما لا عقد معه ولا قصد، وقد اختلف فيه، فقال أبو حنيفة: هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه، ثم يظهر خلافه، فإنه لا قصد فيه إلى الكذب، وعند الشافعي هو قول العرب: لا والله، وبلىٰ والله، مما يؤكِّدون به كلامهم، عن عائشة رضي الله عنها هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله[1]. ومذهب أبي حنيفة هو قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والنخعي، والزهري، وقتادة ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن يعاقبكم، بما اقترفته قلوبكم، من إثم القصد إلى الكذب باليمين، وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله، وهو اليمين الغموس ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة، تربصاً للتوبة، والحليم المتأني الذي لا يعجّل بالعقوبة.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٢٠٧/٧ موقوفاً على عائشة، ورواه أبو داود مرفوعاً، وإذا ثبت هذا مرفوعاً فهو القول الفصل، لأنه لا عطر بعد عروس، ويكون معنى الآية: لا يؤاخذكم الله بما جرى على لسانكم، من غير قصد الحلف، كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله، لا يقصد به الحلف، وإنما يقصد تأكيد الكلام.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ الإيلاءُ: القَسَمُ والحلف، وفي عرف الشرع الإيلاءُ: اليمينُ على ترك الوطء، روي أن الإيلاء في الجاهلية، كان طلاقاً، وإذا كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوج بها غيره فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيّماً، ولا ذات بعل، والغرض منه مضارة المرأة، فأزال الله ذلك ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي لهم أن ينتظروا أربعة أشهر، من غير مطالبة بفيءٍ أو طلاق، والإيلاء من المرأة أن يقول: والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا، أو لا أقربك على الإطلاق، ولا يكون فيما دون ذلك، وحكمه أنه إن رجع إليها في المدة بالوطء صح الفيء وحنث، ولزمته كفارة اليمين، وإذا مضت الأربعة بانت بتطليقةٍ بائنة ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أي رجعوا عن اليمين بالحنث في الأشهر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر للمولي ما قصد بالإيلاء من الإضرار بالمرأة.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ أي صمموا قصد الطلاق وأجمعوا عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بما جرى منهم من الطلاق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم، وفيه من الوعيد على الإصرار وترك الفيئة.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ يريد بها المدخول بهن، من ذوات الأقراء ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ خبر في معنى الأمر، مفيد للتأكيد، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فيخبرُ به موجوداً متحقّقاً ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ تهييجٌ وبعثٌ لهن على

التربص، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرْنَ أن يقمعْن أنفسهنّ، ويجبرنها على التربص ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي يتربصن مدة ثلاثة قروء ـ أي حِيَضٍ ـ لقوله ﷺ «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1] والقرء: اسمٌ يقع على الحيض، والطهر، وبحسب اختلاف أهل اللغة في الأقراء، اختلف الفقهاء على قولين: **أحدهما**: هو الحيض، رُوي ذلك عن عمر، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، **القول الثاني**: أنه الأطهار يروى ذلك عن زيد بن ثابت، وابن عمر، وعائشة وهو مذهب مالك والشافعي، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد والحيض، استعجالاً في العدة، وإبطالاً لحق الرجعة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي فلا يجترئن على ذلك، فإن قضية الإيمان منافية له قطعاً، وهذا وعيدٌ شديد، لتأكيد تحريم الكتمان ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل كعم وعمومة، أي أزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً، كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة، والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ إلى النكاح، والرجعة إليهن ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ في زمان التربص، والحكمةُ في إثبات الرجعة، أنَّ الإنسان لا يدري هل تشق عليه مفارقته أولا، فجعل الله ذلك للتجربة، وهذا التدريج يدل على كمال رحمته تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓا﴾ أي الأزواج ﴿إِصْلَٰحًا﴾ لما بينهم وبينهنَّ، وإحسانا إليهن، ولم يريدوا مضارتهن بتطويل العدة، وليس المراد به شرطية الإصلاح بصحة الرجعة، بل هو الحث عليه، والزجر عن قصد الإضرار ﴿وَلَهُنَّ﴾ عليهم من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق، التي يجب مراعاتها، ويتحتم المحافظة عليها، فقد قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، ولكم عليهنَّ أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهنَّ ضرباً غير

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، ولفظه عند الترمذي ١/ ٢٢٠ قال ﷺ في المستحاضة: «تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها..» الحديث.

مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»[1] الحديث، وقوله «لا يوطئن فرشكم» معناه: لا يأذنَّ لأحد أن يتحدث إليهن، وليس المراد بوطء الفرش الزنا، ولو كان المراد ذلك لوجب الحد لا الضرب ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي زيادة في الحق، لأن حقوقهم في أنفسهن، وحقوقهن في المهر والكفاف، وترك الضرار، ونحوها، أو مزية في الفضل، لما أنهم قوّامون عليهن، يخصّون بفضيلة الرعاية والإنفاق، والدرجةُ يعبّر بها عن المنزلة الرفيعة، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام، ممن خالف الأحكام ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله وأحكامه.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ هو بمعنى التطليق، كالسلام بمعنى التسليم، والمراد به الرجعي، أي عدد الطلاق الذي يستحق الزوج فيه الرجعة: مرتان أي اثنان، وإيثار لفظ، مرتان، للإيذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة، لا دفعة واحدة، والجمع بين تطليقتين، وثلاثة، بدعةٌ في طهر واحد، لأنه تعالى أمرنا بالتفريق، ومعنى الآية: إن عدد الطلاق الذي

---

(١) هذا طرف من حديث طويل رواه مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع ٢/٨٨٦ وهي خطبته ﷺ المشهورة التي حدَّد فيها الحقوق والواجبات العامة والخاصة وهو واقف في عرفات صلوات الله وسلامه عليه، وهي من جوامع الكَلِم.

لكم فيه رجعة إلى أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وأنه لا رجعة لكم بعد التطليقتين ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ أي فالحكم بعدها إمساك لهنَّ بالرجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي بحسن عشرة ولطف معاملة، والمعروفُ: هو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن المعاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هو أن يؤدي إليها جميع حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، روي أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أسمع الله تعالى يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: «التسريح بإحسان»[1] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور فإنَّ ذلك منافٍ للإحسان ﴿شَيْـًٔا﴾ أي نذراً يسيراً، فضلاً عن الكثير، ثم استثنى الخلع فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه، من موجب الزوجية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بمشاهدة بعض الأمارات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لا على الزوج في أخذ ما افتدت، ولا عليها في إعطائه، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إنَّ ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، والله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعتُ جانب الخباء، فرأيته أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً، وقال زوجها: يا رسول الله، إني أعطيتها أفضل مالي، حديقةً لي، فإن ردَّتْ عَليّ حديقتي طلقتها!! قال ﷺ: ما تقولين؟ قالت: نعم يا رسول الله، وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما»[2] وهو أول خلع في الإسلام

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي رزين الأسدي.

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير الطبري، ورواه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٤٦٤ بأوجز من هذا بدون قصة رفع الخباء، ولفظه بعد جملة أكره الكفر في الإسلام، فقال لها رسول ﷺ: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال له الرسول ﷺ: اقبل الحديقة، وطلّقها تطليقة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه، وتعقيب النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد هذا الطلاق، أي إن طلّقها بعد اثنتين، فلا تحل له من بعد ذلك الطلاق ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ حتى تتزوج غيره، واتفق الأئمة على أنه لا بدَّ من الإصابة لما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة رفاعة القُرَظي إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن رفاعة طلّقني فبتَّ طلاقي، وإني نكحتُ بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب، فقال لها الرسول ﷺ: تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا، حتى يذوق عُسَيْلتكِ، وتذوقي عُسَيلته»[1] والحكمة في هذا الحكم، الردعُ عن التسرع إلى الطلاق، والعود إلى المطلقة الثلاث، والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل مكروه لما رُوي عن ابن مسعود أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المحِلَّ، والمحلَّل له»[2] ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ على الزوج الأول والمرأة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد بعد المدة ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما شرعه الله من حقوق الزوجية، ﴿وَتِلْكَ﴾ أي الأحكام المذكورة إلى هنا ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي أحكامه المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بهذا البيان اللائق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ويعملون بمقتضى العلم، وتخصيصهم بالذكر للإشادة بهم، لأنهم المنتفعون بالمواعظ والتعاليم الإلهية.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق ٩/ ٣٦١ ورواه الترمذي رقم ١١١٨.
(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح ٣/ ٤٢٨.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي آخر عدتهن، فإنَّ الأجل كما يُطلق على المدة يطلق على منتهاها ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي فراجعوهن من غير إضرار، أو خلُّوا سبيلهن من غير إضرار، والإمساك مجازٌ عن المراجعة، والتسريح بمعنى الإطلاق، مجازٌ عن الترك، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صوره، اعتناءً بشأنه، ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف، وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه. أي لا تراجعوهنَّ إرادة الإضرار بهن، وكانوا يضارونها لتفتدي المرأة منه بمالها ﴿ لِّتَعْتَدُوا۟ ﴾ متعلق بـ﴿ضراراً﴾ أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من الإمساك المؤدي إلى الظلم ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ بتعريضها للعقاب والعذاب، وفوَّت على نفسه منافع الدين، من الثواب على حسن المعاشرة، ومنافع الدنيا من عدم رغبة النساء به، لاشتهاره بفعل القبيح ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة ﴿ هُزُوًا ﴾ أي مهزوءاً بها، أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: كان الرجل يطلِّق ثم يقول: لعبتُ، فنزلت. نهى تعالى عن الهزء، وأراد ما يستلزمه من الأمر بضدّه أي جدُّوا في الأخذ بها، وارعوها حقَّ رعايتها، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وهزلُهُنَّ جِدٌّ: النكاحُ، والطلاقُ،

والرَّجْعةُ»[1] ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة الرسول، بالشكر والقيام بحقوقها ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ القرآن، والسنّة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بما أنزل عليكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في شأن المحافظة على أوامره، والقيام بحقوقه الواجبة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تَذَرون فاحذروا من جزائه وعقابه، وهو وعدٌ ووعيد.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، دَلَّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين، ففي الآية الأولى معناه المشارفة أي مقاربة انقضاء العدة، وفي الآية الثانية انتهاء العدة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العضْلُ: الحبسُ والتضييقُ، وفي الشرع المنع، يقال: عَضَل فلان ابنته إذا منعها من التزوج، والخطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً، أو للأولياء في عضلهنَّ لبناتهنَّ أن يرجعن إلى أزواجهن، أو الخطاب للناس كافة، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق، فلا يقع فيما بينكم عضل، ﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ من أن ينكحن، وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ أي لا يمنعونهنَّ من الرجوع إلى أزواجهن ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بما لا يكون مستنكراً شرعاً، ومروءة، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ، أو بما دون مهر المثل، ليس من باب العضل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فصّل من الأحكام ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فيسارع إلى الامتثال بأوامره ونواهيه، خوفاً من عقابه، فالمواعظ إنما تنجع فيهم، أمَّا الذين لا يؤمنون بلقاء الله، فلا يخيفهم إنذار ولا تحذير ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي التمسك بأوامر الله، واجتناب نواهيه، أفضل لكم وأطهر، من الوقوع في الآثام، والتعرض لعذاب الرحمن ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله عزَّ وجلّ يعلم ما هو أصلح لكم من الشرائع والأحكام، وما فيه لكم من النفع والصلاح، وأنتم لا تعلمون ذلك، فدَعُوا رأيكم وهواكم، وامتثلوا أمر ربكم تفلحوا.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ والترمذي رقم ١١٨٤ في الطلاق، وصححه الحاكم.

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ الحديث هنا عن الأمهات المطلقات، بدليل السياق والسِّباق، والتعبير عنهن بالوالدات دون «المطلقات» لاستعطافهن نحو أولادهن، فلا ينبغي أن يضيع الطفل، نتيجة نزاع الوالدين، وافتراق الزوجة عن الزوج، فليس للطفل جناية في هذا الأمر، فالمرأة وإن طُلّقت هي والدة وأم، لا ينبغي أن تفرِّط في ولدها، وهو خبر بمعنى الأمر، أي الواجب على الأمهات، سواءً كنَّ مطلّقات أو غير مطلقات، أن يرضعن أولادهن ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ أي عامين تامين، والتأكيد بقوله ﴿كاملين﴾ لبيان أن التقدير تحقيقيٌ لا تقريبي، فأكثر مدة للرضاع سنتان كاملتان ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ أي لمن شاء من الوالدين إتمام الرضاعة، ولا زيادة على هذه المدة، وفي الآية دلالة على جواز النقص، إذا استغنى الطفل بالطعام عن حليب أمه، ويجب على المطلَّقة إرضاعه، إذا لم يقبل الولد إلاَّ ثدي أمه، أو لم يجد الأب له ظئراً ـ أي مرضعةً ـ ترضعه، أو كان الأب عاجزاً عن الاستئجار، فإن أرضعت المطلَّقة وليدها وجب لها أجرٌ على الرضاعة، كما سيأتي في قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾[1]

(١) سورة الطلاق، الآية: ٦.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الوالد ـ الذي ينتسب إليه الأولاد[1] ـ الإنفاق على الأمهات المطلقات، وكسوتهن، بما هو مشروع ومتعارف، بدون إسرافٍ ولا تقتير، ليقمن بخدمة الأولاد خير قيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يُكلَّف العبد بما لا يطيقه ولا يستطيعه، ولهذا تكون النفقة بقدر الطاقة ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي لا ينبغي أن تقع المضارة بين الزوجين، فيضرَّ أحدهما الآخر، بسبب الولد، فترفض الأم مثلاً إرضاعه لتضر أباه بتربيته، وأن يضارَّها الأب فينتزع منها الولد ـ مع رغبتها في إرضاعه ـ ليغيظ أحدهما صاحبه، وإضافة الولد إليها تارة ﴿والدةٌ بولَدِها﴾ وإليه أخرى ﴿وَلاَ مولُودٌ لَهُ بولَدِهِ﴾ فيه استعطاف لهما عليه، وتنبيه لهما على أن هذا الطفل، جدير بأن يتفقا على استصلاحه، والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يكون ضحيةً لنزاعهما، الرجل أبوه، والمرأة أمه، فهو ابن كلٍّ منهما، ومن حقهما الإشفاق عليه ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالوارث وارث الولد، وهو التفسير المأثور عن عمر، وابن عباس، ومجاهد، أي وعلى وارث الصبي كالجد، والأخ، والعم، الإنفاق على المرضع المطلَّقة، والقيام بحقوقها، مثل ما على والد الطفل من النفقة والسكنى، وقال الشافعي: المراد وارث الأب، وهو الصبيُّ أي ثمن المرضعة من ماله، ولا نزاع فيه، وإنما الكلام فيما إذا لم يكن للصبي مال ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط، لاحتمال الإقدام على ما يضرُّ بالولد، بأن تملَّ المرأة من الإرضاع، أو يبخل الأب بإعطاء الأجرة ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ في شأن الولد من الفطام قبل الحولين، أو يشاوران أهل النظر، ليستيقنا أن الفطام قبل الحولين، لا يضرُّ بالولد، ومعنى الفِصال: الفطام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في

---

(١) لم يقل تعالى: وعلى الوالد، وإنما قال: ﴿وعلى المولود له﴾ لينبّه إلى أن النسب للأب دون الأم فالأولاد جميعاً ينتسبون إلى أبيهم، وهذا الحكم عند الفقهاء يسمى «إشارة النصّ».

ذلك، واعتبر اتفاقهما، لما أن للأب النسبة والولاية، وللأم الشفقة والعناية لصلاح الطفل ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي أن تسترضعوا المراضع لأولادكم أي تطلبوا من يرضعهم، يقال: أرضعت المرأة الطفل، واسترضعتُها إيَّاه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم ولا حرج عليكم، أن تطلبوا مرضعة لأولادكم غير الأم، إذا عجزت عن إرضاعه أو استنكفت، وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع لولده، ويمنع الأم من الإرضاع، وهو مذهب الشافعي وعند أبي حنيفة أن الأم أحقُّ برضاع ولدها لقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ وليس للأب أن يسترضع غيرها، إذا رضيت أن ترضعه، والآية محمولة على إذا عجزت أو امتنعت عن الإرضاع، ثم قال تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا دفعتم للمرضع ما اتفقتم عليه من الأجر، فإنها إذا لم تُكرم لا تهتم بالطفل، ولا تعتني بإرضاعه، والتسليم ندبٌ لا شرط للجواز، وقوله: ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه المتعارف بطيب نفس وسرور ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم عليها، وهو حثٌ وتهديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أي والذين يموتون وتُقبضُ أرواحهم بالموت، فإن التوفّي هو القبضُ، يقال: توفَّيتُ مالي من فلان أي أخذته، فمن مات استوفى عمره كافياً وافياً ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي ويتركون زوجاتهم من بعد وفاتهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على هؤلاء الزوجات، أن ينتظرن ويمكثن في العدة، أربعة أشهر وعشرة أيام، حداداً على أزواجهن، ورعاية لحقوقهن، وهذا الحكم لغير الحامل، أما

الحامل فعدتها وضع الحمل، لقوله سبحانه: ﴿وَأُولاَتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والسرُّ في هذا لئلا تختلط الأنساب، وتضيع الحقوق، ولعل المقتضى لهذا أن الجنين في غالب الأحوال، يتحرك لأربعة أشهر، وزيد عليه العشر استظهاراً لجلية الأمر، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام، أو المسلمون جميعاً ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيۤ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزوج، وسائر ما حُرّم على المعتدة، عن أم عطية قالت: «كنا نُنْهىٰ أن نُحدَّ على ميّتٍ فوق ثلاث، إلا على الزوج أربعة أشهر وعشراً، ولا نكتحل، ولا نتطيب، ولا نلبس ثوباً مصبوغاً»[1]، الحديث وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي الوجه الذي لا ينكره الشرع، وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع، فعليهم أن يكفوهنَّ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فلا تعملوا خلاف ما أُمرتم به، والخبيرُ هو العالم بكنه الشيء، الذي يعلم عواقب الأمور.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيۤ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۖ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ التعريضُ والتلويحُ إيهامُ المقصود، بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، وهو ضد التصريح، مثل أن تقول لها: إنك لجميلة أو صالحة، ومن غرضي أن أتزوج امرأة صالحة، ونحو ذلك من الكلام، الموهم أنه يريد نكاحها، ولا يصرح

(١) أخرجه البخاري ٩/٤٣٣ في الطلاق، ومسلم رقم ٩٣٨ باب وجوب الإحداد وأبو داود رقم ٢٣٠٢ في الطلاق أيضاً، وللحديث بقية.

بالنكاح، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي أضمرتم وسترتم في قلوبكم، فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهنَّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي لا تواعدوهن بالنكاح في السر ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ هو أن تُعرِّضوا ولا تُصرّحوا ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي ولا تعزموا عقدة النكاح حتى تنتهي العدة، وفي النهي عن مقدمة الشيء، نهيٌ عن الشيء أبلغ، ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة غايته ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما نهيتهم عنه ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه وعذابه بالاحتراز منه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل، خشيةً من الله تعالى ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على عصيانكم أوامره، وفيه دليل على حرمة تصريح خطبة المعتدة من الوفاة، والمعتدة من الطلاق كذلك من باب أولى.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعية عليكم من مهر، وهو الأظهر وقيل: من وزر، لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس، إذا كان الفراق أروح من الإمساك ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ما لم تجامعوهن، اتفقوا على أن المراد بالمسيس، في هذه الآية: الدخولُ، وإنما كنى به تأديباً للعباد ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي إلاَّ أن تفرضوا لهنَّ فريضة، فالمعنى: أنه لا تبعية

على المطلِّق بمطالبة المهر أصلاً، إلا إذا كانت ممسوسة، فلها المهر ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي ادفعوا لهن المتعة، والمتعةُ والمتاعُ: ما ينتفع به انتفاعاً غير باق، ولهذا قيل للدنيا: متاع، وظاهر الأمر الإيجاب، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي، والحكمةُ في إيجابها جبراً لإيحاش الطلاق وتقديرها مفوَّضٌ إلى رأي الحاكم، ويؤيده قوله تعالى ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الذي له سَعَة ﴿قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الضيّق الحال ﴿قَدَرُهُ﴾ أي ما يليق بحال كل منهما المتعة، بالنظر إلى حال المطلّق إيساراً وإعساراً والمتعة درعٌ وملحفةٌ وخمار على حسب حاله، ولا تجب المتعة إلا لهذه، ويستحب لسائر المطلقات، وقال الشافعي لها المتعة لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿مَتَٰعًۢا﴾ أي تمتيعاً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ أي حق ذلك حقاً ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم، بالمسارعة إلى الامتثال، وإنما سُمُّوا «محسنين» ترغيباً وتحريضاً على البِرِّ والإحسان.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي حال كونكم مسمين لهن عند النكاح مهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهنَّ نصف ما سميتم من المهر، وهذا صريح في أنَّ المنفيَّ في الصورة السابقة، إنما هو تبعةُ المهر ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي فلهن النصف في كل حال، إلاَّ حال عفوهن، فإنه يسقط بعد وجوبه ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي يترك الزوج ما يعود إليه من نصف المهر، الذي ساقه إليها كاملاً، تكرماً منه وتفضلاً، وهو التفسير المأثور، كما أخرجه البيهقي بسند حسن عن ابن عمر مرفوعاً، وبه قال جمع من الصحابة[1] وقيل: الولي الذي يلي عقد

---

(١) مستند هذا القول أن الذي بيده عُقدة النكاح حقيقةً: هو الزوجُ، فإن بيده العقد والإبرام، والنقض والطلاق، وقد رُوي عن شريح أنه قال: سألني عليٌّ عن الذي بيده عُقدة النكاح؟ فقلت: هو وليُّ المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وروي عن النبي ﷺ مرفوعاً «وليُّ عقدة النكاح الزوجُ» وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٦.

نكاحهن إذا كانت المرأة صغيرة، وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يؤيد الوجه الأول فإن إسقاط حق الصغيرة ليس في شيء من التقوى، روي أنَّ جُبَيْر بن مطعم تزوج امرأةً، وطلَّقها قبل الدخول بها، فأكمل لها الصَّداق، وقال: أنا أحقُّ بالعفو ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا الإحسان والجميل الذي بينكم، والخطاب للرجال والنساء بطريق التغليب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم، من التفضل والإحسان.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها، من غير إخلالٍ بشيء منها، ولعل الأمر بها، في تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد، لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها[1]، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي المتوسطة بينها، والوسطى تأنيث الأوسط، وهي صلاة العصر، وعليه الجمهور، ويدل عليها ما رُوي، عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب: «ملأ الله قلُوبهم وبيوتَهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»[2] ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة ﴿قَٰنِتِينَ﴾ أي مطيعين خاشعين، وقيل: هو السكوت، ويدل على ذلك ما روي عن زيد

---

(١) إنما وردت آية المحافظة على الصلوات، ضمن آيات الزواج والطلاق، لأن الصلاة أعظم منبّه للمؤمن، للمحافظة على أوامر الله، واجتناب نواهيه، ودفع الحقوق كما قال سبحانه: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فبالصلاة يحفظ الإنسان حقوق الله وحقوق العباد.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ٦/٧٦ ومسلم رقم ٦٢٧ وزاد في بعض الروايات: ثم صلاَّها بين المغرب والعشاء.

ابن أرقم، قال: «كنَّا نتكلم في الصلاة، يكلّم أحدنا أخاه في حاجته، حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ فأُمرنا بالسكوت»[1].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره ﴿فَرِجَالًا﴾ أي فصلوا راجلين جمع راجل، وهو الماشي على رجليه، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب أي فصلوا راجلين أو راكبين، حسبما تقتضيه الحال، ولا تُخِلُّوا بها ما أمكن وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي، بل يؤخر الصلاة، لأن الرسول ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق، وظاهر الآية جواز الصلاة ماشياً عند الضرورة، والدين يسر لا عسر، والمقامات مختلفة، والميسور لا يسقط بالمعسور، وما لا يدرك لا يترك ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي فصلُّوا صلاة الأمن، أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ كتعليمه إياكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ من كيفية الصلاة، حالتَيْ: الخوفِ، والأمن، على الوجه الذي شرعه لكم، وعلمكم إيّاه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ عودٌ إلى بيان بقية الأحكام، المفصّلة فيما سلف ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي يوصون،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/١٩٨ قال ابن حجر في الفتح: وأصحُّ ما دلَّ عليه حديث الباب، أن المراد بالقنوت: السكوتُ، والمراد به السكوتُ عن كلام الناس، لا مطلق الصمت، لأن الصلاة لا صمتَ فيها، بل جميعها قرآنٌ وذكر. اهـ.

أو عليهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا، بأن تمتع زوجاتهم بعدهم حولاً كاملاً ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ منصوب بيوصون ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي من غير إخراج لهن من المسكن، والمعنى: يجب على الذين يتوفون، أن يوصوا قبل الاحتضار، لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً، بالنفقة والسكنى من تركته، وكان ذلك أول الإسلام، ثم نسخت المدة بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول، ومضيّ العدة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ لا ينكره الشرع كالتزيّن، والتطييب، وترك الحداد، والتعرض للخطاب، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، يعاقب من خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي واجب على الأزواج أن يمتّعوا المطلقات، بقدر استطاعتهم، بالمعروف الذي شرعه الله، وعرفه الناس، جبراً لوحشة الطلاق، والمتعة لكل مطلّقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض، لعموم لفظ المطلقات، وهذه المتعة إمَّا واجبة، إن لم يذكر لها مهر، أو مندوبة إن كان لها مهر مقدر ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي هي حقٌّ واجب، وأمر لازم على المؤمنين الصادقين، المتقين لله عزَّ وجلّ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح الشافي، الذي يوجّه القلوب نحو المودة والمحبة، يبين الله لكم آياته الشرعية، الدالة على الحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي كي تعقلوا وتتفهّموا حكمة ربكم، في تشريع هذه الأحكام، وتعملوا بمقتضاها.

---

(١) هذا الحكم منسوخ بالآية السابقة ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ رحمةً من الله تعالى، وتخفيفاً عن عباده، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، فالآية وإن كانت متقدمة في التلاوة، لكنها متأخرة في النزول.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ هذه رؤية القلب، وليست رؤية بصرية، أي ألم تعلم، ويصل إلى سمعك أيها الإنسان، خبر أولئك القوم، الذين خرجوا من أوطانهم وهم ألوف مؤلفة؟ قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف، وقيل: أربعون ألفاً ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي خوفاً من الموت، وفراراً منه ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ ﴾ أي فأماتهم الله عزَّ وجلّ ثم أحياهم، ليكون ذلك أعظم برهان، على قدرة رب العالمين في إحياء البشر بعد موتهم! وقصة هؤلاء ـ كما قال الضحاك ـ هم قوم من بني إسرائيل، دعاهم ملكهم إلى الجهاد، فهربوا خوفاً من الموت، وتركوا ديارهم وأوطانهم، فأماتهم الله ثمانية أيام، ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» عليه السلام، فعاشوا بعد ذلك دهراً، وقاموا أحياء ينظرون، ثم ماتوا بعد انتهاء آجالهم.

وقيل: إنهم جماعة وقع فيهم وباء الطاعون، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى الصحراء، فنزلوا وادياً واسعاً، حتى ملأوه، فأرسل الله إليهم ملكين، صاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم[1]. ﴿ إِنَّ

(١) قال الحافظ ابن كثير ١/٣٠٦: وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع، على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حَذَرٌ من قَدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. اهـ.

﴿ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي إنه سبحانه لذو إحسانٍ وإنعام على الناس، حيث أحياهم ليعتبروا، وقصَّ عليكم حالهم لتستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه كما ينبغي، بل يكفرون ويجحدون، وفائدة القصة: تشجيع المسلمين على الجهاد، وحثهم على التوكل والاستسلام.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين الكفار، من أجل إعلاء كلمة الله، لا لحظوظ النفس والغنائم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؟ أي من ذا الذي يبذل ماله في سبيل الله، طلب رضوانه؟ والقرضُ في اللغة: القطعُ، سُمّي به لأن المقرض يقطع من ماله شيئاً فيعطيه للفقير، واقتراضُ الله تعالى، مَثَلٌ لتقديم العمل العاجل، طلباً للثواب الآجل، والمراد ههنا الجهاد، الذي هو عبارةٌ عن بذل النفس، والمال، في سبيل الله عزَّ وجلّ، ابتغاءً لمرضاة الله، أو المراد مطلق العمل الصالح، وهذا تلطف منه تعالى، في استدعاء عباده إلى أعمال البِرِّ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾[1] أي خالصاً لوجه الله، لا يطلب من ورائه مديحاً، ولا عطاء من أحد، ولا يكون القرض حسناً إلاَّ بشرائط: ١ ـ أن يكون من الحلال. ٢ ـ ومن أجود المال. ٣ ـ خالصاً لوجه الله تعالى. ٤ ـ بطيب النفس. ٥ ـ لا رياء فيه ولا سمعة ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾

---

(١) روي أنه لما نزلت هذه الآية ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله!! فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطاً لي ـ أي بستاناً ـ فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء إلى البستان ولم يدخل فيه، فناداها يا أم الدحداح، قالت: لبَّيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجل!! فقالت: ربح بيعك، وخرجت منه مع أولادها» رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٠٦.

فيضاعف جزاءه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرةً لا يقدِّرها ولا يعلم مقدارها، إلا الله سبحانه، وإنما أبهم الله ذلك، لأن ذكر المبهم في باب الترغيب، أقوى من ذكر المحدود، والضعفُ: مثلُ الشيء في المقدار، مثل العشرة ضعفها عشرون ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقتّر على بعض، ويوسِّع على بعض، حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسَّع عليكم، كيلا يبدّل حالكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ألم يصل إليك خبر القوم من بني إسرائيل؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع، ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي من بعد وفاته ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو شمعون من نسل هارون عليهم السلام ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أقمْ لنا أميراً ننهض معه للقتال، وسببُ طلبهم ذلك على ما في بعض الآثار، أنه لمَّا مات موسى، خلفه يوشع، ثم خلفه كالب، ثم حزقيل، ثم إلياس، ثم اليسع، ثم ظهر لهم عدوٌّ، وهم عمالقة قوم جالوت، وظهروا عليهم، وأسروا من أبنائهم، وضربوا عليهم الجزية، وأخفوا توراتهم، ثم أرسل الله تعالى إليهم شمعون، فقالوا إن كنت صادقاً فابعث لنا مَلِكاً، وكان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة أنبيائهم، وكان الملك يسير بالجموع، والنبيُّ يقيم أمره ويرشده ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ هذا استفهام شك بمعنى لعلكم ﴿إِنْ كُتِبَ﴾ أي فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ مع ذلك الملك

﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ أي لا تَفُوا بما قلتم، وتجبنوا عن القتال معه ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾ كأنهم قالوا: عدم القتال غير متوقع منا، وإنما لم يصرحوا به تحاشياً عن رد كلام نبيهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أيُّ غرض لنا في ترك القتال، وقد عَرَض لنا ما يوجبه، من الإخراج عن الأوطان، والبعد عن الأولاد، وكان العمالقة أخذوا ديارهم، وسَبَوْا أولادهم، قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الجبن والهَلَع ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فلما فُرض عليهم القتال، نكل أكثرهم عن الجهاد، وتخلفوا بعد مشاهدة العدو، إلا قليلاً منهم، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي والله عالم بظلم هؤلاء الناكثين العهد، وسيجازيهم عليه، والآية وعيد لهم على توليهم عن القتال، وتنافي أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾ شروعٌ في تفصيل ما جرى بينه عليه السلام، وبينهم من الأقوال والأفعال، أي قال لهم نبيهم بعد ما أوحى الله إليه: إن الله قد ملَّك عليكم طالوت، و«طالوت» اسم عبري كداود، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب عليهم السلام ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي كيف يكون ملكاً

علينا؟ والحال أننا أحقُّ بالمُلْك منه، لأننا من أولاد الملوك، وهذا منهم تعنُّتٌ واعتراض على أمر الله ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي وهو عدا عن ذلك فقير لا يملك المال، الذي يجمع القلوب حوله، فكيف يكون ملكاً علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أي قال لهم نبيهم، لما استبعدوا تملّكه عليهم لفقره: إن الله عزَّ وجلّ قد اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: سعة العلم، وقوة الجسم، وقد خصه الله منهما بحظٍ وافر، والعمدة في اختيار الرجال، وفور العلم ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء، ثم تمم كلامه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه سبحانه مالك الملك، فله أن يؤتيه من يشاء من عباده، وهذه تدل على بطلان من يقول من الشيعة: إن الإمامة موروثة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يوسّع على الفقير ويغنيه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك، وفي اختياره تعالى ﴿واسع عليم﴾ من حسن المناسبة ما لا يخفى، حيث نبَّه فيما سبق على سعة العلم، وبسطة الجسم.

ومن ثمَّ طلبوا من نبيّهم آيةً، على اصطفاء الله لطالوت، فأجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق، يريد به صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه بين يديه، فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرُّون، ولهذا قال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي في التابوت السكونُ والطمأنينةُ، والوقار، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، والله ينصر الحق ببعض ما شاء من آياته ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون، وهي عصا موسى وثيابه، وعمامة هارون، وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي حال كونه محمولاً للملائكة[1]، ثم قرَّر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم،

---

(١) قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته =

إن كانوا ممن يؤمن ويبصر بعين الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في نزول التابوت على هذا الوصف، لآية عظيمة على اصطفاء الله لطالوت، ليكون ملكاً عليهم، إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ في هذه القصة إيجاز، يدل عليه السياق ويدركه العالم، وهو: فاتفق بنو إسرائيل، على أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له وانقادوا، وتهيئوا لغزو عدوهم ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي فلما خرج طالوت بالجيش، وانفصل عن بلده لقتال العمالقة، وجاوز الديار، وكانوا ثمانين ألفاً، فيهم المؤمن والمنافق، والشجاع والجبان، أخذ بهم في أرضٍ قفرة، لا ظلَّ فيها ولا ماء، فأصابهم حر وعطش شديد، أراد أن يختبر صبرهم وطاعتهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي قال لجنوده: إن الله مختبركم بنهر من ماء - وهو نهر بين الأردن وفلسطين - ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فمن شرب من مائه، فلا يصحبني في هذه الحرب ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي ومن لم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي، أراد بذلك أن يختبر طاعتهم

= بين يدي طالوت، والناس ينظرون، فكان ذلك علامةً لهم على اصطفاء طالوت للملك، والإمارة عليهم.

وصبرهم على تحمل المكاره والشدائد، فإنما يعرف الرجال وقت الشدة، ومعنى ﴿يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه، قال ابن قتيبة: يقال: لم أطعم خبزاً، ولا ماءً، ولا نوماً. واستثنى من ذلك من أخذ بيده حفنة ماء، ليبلَّ عطشه، وينقع غُلَّته، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ الغُرفةُ: هي الحفنة التي تحصل في الكف من الماء، أي إلا من اغترف بيده، قليلاً من الماء فشربه، فلا حرج عليه، لأنه يخفّف العناء، ولا يُذهب العطش، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء، علم أنه يطيع فيما سواه، فيصلح لخوض غمار الحرب، ومن غلبت شهوته في الماء، وعصا الأمر، فهو في الشدائد أحرى بالعصيان، فلا يصلح للحرب، قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فشربوا من ماء النهر وأفرطوا، إلاَّ فئةً قليلة منهم صبروا على العطش.

قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقَّى معه أربعة آلاف[1] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والحر، ورأوا كثرة عدوهم، اعتراهم الخوف والضعف، فقال فريق منهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء، مع قائد جيشهم «جالوت» فنحن قلة قليلة، وهم كثرة كثيرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي قال المؤمنون الصادقون، الذين يعتقدون لقاء الله، وهم الصفوة من العلماء الأبرار ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس النصر عن كثرة العدد، فكثيراً ما غلبت الجماعةُ القليلة الجماعةَ الكثيرة، بإرادة الله ومشيئته ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالحفظ والرعاية والتأييد، فالمراد بالمعية هنا: معية نصره تعالى وتوفيقه.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٠.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي ولما ظهروا أمام أعدائهم الكثيرين، أمام طالوت وجنوده، وشاهدوا العدو، بما هم عليه من العَدد والعُددَ، وأيقنوا أنهم غير مطيقين لقتالهم ﴿قَالُوا۟﴾ جميعاً متضرعين إلى الله تعالى، متبرئين من الحول والقوة ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والمراد حبس النفس على القتال، وعلى مقاساة شدائد الحرب، والإفراغ الصبُّ، يُقال: أفرغتُ الإناء إذا صببت ما فيه، وهو أبلغ من «أنزل علينا صبراً» ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في ميدان القتال، وثباتُ القدم: عبارة الرسوخ عند المقارعة، وعدم التزلزل وقت المقاومة ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بقهرهم وهزمهم، ووضع «الكافرين» موضع ضميرهم، للإشعار بعلة النصر عليهم، لأن قوم جالوت كانوا عَبَدة أصنام، وقد راعوا في الدعاء ترتيباً بديعاً، حيث قدَّموا سؤال إفراغ الصبر، ثم تثبيت القدم، ثم النصر الذي هو الغاية.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي استجاب الله دعاءهم، فصبروا وثبتوا ونُصِروا ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بنصر الله وتأييده ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل البطل «دواد» ـ وكان في ضمن جيش طالوت ـ قتل رأس الطغيان «جالوت» واندحر جيشه ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة، ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة في

شخص قبله، بل كانت النبوة في سِبْطٍ، والمُلْكُ في سِبْط ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ تعليمه إياه من صنعة الدروع وكلام الطيور، وسياسة الملك وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس ﴿بِبَعْضٍ﴾ آخر ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس بنصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لأفسدوا في الأرض ولفسدت الأرض بشؤمهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وقتل داود جالوت ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق، الذي لا يشك فيه أرباب التواريخ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع، وهذا رد لمن أنكر نبوته ﷺ.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل، واللام للاستغراق ومن جملتهم الرسول ﷺ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في مراتب الفضل، بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمآثر جليلة، خلا عنها غيره وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون في صفة الإيمان، ويتفاوتون في مراتب الكمال، وقيل: التفضيل بالشرائع ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفصيل للتفضيل المذكور، أي كلَّمه الله تعالى من غير سفير، وهو موسى عليه السلام على جبل الطور، ومنهم آدم عليه السلام، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ونبينا ﷺ في المعراج، حتى وصل سدرة المنتهى وبينه

وبين موسى بون بعيد ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ بأن فضَّله على غيره من وجوه متعددة، وهو الرسول ﷺ، فإنه خص بالدعوة العامة، والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والإبهام لتفخيم شأنه، كأنه العَلَمُ المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فُضّلتُ على الأنبياء بستٍ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأُحلَّت ليَ الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيّون»[1] ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات الظاهرة كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي بالروح المقدسة، وهي روح عيسى، وقيل بجبريل، وخص عليه السلام بالتأييد، لإفراط اليهود في التحقير، والنصارى في التعظيم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدى الناس جميعاً ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد الرسل من الأمم المختلفة لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على الحق ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ من جهة أولئك الرسل، جاءتهم المعجزات والآيات الظاهرة الدالة على حقيقة الحق ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً، ثم بيَّن الاختلاف ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بما جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بذلك لا ارعواء لهم عنه، فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم، فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم واختيارهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرتبة أيضاً من الاختلاف والشقاق ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وما نبض منهم عرق من التطاول والتعادي لما أن الكل تحت ملكوته تعالى، فالتكرير ليس للتأكيد بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجباً لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي من الأمور الوجودية والعدمية فيوفق من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً، لا اعتراض عليه في ملكه

---

(١) رواه مسلم في المساجد رقم ٥٢٣ والترمذي في السير رقم ١٥٥٣.

وفعله، وفيه دليل بيِّنٌ على أن الحوادث تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً، إيماناً أو كفراً، وعلى أن الأنبياء عليهم السلام متفاوتة الأقدار، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ ما أوجبنا عليكم إنفاقه وهو المروي عن الحسن وقيل يدخل فيه الفرض والنفل، وهو المروي عن ابن جريج واختاره البلخي ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ ولا مودة ولا صداقة حتى يغنيكم والخلة بمعنى الخصلة وزناً ومعنى جمعه خلال ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ للكافرين وأما المؤمنون فلهم الشفاعة بإذنه تعالى ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يريد التاركون للزكاة، فوضع «الكافرون» موضعه تغليظاً وتهديداً كقوله تعالى: ﴿ومن كفر﴾ مكان من لم يحج، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار، لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ والله سبحانه يذكر شيئاً من الأحكام ثم يذكر عقيبه الوعد والوعيد، ويجمع علم التوحيد، وعلم الأحكام، والقصص، لئلا يوجب الملال، وهذا أحسن في الترغيب، كما أن الإنسان إذا انتقل من بستان إلى بستان آخر، يشرح به صدره، يكون أسعد وأبهج.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة لا غيره، وهو واحد، أحد، فرد صمد، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ والحياة فيه سبحانه صفة موجودة حقيقة، قائمة بذاته تعالى، لا تعلم حقيقتها كسائر صفاته، الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة للقيام أي الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، والقائم بذاته والمقوم لغيره ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَةُ: فتورٌ يتقدم النوم، ويقال لها: النعاس، أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس قال: «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى: هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربُّه يا موسى يسألونك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل، ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلثاه نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام، لسقطت السماوات والأرض فهلكن، كما هلكت الزجاجتان في يديك»[1] فأنزل الله على نبيه آية الكرسي. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكاً، وتصرفاً، يتصرف فيهما كما يشاء، وهو تقريرٌ لقيُّوميته، واحتجاج على تفرده في الألوهية، ولم يقل «من في السماوات والأرض» للتنبيه على أن كل المخلوقات، مسخرون في قبضة قدرته، وقهره، وهم في ذلك كالجمادات، التي لا قدرة لها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى ﴾ بيانٌ لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، وهذا استفهام انكاري ﴿ يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ ﴾ أي لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا إذا أذن له البارىء جلَّ وعلا، ولا يظنّ أحد أن الشفاعة تحويل القَدَر، بمعنى أنَّ الله تعالى يريد تعذيب شخص، فتنقذه الشفاعة، فهذا غير لائق بكبرياء ذاته عزَّ وجل، بل الشفاعةُ مظهرٌ لتكريم الشافع، ودليلٌ على إذنه تعالى ورضائه، كما في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير في تفسيره ١/٣١٦ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ـ الميزان ـ ويرفعه، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ـ أي أنوار وجهه ـ ما انتهى إليه بصره من خلقه».

قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي إلا أن يأذن الله بذلك، فالمعنى: لا يشفع أحد إلاّ بإرادته ورضائه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما أمامهم من أمور الدنيا وما خلفهم من أمور الآخرة، لا يغيب عنه شيء من أحوال الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦ﴾ من معلوماته يقال أحاط بالشيء علماً: إذا علمه بوجوده، وجنسه، وحقيقته، وقدره، وعطفه على ما قبله، لما أنهما جميعاً دليل على تفرده بالعلم الذاتي، الدال على وحدانيته تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أن يعلموه وهم الأنبياء عليهم السلام، ليكون دليلاً على نبوتهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الكرسي ما يُجلس عليه، والكلام مساق على سبيل التمثيل لعظمته تعالى[1]، وشأنه، وسعة سلطانه، وإحاطة علمه وأكثر السلف الصالح فوَّضوا علمه إلى الله تعالى ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ﴾ ولا يُثقله، ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حفظُ السماوات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه، ذو العظمة والجلال، الكبير المتعال. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ في عِزّه وجلاله، الذي يُستحقر بالإضافة إليه كلُّ ما سواه أخرج مسلم وأحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي»[2]. وأكثر الأحاديث في هذا الباب، حجة لمن قال إن بعض القرآن يفضل على بعض، فمنع منه الأشعري والباقلاني لاقتضائه نقص المفضول وأجازه إسحق بن راهويه وكثير من المتكلمين، وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلَهية، دالة على أنه تعالى موجود، واحد

---

(١) فسَّر ابن عباس الكرسي بأنه العلم كما حكاه عنه ابن جرير، وابن كثير، وقال ابن كثير: وفسَّره بعضهم بالعرش، والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين ١/٢٥٥٦ عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم.. الحديث.

أحد، واجب الوجود، القائم بنفسه، المقيم لغيره، المنزَّه عن التحيز والحلول، المبرأ عن التغير والفتور، مالك الملك والملكوت، متعالٍ لا يدركه الوهم، عظيم لا يحيط به الفهم.

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ الإكراه: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، يقال: أكرهته على الأمر: أي حملته عليه قهراً وقَسْراً والمعنى: لا إجبار ولا إكراه لأحدٍ، على الدخول في الإسلام ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ تميَّز الإيمان من الكفر، بالآيات الواضحة، فالإيمان رشدٌ، يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ، يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ بالشيطان والأصنام، وكلِّ ما عُبد من دون الله ﴿ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ بالتوحيد، وتصديق الرسل ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ ﴾ تمسَّك ﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ من الحبل الوثيق، والمراد بالعروة الوثقى هنا: الدين الحقُّ، الذي جاء به خاتم المرسلين، وهو دين الإسلام، شبَّه المستمسك بدين الإسلام، بالمستمسك بالحبل المحكم، وهو تشبيه تمثيلي، والوثقىٰ: تأنيث الأوثق أي الأشد ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوال العباد، عليم بأفعالهم ونيّاتهم، ولما كان الكفر والإيمان ممَّا ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حسن ختم الآية بقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ من أجل النطق، و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل النية والمعتقد.

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي الله جلَّ وعلا ناصر المؤمنين، ومتولي

أمرهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يخرجهم بهدايته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وحَّد تعالى «النور» لوحدة الحقِّ، وجمع «الظلمات» لتعدّد فنون الضلالات، وإنما سمَّى الكفر بالظلمات، لأن الظلمة تحجب الأبصار، كذلك الكفر يحجب البصيرة، حتى لا يدرك الإنسان حقائق الإيمان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي والكافرون المكذّبون لرسل الله، أولياؤهم وأنصارهم الشياطين الغاوون ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ أي يخرجونهم بالوساوس وإلقاء الشُّبَه، من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والضلال ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الأشقياء الكفار، هم أهل النار وأصحابها، لا يخرجون منها أبداً، بسبب تمردهم في الطغيان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيبٌ للسامع، وتنبيه لأمر هذا الكافر، الذي بلغ به الكفرُ والطغيانُ، إلى درجة الحماقة، أن يجادل ويخاصم «إبراهيم» عليه السلام في وجود الله ووحدانيته، زاعماً أنه لا ربَّ في الوجود، غير «النمرود» وهو «نمرود بن كنعان» ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي لأجل أن آتاه الله الملك، حيث حمله بطره، وأورثه كبره، على إنكار وجود الله، فقابل الفضل والإحسان، بالكفر والطغيان، وهذا أقبح الكفر، وأظلم الظلم، لأنه وضع الكفر بنعم الخالق موضع الشكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي حين قال له إبراهيم عليه السلام ـ أثناء المحاورة والمناظرة ـ إن ربّي هو الذي ينشىء الحياة والموت في الأجساد، فيحيي ويميت، وهو وحده رب العالمين ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي

﴿وَأُمِيتُ﴾ أي فقال له ذلك الأحمق السفيه: وأنا أيضاً أحيي وأميت، فدعا النمرود برجلين، كان قد حكم عليهما بالقتل، فأخرجهما من السجن، فأمر بقتل أحدهما ثم قال: هذا أمتُّه، وأمر بإطلاق سراح الآخر، ثم قال: وهذا أحييته!! ولما رأى إبراهيم حماقته، وشغبه في الدليل، عدل إلى برهانٍ آخر، أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجد ذلك الشقي مجالاً للتمويه ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي قال له إبراهيم: إذا كنت تدّعي الربوبية، وأنك تحيي وتُميت، كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كل يوم من المشرق، وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك، واجعلها تطلع من المغرب، وتغرب من المشرق، ولو مرة واحدة، حتى نرى آثار ربوبيتك!! ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي فأصبح مبهوتاً متحيراً ذلك الشقي، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الخلق ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم، ولا يلهمهم الحجة والبيان، في مقام المناظرة، لقد كان إبراهيم رائعاً وبارعاً، في إفحام خصمه، فلم يلتفت إلى إبطال مقالته الأولى حين سمع جوابه الأحمق ﴿أنا أحيي وأميت﴾ بل انتقل مباشرة إلى مثالٍ آخر، لا يستطيع اللفَّ والدوران حوله، ليبهته ويُلقمه الحجر، ولهذا بُهت الذي كفر، وهذا من قوة ذكاء الخليل إبراهيم عليه السلام، وقوة حجته وبيانه!.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

هذا من باب عطف القصة على القصة، وكأنه يقول: هل رأيتَ مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ وهل رأيت مثل الذي مرَّ على قرية؟ ولهذا عطفها على القصة السابقة، والغرضُ التعجيب في الحالتين: من صنيع النمرود، واستغراب الرجل الصالح «عزير» إعادة الحياة إلى المدينة المخرَّبة على أهلها، وكلتا القصتين فيها إشارة إلى قدرة رب العالمين، في الإحياء والإماتة. قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ جمهور المفسرين على أنه «عزير» الذي زعم اليهود، أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ لأن الله أماته في الدنيا ثم أحياه، فقالوا: إنه ابن الله، والمعنى: ألم يصل إلى سمعك، ويبلغك خبر الرجل الذي مرَّ على مدينة بيت المقدس، بعد أن خرَّبها «بختنصَّر» المجوسي ودمَّرها على أهلها؟ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أعاده كهيئته يوم موته، عاقلاً فاهماً مستعداً للاستدلال ﴿قَالَ﴾ أي قال له بعد بعثه ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ ليظهر له عجزه عن الإحاطة بشؤونه تعالى، ويطّلع في تضاعيفه على أمر آخر، من بدائع قدرته تعالى، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهراً طويلاً، من غير تغيّر ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على الظن والتقريب ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي مكثت مدة طويلة وهي مائة سنة ﴿فَانظُرْ﴾لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير في هذه المدة ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، ليتبيَّن لك ما ذُكر، من اللبث المديد، وتطمئن به نفسك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك لنجعلك آية للناس، الموجودين في هذا القرن ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي عظام الحمار، لتشاهد كيفية الإحياء ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي نردُّها إلى أماكنها من الجسد، فنركّبها تركيباً لائقاً بها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يُستر الجسد باللباس، روي أنه نودي أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تتجمعي، فاجتمع والتصق كل عضو بما يليق به، ثم انبسط عليه اللحم، ثم الجلد، ثم خرج منه الشَّعْرُ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو ينهق ﴿فَلَمَّا

تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي اتضح اتضاحاً تاماً ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه وفي غيره.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين ﴿رَبِّ﴾ كلمة استعطاف قُدّمت بين الدعاء، مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿أَرِنِي﴾ من الرؤية البصرية ﴿كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ بأن تحييها وأنا أنظر إليها، وإنما سأله لينقل من مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة عين اليقين، وفي الخبر «ليس الخبر كالمعاينة» روى محمد بن إسحق أن سبب السؤال، منازعة النمرود إياه في الإحياء حيث رد عليه السلام عليه لمَّا زعم أن العفو إحياء، وتوعَّده بالقتل إن لم يُحْي الله الميت بحيث يشاهده فدعا عليه السلام حينئذ ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أو ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء، حتى تسألني إراءته؟ قال عزَّ وجلّ وهو أعلم بأنه عليه السّلام أثبت الناس إيماناً وأقواهم يقيناً، ليجيب بما أجابه، فيكون ذلك لطفاً للسامعين، فيعلموا غرضه ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أيّ كيفية شئت ﴿وَلَٰكِن﴾ سألت ما سألت ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بانضمام العَيان إلى الإيمان، وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة، وهذا لا ينافي منصب النبوة أصلاً، ويدل على ذلك ورود السؤال بلفظ «كيف» فهو لا يشكُّ أنه قادر، ولكنه سأل عن الكيفية، والطمأنينةُ إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب بالشك، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة ﴿قَالَ فَخُذْ﴾ أي إن أردت فخذ ﴿أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل هي طاووس، وديك، وغراب، وحمامة، وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان واجمع

لخواص الحيوان، ولسهولة تأتّي ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ صار يصور ويصير لغتان، بمعنى قطّعه أو أماله، أي أملهن أو قطعهن واجمعهن ﴿إِلَيْكَ﴾ لتتأملها حتى تعلم بعد الإحياء، أن جزءاً من الأجزاء لم ينتقل من موضعه الأول، أمره تعالى بأن يذبحها، ويفرّق أجزاءها، ويمسك رؤوسها، ثم أمره بأن يجعل أجزاءها على الجبال ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ أي قل لهن تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ساعيات، والحكمةُ في سعيهنَّ دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة، لأنها لو طارت لتوهم متوهمٌ أنها غير تلك الطيور. روي أنه عليه السلام نادى، فجعل كل جزء منهن يصير إلى صاحبه، حتى صارت جثثاً ثم أقبلن إلى رؤوسهنَّ، فانضمت كل جثة إلى رأسها، فعادت كل واحدة منهن، إلى ما كانت عليه من الهيئة ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في أفعاله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في وجوه الخيرات، من الواجب والنفل قيل: المراد هنا الإنفاق في الجهاد، لأنه هو الذي يضاعف هذه الأضعاف، وأما الإنفاق في غيره فلا يضاعف كذلك، وإنما تُجزى الحسنةُ بعشر أمثالها ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبَّة والحب اسم جنس للحنطة ونحوها، مما يكون في السنبل ﴿أَنۢبَتَتْ﴾ أخرجت تلك الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي ساقاً تشعب منها سبع شعب ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنباتُ إلى الحبة، لمَّا كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء النباتُ، والمنبت على الحقيقة هو الله، والمعنى أنه يخرج منها ساق، يتشعب منها سبع شعب، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو

تمثيل لا يقتضي وقوعه، وقد يكون في الذرة والدخن وفي البر في الأراضي المغلة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة، أو فوقها إلى ما شاء الله تعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله، على حسب حال المنفق، من إخلاصه، وتعبه، وإيقاع الإنفاق في أحسن مواقعه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الجود والفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيان لكيفية الإنفاق الذي بيَّن فضله بالتمثيل المذكور ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي ما أنفقوه ﴿مَنًّا﴾ هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه، مننتُ عليه أي عددت له ما فعلت له من الصنائع، نهى الشارع تعالى عنه، ومن هنا يقال: «المَنُّ أخُ المنِّ» أي الامتنان أخ القطع، ويقال إذا صنعتم صنيعة فانسوها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ الأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه، فيقول كم تسأل، وقد بليتُ بك، وأمثال ذلك، وقدَّم المنَّ لكثرة وقوعه، وهذه الآيات نزلت في عثمان رضي الله عنه فإنه جهَّز جيش العسرة بألف بعير، وألف دينار، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، ولم يكد يخطر ببالهما شيء من المنِّ والأذى ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ثواب إنفاقهم حسبما وعدهم في التمثيل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردٌّ جميل يُردُّ به السائل، من غير إعطاء شيء،

مثل قوله يرزقك الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وعفو عن السائل، إذا وُجد منه ما يثقل على المسؤول من الإلحاح وغيره ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ لكونها مشوبة بضر ما يتبعها ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن صدقات العباد، وإنما أمرهم لمصلحةٍ تعود إليهم، ولا حاجة له إلى منفق يَمُنُّ ويؤذي ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلته بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقبل عليهم بالخطاب إثر بيان ما بَيَّن، بطريق الغيبة مبالغة في إيجاب العمل بموجب النهي ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم﴾ أي لا تضيّعوها، والصدقةُ: ما يخرجه الإنسان من ماله، على وجه القُربة ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما ﴿كَٱلَّذِى﴾ أي إبطالاً مثل إبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي مراءاةً لهم وسمعة، ليروا نفقته، ويقولوا عنه إنه سخيٌّ، والرياء إظهار الجميل ليراه الناس ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي كإبطال المنافق الذي لا يريد به رضاء الله تعالى، ولا ثواب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالله حتى يرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ مثل من لا ينفق لوجه الله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر كبير أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ يسير ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر شديد دافق، عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ نقياً من التراب فالصفوان والتراب إنفاقهُ، والوابل كالرياء والمنِّ والأذى، يحبط عمل هذا ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ لا ينتفعون بما فعلوا، ولا يجدون له ثواباً والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى ما ينفعهم، وفيه تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لطلب رضاه ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وتثبيتاً لأنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذله لوجه الله، فقد ثبَّت نفسه على الإيمان والإخلاص، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق، تزكية النفس عن البخل، وحب المال الذي هو رأس كل خطيئة، والمعنى ومثل هؤلاء في زكائها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان بموضع مرتفع، خصَّها بذلك لأن الشجر فيها أزكى، وأحسن ثمراً ومنظراً، للطافة هوائها، وعدم كثافته ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي مثلَيْ ما كانت تُثمر قبل، فالتشبيه للكثرة، وحاصلُ هذا التشبيه أن نفقات هؤلاء، زاكية عند الله تعالى لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت الإخلاص، وجيد المال ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي رُشَاشٌ خفيف، وهو مطر ضعيف القطر، يكفيها للطافة هوائها، وارتفاع مكانها فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة، بعد أن تكون لوجه الله، زاكية عند الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم ويعلم نيتكم فيها، وهو ترغيب في الإخلاص، وتحذير من الرياء ونحوه.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم﴾ والهمزة لإنكار الوقوع ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ تخصيصها بالذكر، لأنهما أشرف الفواكه وأحسنهما، لما فيهما من الغذاء والتفكه ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جريُ الأنهار من تمام حسنها، وسببٌ لزيادة

ثمرتها ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي تحتوي سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن والشيخوخة، وهي مظنة الاحتياج إلى منافعها، لأنه إذا أصابه الكبر، عجز عن الاكتساب، وكثُرت حاجاتُه ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ صغار ولا قدرة لهم على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ريح ترتفع بتراب نحو السماء كالعمود، والعرب تسميه أيضاً الزوبعة. روى البخاري عن ابن عباس قال: «قال عمر رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾؟ قالوا: الله أعلم!! فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، قال عمر: أيُّ عملٍ؟ قال ابن عباس: لعملٍ، قال عمر: لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله عزّ وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعمالَهُ»[1]، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح، الجاري في الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ في التوحيد والدين ﴿ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كي تتفكروا فيها فتنتبهوا بها، وتعملوا بموجبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجيّده، كقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٢٠٢.

تنفقوا مما تحبون﴾ وفيه دليل على وجوب الزكاة في أموال التجارة، وعلى إباحة الكسب، وعلى أن المال ينقسم إلى طيّب، وخبيث ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحب، والثمر، والمعادن وغير ذلك، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسان، أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقة»[1]. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ تيممته أي قصدته، والخبيثُ الرديء الخسيس ﴿مِنْهُ﴾ أي من المال الخبيث ﴿تُنفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق، عن البراء بن عازب قال: نزلت فينا كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بالقِنْوِ فيعلقه بالمسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فسقط البسر أو التمر فيأكل، وكان أناس مما لا يرغب الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشو فيعلّقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»[2]. وعن علي قال: نزلت في الزكاة المفروضة، كان الرجل يعمد إلى التَّمر فيصرمه ـ أي يقطعه ـ فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي والحال أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته، في أيِّ وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ إلاّ وقت إغماضكم فيه، وهو عبارة عن المسامحة، من قولك: أغمض فلانٌ عن بعض حقه، إذا غض بصره كأنه لا يبصر، وأصله من الغموض وهو الخفاء ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع علمهم به، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأن الله تعالى ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد على نعمه.

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٣ ومسلم رقم ١٥٥٣ باب فضل الغرس والزرع.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٨.

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ قيل: إبليس، وقيل: شياطين الإنس والجن، وكلُّ من منع فعل الخير والإحسان.

ولما رغَّب الله تعالى الإنسان في الإنفاق حذَّره بهذا من وسوسة الشيطان ﴿ يَعِدُكُمُ ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون، قالوا في الخير وعَدَه وعداً، وعِدَةً، وفي الشر وعَدَه وعيداً، فالمصدرُ فارق ﴿ ٱلْفَقْرَ ﴾ في الإنفاق، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدّقين، فيقول لهم: لا تنفقوا، فإن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي يُغريكم على البخل ومنع الصدقات ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم ﴾ في الإنفاق على لسان نبيكم ﴿ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ لذنوبكم ﴿ وَفَضْلًا ﴾ أي وأن يخلفكم أفضل مما أنفقتم ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تنفقونه فيجازيكم عليه.

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ ﴾ الحكمةُ: تحقيق العلم، وإتقان العمل، والمراد بها علم القرآن والسنة، وروي عن ابن عباس قال: إنها النبوة. وهي في الأصل مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم، أو عملٍ، أو قول، ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده بموجب سَعَة فضله، وإحاطة علمه ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي ومن يؤته الله الحكمة، والإظهار في موضع الإضمار للاعتناء بشأنها ﴿ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ إذ جمع له خير الدارين، أخرج الطبراني عن أبي أُمامة مرفوعاً: «إنَّ لقمان قال لابنه: يا بنيَّ عليك مجالس العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض

الميت بوابل المطر»[1] وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَد إلا في اثنتيْن: رجل آتاه الله تعالى مالاً فسلَّطه على هَلَكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها»[2] وهذا بالنسبة إلى حملة العلم الشرعي الذي جاء به حكيم الأنبياء ﷺ، لا ما وضعه الفلاسفة اليونان في وقت كثرت فيه الأوهام ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي وما يتعظ بما قص من الآيات ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إلا ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم، واتباع الهوى وهؤلاء هم الذين أوتوا الحكمة.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في طاعة أو معصية في سبيل الله ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، متعلق بالمال أو بالأفعال، كالصلاة والصيام ونحوهما، والنذر عقد القلب على شيء والتزامه على وجه مخصوص ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي يجازي عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم في المعاصي، أو لا يوفون بالنذور، وغير ذلك مما ينتظمه من أنواع الظلم ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من بأس الله، ويمنعهم من عقابه، وفيه وعيد عظيم لكل ظالم.

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ سئل رسول الله ﷺ هل صدقة السر أفضل، أم صدقة العلانية؟ فنزلت، والمراد من الصدقات على ما ذهب إليه جمهور

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي أُمامة مرفوعاً، وأمثال هذا كثير من حِكَم لقمان.
(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٥٣ في العلم، ومسلم رقم ٨١٦.

المفسرين صدقات التطوع أي إن تُظهروا الصدقات ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعم شيئاً إبداؤها إن لم تكن رياءً أو سمعة، ويُستحب إخفاؤها للخائف من الرياء، والكبرياء، والإبداء أفضل في الصدقات المفروضة، وأما التطوع فالإخفاء أفضل، وهي التي أريد بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي تعطوها خفية ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ ولعل التصريح بإيتائها الفقراء لحث المتصدق على أن يتحرى موضع الصدقة، فيميز الفقراء من غيرهم، فإذا عجز بعض الناس عن الكسب، لآفة في فكره، أو علة في بدنه، فيجب على الأغنياء الأخذ بيده شكراً لله تعالى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فالإخفاء خير لكم من الإبداء.
عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: يا رسول الله: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرّ إلى فقير[1]، ثم قرأ الآية: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أصل التكفير: الستر والتغطية، فتكفير السيئات دفع العقاب ورفعه عن الإنسان، بثواب أو بتوبة، حتى تصير بمنزلة ما لم يُعْمَل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بما تفعلونه، فهو ترغيب في الإسرار.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أي لايجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد على المحاسن، والنهي عن القبائح، بما أوحي إليك من الآيات ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته إلى ذلك ممن يتذكر بما ذُكِّر، ويختار الخير ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟﴾ التفات إلى خطاب المكلفين، لزيادة هزّهم نحو الامتثال ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ من أي شيء تنفقون ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ فنفعه الديني

(١) الحديث رواه أحمد، وابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٠.

لأنفسكم، لا ينتفع به غيركم، فلا تمنُّوا على الفقراء، ولا تؤذوهم ولا تنفقوا من خبيث أموالكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وطلب ثوابه، أي وليس نفقتكم إلا لابتغاء وجهه، فما بالكم تمنُّون بها؟ وقيل: نفيٌ في معنى النهي ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، روي أن الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قالت: كنتُ صغيرة فكبَّرتني، وكنتَ حارسي فالآن أنا حارسك، وكنت فانياً فأبقيتني!! وروي عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي ولا تحصي فيحصى عليك، ولا توعي فيوعى عليك[1]» والمعنى: أنفقي ولا تشحّي فيجازيك بالتقتير ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقتكم شيئاً مما وعد.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بيَّن تعالى في هذه الآية أشد الناس استحقاقاً للصدقة فقال ﴿للفقراء﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٤٠ عن أسماء قالت: قلت يا رسول الله، مالي مالٌ إلاَّ ما أدخلَ عليَّ الزبير، أفأتصدَّقُ؟ قال: «تصدَّقي، ولا تُوعي فيوعي الله عليكِ» ورواه مسلم رقم ١٠٢٤ والترمذي رقم ٦٧٢.

﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أحصرهم الجهاد في سبيل الله فمنعهم من التصرف ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم بالجهاد ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ الكسب والتجارة، وهم أصحاب الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صُفَّة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ وعن سعيد بن جُبير: هم قوم اصابتهم الجراحات في سبيل الله فصاروا زمنى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال وهو من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه، مع القدرة على تعاطيه ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أي تعرف فقرهم ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من صُفرة الوجه، ورثَاثَة الحال، وأثر الجهد، وقد كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى بالناس «يخرُّ رجال من قيامهم في صلاتهم، لما بهم من الخصاصة، وهم أهل الصفة»[1] والخطاب لكل من له حظ من الخطاب، والسيما: العلامةُ التي يُعرف بها الشيء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي إلحافاً هو أن يلازم المسؤولَ حتى يعطيه، والمعنى: لا يسألون شيئاً وإن سألوا الحاجة اضطرتهم إليه لم يُلِحُّوا، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غنى النفس»[2] وعن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش أو كدوحٌ، قيل: ما يغنيه يا رسول الله؟ قال: خمسون درهماً، أو قيمتها من الذهب»[3] ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده ويجازي عليها فهو ترغيب في التصدق لا سيما على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين

---

(١) أخرجه أبو نعيم عن فضالة بن عُبيدة، ويؤيده قول أبي هريرة: إنْ كدتُ لأخرُّ من الجوع.
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٢٣١ ومسلم في الزكاة رقم ١٠٥١.
(٣) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٦٢٦ والترمذي رقم ٦٥٠ والنسائي ٥/ ٩٧ في الزكاة.

ومعلنين، يعني يعمُّون الأوقات بالصدقة، فالمراد بالليل والنهار جميع الأوقات، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المخبوء لهم في خزائن الفضل ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، أو أريد بالأكل الانتفاع، كما يقال: فلان أكل ماله كلَّه، والربا في اللغة مطلق الزيادة، وفي الشرع هو فضل مال خالٍ عن العوض في المعاوضات. عن جابر قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكِلَه وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[1] ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إلاّ قياماً كقيام المصروع الذي يتخبطه الشيطان ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي الجنون يقال: مُسَّ الرجلُ فهو ممسوس إذا جُنّ، وأصله اللمس باليد، وسمي به لأن الشيطان قد يمس الرجل فيحدث الجنون، وفي الحديث: «ما من، مولود يولد، إلاَّ والشيطان يمسُّه حين يولد فيستهل صارخاً»[2]، أي يصيح أي لا يقومون إلا كما يقوم المصروع، فيكون نهوضهم وسقوطهم، كالمصروعين، لا لاختلال عقولهم بل لأن الله تعالى أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٥٩٨ باب لعن آكل الربا وموكله.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٣٨ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٦٦ وتتمة الحديث: فيستهلُّ صارخاً من مسِّ الشيطان إياه، إلاَّ مريم وابنها.

فأثقلهم فصارو مخبَّلين، ينهضون ويسقطون، تلك سيماهم عند أهل الموقف ﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح بناءً على ما فهموه، أن البيع إنما حل لأجل الكسب، وذلك في الربا متحقق فكذبهم الله بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ إنكار لتسويتهم بينهما، إذ الحلُّ والحرمةُ ضدَّان، فأنى يتماثلان؟ فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيَّع درهماً، فلا يقال إن عوضه هو الإمهال، لأن الإمهال ليس مالاً أو شيئاً يشار إليه حتى يجعله عوضاً ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ وزجر ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وفي ذكر الرب تأنيس لقبول الموعظة، إذ فيه إشعار بإصلاح أمر عبده، أي فمن بلغه وعظ من الله وزجر عن الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ واتعظ وانتهى بلا تراخ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي ما تقدم فلا يؤاخذ فيما مضى، وليس عليه رد ما سلف، لأنه أخذه قبل نزول التحريم، فأما من لم يقبض بعد، فلا يجوز له أخذه، وإنما له رأس ماله فقط، كما بينه تعالى في قوله: ﴿وإنْ تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ والسلفُ: المتقدِّم وكلُّ شيء قدمته أمامك فهو سلف ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه، إن كان عن قبول الموعظة، وصدق النية ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا إذ الكلام فيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من عاد ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ ماكثون أبداً لكفرهم بالاستحلال.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه والمحق: نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ ينميها ويزيدها، ويبارك في المال الذي أخرجت منه الصدقة، ويزداد كل يوم جاهُ المتصدق، وذكره الجميل، وميل القلوب إليه، وذلك أفضل من المال ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر، المصرّ على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله ورسله وبما جاءهم منه، ومن جملتها تحريم الربا ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ على الوجه الذي أُمروا به ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ عطفهما على ما يعمُّهما، لفضلهما على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الموعود لهم ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من آت ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على فائت.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في الظاهر ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي قوا أنفسكم عقابه ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا تركاً كلياً، نزلت في ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مالٌ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، وقالت قريش: والله ما نعطي الربا في الإسلام، وقد وضع الله تعالى عن المسلمين، واختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله ﷺ على مكة، فكتب عتاب إلى رسول الله ﷺ بقضية الفريقين، وكان ذلك مالاً عظيماً، فأنزل الله تعالى: ﴿وذروا ما بقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ فقالوا نتوبُ إلى الله، ونذر ما بقي من الربا، فتركوه كلهم[1]. وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ على الحقيقة كاملي الإيمان، فإن دليل كماله امتثال المأمور به.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨ فقد ذكر هذه القصة من رواية زيد بن أسلم والسُدِّي.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾ ما أُمرتم به من الاتقاء وترك الربا ﴿ فَأْذَنُوا ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به وقيل: فأذنوا أي فأيقنوا. وهو التفسير المأثور عن ابن عباس ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وهو كحرب المرتدين على الأول. وقيل هذا تهديد لا حرب، وجمهور المفسرين على الأول روي أنها لما نزلت قالت ثقيف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ من أكل الربا مع الإيمان بحرمتها بعد ما سمعوا من الوعيد ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ تأخذونها تماماً ﴿ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ بالمطل والنقصان فلما نزلت قالت ثقيف: نتوب إلى الله، ورضوا برؤوس أموالهم، فشكا من كان عليهم دين، وقالوا: أخّرونا إلى أن نتدارك الغلات فأبوا أن يؤخِّروهم، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أي إن كان غريم من غرمائكم ذو إعسار، فالحكم إنظاره وإمهاله إلى يساره ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا ﴾ بحذف إحدى التائين برؤوس أموالكم على من أعسر بالإبراء ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير لكم، لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وفيه تحريض للتصدُّق على المُعْسرين.

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال ﷺ: «من سرَّه أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفِّس عن معسر، أو ليضَعْ عنه»[1] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا

---

(١) أخرجه الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٩ وروى الإمام أحمد في المسند روايةً أخرى، أنَّ أبا قتادة كان له دَيْنٌ على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خَزِيرةً ـ حساء فيه لحم ودسم ـ فناداه فقال: يا فلان، اخرج فقد أُخبرتُ أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيِّبك عنّي؟ فقال: إني معسرٌ وليس عندي شيء، قال: آللهِ إنك معسرٌ، قال: نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من نفَّسَ عن غريمه أو محا عنه، كان في ظل عرش الله يوم القيامة».

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي تُعطى جزاءها كاملاً ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب، أو تضعيف عقاب، عن ابن عباس أنها آخر آية نزلت، وعاش ﷺ بعدها إحدى وعشرين يوماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع في بيان حال المداينة، فإنه تعالى لمَّا بالغ في الوصية، بحفظ المال الحلال عن التلف، لأنه سبب لمصالح المعاش والمعاد، حثَّ على الاحتياط في أمر الأموال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: داينته إذا عاملته نسيئةً معطياً أو آخذاً، قال ابن عباس: لمَّا حرم الله الربا أباح السلف، وقيل: المراد بها كل ما يؤجل من المعاوضات ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ

﴿مُّسَمًّى﴾ معلوم بالأيام والأشهر، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: «من أسلم في تمر، ففي كيل معلوم، أو وزن معلوم، إلى أجل معلوم»[1] وفي رواية «من أسلف» ومعناهما واحدٌ ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي الدين، لأنه أوثق وأدفع للنزاع، وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود، والأمر للندب، وعليه الجمهور، ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ﴾ بيان كيفية الكتابة المأمور بها وقال ﴿بَّيْنَكُمْ﴾ للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين، باختيار كاتب فقيه ديّن، حتى يكتب ما هو متفق عليه، من غير زيادة ولا نقصان ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي كاتب مأمون على ما يكتب وفيه دليل على أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدَّلاً بالشرع ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ أي لا يمتنع أحد من الكُتَّاب أن يكتب كتاب الدين ﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي مثل ما علَّمه الله تعالى كتابة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته، كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة، كقوله تعالى: ﴿وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ﴾ ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة التي أمر بها ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ولا يكون المملى إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود عليه، وعلى ثبوته في ذمته، فيكون ذلك إقراراً على نفسه والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي المُدِينُ على الكاتب، جَمَع ما بين الاسم الجليل، والنعت الجميل، للمبالغة في التحذير ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ وإن كان حقيراً، بَخَسه أي نقصه، والبخسُ أعمُّ من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات ويشمل أيضاً الغل والغش والحيل ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ صرح بذلك لزيادة الكشف والبيان ﴿سَفِيهًا﴾ أحمق أو جاهلاً بالإملاء أو مبذراً لماله ومفسداً لدينه ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي صبياً أو شيخاً خَرِقاً

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب السلم ٤/ ٣٥٥ ومسلم في المساقاة رقم ١٦٠٤ ورواية البخاري عن ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يسلفون في التمر العام والعامين، فقال لهم: من أسلف في تمر...» الحديث.

﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ بنفسه لخَرَسٍ كما روي عن ابن عباس، أو لما هو أعم منه، من الجهل باللغة، وسائر العوارض المانعة ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ ﴾ أي متولي أمره وإن لم يكن له خصوص الوليِّ الشرعي، فيشمل القيم والوكيل والمترجم ﴿ بِٱلْعَدْلِ ﴾ بين صاحب الحق والمولى عليه فلا يزيد ولا ينقص ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ ﴾ واطلبوا أن يشهد لكم شاهدان على الدين، والأمرُ للندب، أو للوجوب على الخلاف في ذلك ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ من الرجال المؤمنين، والحريةُ والبلوغ شرطٌ مع الإسلام، إذ الكلام في معاملتهم، أما إذا كانت المداينة بين الكفرة، أو كان من عليه الحق كافراً، فيجوز استشهاد الكافر ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ فيما عدا الحدود والقصاص ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ ممن تعرفون عدالتهم. روي عن عائشة أنها قالت: قال ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا مجلودٍ حداً، ولا ذي غِمْرٍ على أخيه، ولا القانع لأهل البيت، ولا ظنّين في ولاءٍ ولا قرابة»[1] أراد بالخيانة: الخيانة في الدين والأمانة، ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ تعليل لاعتبار العدد في النساء، أي لأجل أن تذكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت الشهادة، بأن نسيتها، لأن الغالب على طباع النساء النسيان ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ لأداء الشهادة، أو للتحمل، لئلا تضيع الحقوق، وقيل: نزلت الآية حين كان الرجل يطوف بالقوم، فيدعوهم إلى الشهادة، فلا يتبعه أحد منهم ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ ﴾ ولا تملُّوا ولا تضجروا ﴿ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾ أي الدين أو الحق من كثرة مداياتكم ﴿ صَغِيرًا ﴾ كان الحق أو الدين ﴿ أَوْ كَبِيرًا ﴾ أي كثيراً، أو مختصراً قليلاً ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون، أو الوقت الذي اتفق الغريمان على

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الشهادات رقم ٢٢٩٩ وقال: حديث غريب، ومعنى ذي الغِمْر: أي ذي الحقد، والقانع لأهل البيت: هو المنقطع إلى القوم يخدمهم مثل الأجير، والخادم، تردُّ شهادته للتهمة بانتفاعه منهم، والظنينُ هو المتَّهم بسبب قرابة أو ولاء.

تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلك الكتبُ والتسجيل ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه سبحانه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ وأثبت لها، وأعون على إقامتها، لأن الكتابة تذكر الشهود ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي وأقرب من انتفاء الريب، للشاهد، والحاكم، وصاحب الحق، فإنه قد يقع الريب في المقدار، والصفة، والأجل، والشهود، وإذا رجعوا إلى المكتوب، زال ذلك الريب ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ أي إلاّ أن تكون المعاملة يداً بيد ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما بينكم ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي لا بأس أن لا تكتبوها، لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم في التداين، ولكثرته بين الناس، فلو كُلّفوا فيه الكتابة والإشهاد، لشقَّ ذلك عليهم، ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ الأمر في هذه الآية للاستحباب، عند أكثر الأئمة ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما، وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهي عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم، أو لا يُعطى الكاتب حقه، ويحمل الشاهدُ مؤنةَ مجيئه، ونحو ذلك ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟﴾ ما نهيتم عنه أو الضرار ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ مأثم وخروج عن الطاعة، لاحقٌ بكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ بجميع مصالح عباده، كرر لفظ الجلالة لتربية المهابة، وللتنبيه على استقلال كل جملة بمعنى، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعدٌ باستمرار التعليم، والثالثة وعد ووعيد وتعظيم لأمر الله تعالىٰ.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين أو متوجهين إليه ﴿وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا﴾ أو آلة الكتابة ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ فالذي يُستوثق

به رهان، واتفق العلماء على جواز الرهن في الحضر والسفر، ومع وجود الكاتب وعدمه، وقد صح أن الرسول ﷺ رهن درعه عند يهودي بعشرين صاعاً من شعير، أخذه طعاماً لأهله، والرهن ما وضع عند إنسان مقابل ما أخذ منه ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض وعليه الجمهور، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعض الدائنين بعض المديونين، واستغنى بأمانته عن الارتهان، فلم يتوثق بالكتابة، والشهادة، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ وهو المديون، وإنما عبر عنه بذلك لحمله على الأداء ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دَيْنه، سمَّاه أمانة لائتمانه عليه، بترك الارتهان ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في الخيانة، وإنكار الحق ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود أو المديونون، والشهادة شهادتهم على أنفسهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ الإثم أسند إلى القلب لأنه رئيس الأعضاء، وكأنه قيل تمكَّن الإثم في نفسه، وأشرف مكانه، ألا ترى أن أصل الحسنات الإيمانُ، وأصل السيئات الكفرُ، وهما من أفعال القلوب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم به.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً، لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه، لأنه الخالق لهما ولما فيهما ﴿وَإِن تُبْدُوا﴾ بأن تظهروه للناس، بالقول أو بالفعل ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من السوء أو العزم به ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ بأن تكتموه منهم، ولا يندرج فيه مالا

يخلو عنه البشر من الوساوس، وأحاديث النفس، التي لا عقد ولا عزيمة فيها وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»[1] إذ التكليف بحسب الوسع ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب، والجمهورُ على أن الحديث في الخطرة دون العزم، وأن المؤاخذة ثابتة في العزم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ وقوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ ولأن أعظم المؤاخذات إنما يكون بأفعال القلوب، كاعتقاد الكفر والبدع ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته بفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، قدَّم المغفرة رحمة منه للعباد، ترغيباً لهم في المسارعة إلى موجباته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى لرسوله ﷺ على صحة إيمانه، وأنه جازم في أمره غير شاك، والمراد إيمانه بذلك إيماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع مافيه من الشرائع والأحكام المذكورة، وفائدة هذه الأخبار أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان، حيث مُدح به رسوله ﷺ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحده من غير شريك له، وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله، لتأكيد الإشعار لما بين إيمانه ﷺ المنبىء عن المشاهدة والعيان، وبين إيمانهم الناشىء عن الحجة والبرهان، من التفاوت البيِّن والاختلاف الجلي، كأنهما متخالفان من كل وجه، أي كل واحد منهم آمن بالله ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ من حيثُ إنهم عباد مكرمون، معصومون ومطهَّرون، «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون». ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ من حيث مجيئهما من عند الله تعالى، على وجه يليق

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٤٧٨ ومسلم رقم ١٢٧ في الإيمان، وأبو داود رقم ٢٢٠٩ باب الوسوسة في الطلاق، وهذه رواية أبي داود، وفي البخاري «ما لم يعملوا به أو يتكلَّموا» بصيغة الجمع.

بشأن كل منهما، وإنما لم يذكر ههنا الإيمان «باليوم الآخر» لاندراجه بكتبه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي يقولون: لا نفرق بينهم بل نؤمن بالكل، قيدوا به إيمانهم تحقيقاً للحق، وتخطئةً لأهل الكتاب، حيث أجمعوا على الكفر بالرسول ﷺ واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام ﴿وَقَالُوا۟﴾ هو حكاية لامتثالهم بالأوامر، إثر حكاية إيمانهم ﴿سَمِعْنَا﴾ بآذان قلوبنا، وعلمنا صحته وتيقنا أن كل تكليف ورد بواسطة الرسول ﷺ إلينا حقٌّ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك وقبلناه عن طوع، واجتنبنا عن نهيك ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ نطلب غفرانك ذنوبنا، وتقديمُ السمع والطاعة على طلب الغفران، لِمَا أن تقديم الوسيلة أَدْعىٰ إلى الإجابة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع بالموت والنشور، وفيه إقرار بالبعث والحساب والجزاء.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ إلا ما تَسَعُ قدرتها، فضلاً ورحمة وتيسيراً عليها لقوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر﴾ فهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ من شر، لا ينتفع بطاعتها، ولا يتضرر بمعاصيها غيرها، وهو للترغيب في المحافظة على موجب التكليف، والتحذير عن الإخلال بها، قال الله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ وعن الحسن أن ذلك على تقدير الأمر، أي قولوا في دعائكم ذلك، فهو تعليم لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم، أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان والخطأ من تفريط، وقلة

مبالاةٍ، والمعاصي كالسموم فكما أن تناولها ولو سهواً مؤد إلى الهلاك، فتعاطي المعاصي خطأ أيضاً، لا يبعد أن يفضي إلى العقاب ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عطف على ما قبله، والإِصْرُ: العهد، والذنب والمراد به التكاليف الشاقة من نحو قتل النفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا، وهو ما كلفه على بني إسرائيل من قتل الأَنفس، وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية استعفاء عن العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليها، قيل: هو الفرقة والقطيعة، وقيل: هو المسخ والخسف ونحو ذلك ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا وآثار ذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطف بنا وتفضل ولم يؤت في هذه الجمل الثلاث بلفظ ربنا لأنها نتائج ما تقدم، فجاء فاعف عنا مقابلاً بلا تؤاخذنا، واغفر لنا مقابل: ﴿ولا تحمل علينا إصراً﴾ وارحمنا مقابل: ﴿ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به﴾ ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي مالكنا وسيدنا وناصرنا ومتولي أمورنا ونحن عبيدك ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، والمراد به عامة الكفرة، حكى عن المؤمنين هذه الأدعية بصيغة الجمع، لأن قبول الدعاء عند الاجتماع أكمل، فإذا اجتمعت الأرواح والدواعي على شيء واحد، كان للهمم تأثيرات ولحصوله تلميحات. عن ابن مسعود: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه» كفى بمعنى أغنى أو بمعنى دفع.

وأخرج الحاكم والبيهقي عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيها الله تعالى من كنزه الذي تحت العرش فتعلموها وعلموها نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي من رواية أبي ذَرٍّ مرفوعاً.

اللهم اجعل لنا من إجابة هذه الدعوات أوفر نصيب، ووفقنا للعمل الصالح والقول المصيب، واجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء أسماعنا، وضياء أبصارنا، ونزهة أرواحنا، ويسر لنا إتمام ما قصدناه فلا تجعل لنا مانعاً عما أردناه، وسهل بتوفيقك ما نويناه، وصل وسلم على خير خلقك محمد وعلى آله الواقفين على أسرار كتابك، وأصحابه الفائزين بحكم خطابك.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة»

* * *